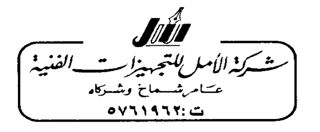
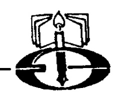
سلسلة التربية فى القرآن الكريم
(٥)
الحلقة الخامسة

التربية الإسلامية فى سورة الأنفال

تأليف
الدكتور على عبد الحليم محمود
من علماء الأزهر





دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى الراغبين في أن يربوا أنفسهم وأبناءهم وغيرهم من الناس تربية إسلامية نابعة من مصدرى الإسلام الرئيسين:

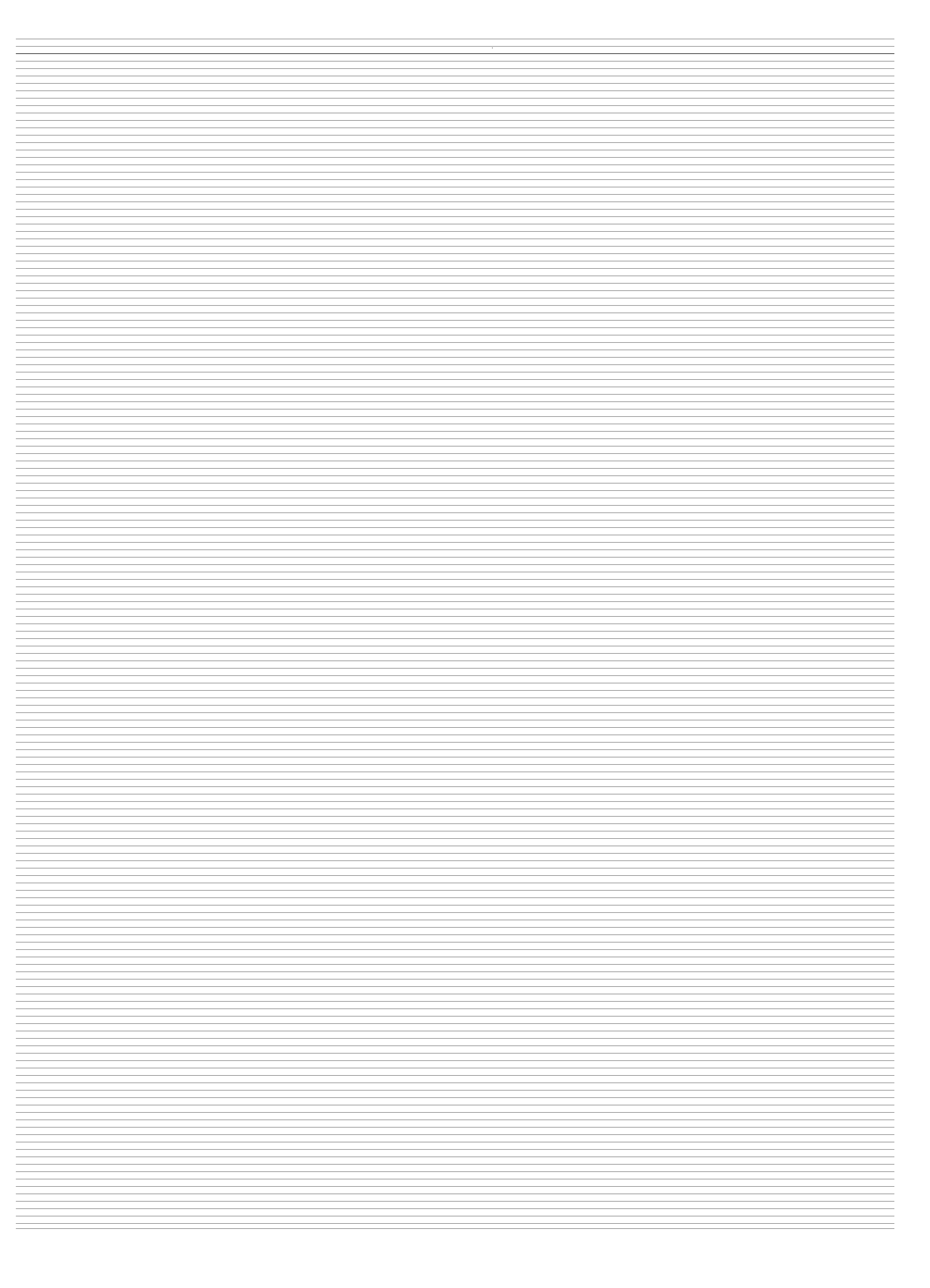
القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وإلى المشغولين بالتربية الإسلامية من العلماء والمعلمين والمتعلمين، أقدم هذا الكتاب، خامس حلقة فى سلسلة التربية فى القرآن الكريم، وموضوعه : التربية الإسلامية فى سورة الأنفال، سائلا الله تبارك وتعالى لى ولهم العفو والعافية فى الدنيا والآخرة.

على عبد الحليم محمود

غرة شهر ربيع الآخر من سنة ١٤١٧ هـ

الموافق ١٦ / ٨ / ١٩٩٦م



بين يَدَىْ هذه السلسلة

هذه السلسلة: «التربية فى القرآن الكريم» عمل كبير، تطلب منى جهدا كبيرا، ووقتا طويلا، وتوفيقا من الله وعونا، أرجو أن أكون قد حظيت منه بما ينجز هذا العمل.

وإنما كان هذا العمل كبيرا ومجهدا، لأن استنباط المواقف التربوية من سور القرآن الكريم غير مسبوق، بمثيل يهتدى به الباحث –فى حدود علمى– لذلك احتاج منى إلى وقت طويل وتدبر عميق فى الآيات الكريمة.

● ولقد وفقنى الله تعالى إلى إنجاز أربعة كتب من هذه السلسلة هى:

– التربية الإسلامية فى سورة المائدة .

– والتربية الإسلامية فى سورة النور .

– والتربية الإسلامية فى سورة آل عمران.

– والتربية الإسلامية فى سورة الأحزاب[١] .

– والتربية الإسلامية فى سورة الأنفال –وهو هذا الكتاب، سائلا الله تعالى إتمام النعمة بإنجاز ما بقى من هذه السلسلة، وهو كتابان:

– التربية الإسلامية فى سورة التوبة،

– والتربية الإسلامية فى سورة النساء.

والمواقف التربوية التى أستنبطها

من الآيات الكريمة ذات شقَّيْن

أحدهما: عام يفيد منه كل المسلمين.

والآخر: خاص يفيد منه العاملون فى مجالى الدعوة والحركة الإسلامية من أجل التمكين

---

(١) صدرت هذه الكتب الأربعة عن: دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

لدين الله فى الأرض.

وكل منهما نافع للمسلم فى دينه ودنياه بإذن الله تعالى، إذا أخلص النية وقرأ آيات القرآن الكريم فى وعى وتدبر، مؤديا واجبه نحو ربه يدعو إليه، وإلى دينه ودعوته، عارضا لهما على الناس مؤمنين وغير مؤمنين، محاولا جذبهم إلى إرضاء الله تبارك وتعالى بالدخول فى طريق الحق والهدى.

– أما المؤمن الذى تُعرض عليه أمور الدين والدعوة، ويطلب منه الالتزام بها والانتماء إليها، فيزداد بذلك إيمانا وهدى، وفقهاً لدينه ودعوته، فيتحول من مدعو إلى الحق إلى داع إليه يتحرك بهذا الدين فى العالم كله، ويعمل على تمكينه فى الأرض.

– وأما غير المؤمن حين يُعرض عليه ذلك، فلعل الله تعالى أن يهديه إلى الإيمان والحق، فيعبر من الضلال والحيرة إلى الهدى والاطمئنان، فيربح دنياه وآخرته، ويكون بالنسبة لمن دعاه من خير أعماله عند الله تعالى، ومن أجداها فى مجال الأجر والثواب، فتلك حقيقة أكدتها أحاديث الرسول ﷺ:

فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبى طالب رضى الله عنه حين وجهه إلى خيبر: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم».

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا».

● وأود ألا يفوتنى هنا أن أذكر بما سبق أن قلته فى تقديم هذه السلسلة فى الحلقة الأولى منها وهى: «التربية الإسلامية فى سورة المائدة» مع إجمال وتركيز، عسى الله أن ينفع بها عباده المؤمنين فأقول:

لقد اشتركت جميع الشرائع التى جاءت من عند الله فى إرساء دعامتين أساسيتين يقوم عليهما بناء التعليم والتربية، أو بناء الإنسان المؤمن الذى يكون محل رضى الله تبارك وتعالى.

هاتان الدعامتان هما :

- توحيد الله تبارك وتعالى، وعبادته وفق ما شرع، ودليل ذلك أن كل نبى أو رسول قال لقومه : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »[1].

- وطاعة الله تعالى فى كل ما أمر به، واجتناب كل ما نهى عنه. ودليل ذلك أنه ما من نبى أو رسول إلا طالب قومه بطاعة الله ورسوله فقال لهم بعض الأنبياء : « أطيعوا الله والرسول ».

وقال لهم بعضهم : « وأطيعوا الله ورسوله ».

وقال لهم آخرون : « وأطيعوا الرسول واحذروا ».

وقال لهم آخرون : « فاتقوا الله وأطيعون »[2].

- وما طالب الأنبياء والرسول أقوامهم بذلك التوحيد، وتلك الطاعة لله ورسوله، إلا لما لذلك من أهمية بالغة فى تربية الإنسان تربية صحيحة تنضجه وتكسبه الخبرة فى حياته الدنيا بحيث يمارس حياة إنسانية جديرة بتكريم الله تعالى له، وتمكنه من أن يحظى من خلالها بسعادة الدارين.

- وإذا كانت مفردات تربية الإنسان -كما ذكرتُ هناك- مما قد اهتم بها الإسلام كل الاهتمام، كما دلت على ذلك آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، وهى أنواع استطعنا أن نحصى منها عشر مفردات هى :

- التربية الروحية،
- والتربية الخلقية،
- والتربية العقلية[3]،

---

(١) وردت هذه الآية الكريمة بنصها فى :
سورة « الأعراف » : أربع مرات « فى الآيات : ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥ »، وفى سورة هود : ثلاث مرات « فى الآيات : ٥٠، ٦١، ٨٤ »، وفى سورة « المؤمنون » : مرتين فى الآيتين : ٢٣، ٣٢.

(٢) وردت هذه الآية فى : سورة آل عمران مرتين فى الآيتين : ٣٢، ١٣٢، وفى سورة الأنفال ثلاث مرات فى الآيات : ١، ٢٠، ٤٦، وفى سورة المائدة : ٩٢، وفى سورة الشعراء فى الآيات : ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٢، وفى سورة الزخرف ٦٣، ونوح : ٣، وغير ذلك من السور الكريمة.

(٣) صدرت هذه الكتب عن دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

– والتربية الجسمية،

– والتربية الدينية،

– والتربية الاجتماعية،

– والتربية السياسية،

– والتربية الاقتصادية،

– والتربية الجهادية،

– والتربية الجمالية[١].

وقد ذكرنا هناك[٢] من تفصيلات هذه المفردات أجزاء سبعة، وأوضحنا كيف لقيت هذه الأنواع العشرة من التربية من الإسلام: «القرآن والسنة» مزيداً من العناية والاهتمام، حتى إن القائل: «إن كل آيات القرآن الكريم وكل أحاديث النبى ﷺ متضمنة قيما تربوية بشكل مباشر أو غير مباشر» لا يعدو الصواب فيما قال.

● ومن أجل أن نحصل –فى هذه السلسلة– على التربية الصحيحة للإنسان، التربية المتكاملة، كان اتجاهنا إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، فهما معين لا ينضب أبدا، وفيهما كل ما يحتاج إليه الإنسان لمعاشه ومعاده.

● وقد يقول بعض الغافلين: إن القرآن وحده يغنى فى الرجوع إليه عن السنة النبوية، وهؤلاء غافلون لجهلهم أن السنة النبوية هى مفسرة القرآن الكريم وشارحته، ومن المعروف لدى العلماء المسلمين أن فهم القرآن فهما تفصيليا لا يتم إلا بسنة النبى ﷺ.

● وقد أكد مكانة السنة النبوية من القرآن الكريم الرسول ﷺ نفسه فى عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، نذكر منها:

– ما رواه أحمد وأبو داود بسنديهما عن المقدام بن معديكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيتُ الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السبع، ولا لُقطَة

(١، ٢) شرحنا ذلك بتوسع فى كتاب لنا هو: «المدخل إلى التربية الإسلامية»، نرجو أن ندفع به إلى المطبعة قريبا إذا أذن الله وأعان.

معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها».

– وروى أحمد وأبو داود والحاكم بأسانيدهم عن المقدام بن معديكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئا على أريكته يُحدث بحديث من حديثى، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرام الله».

● ولعل هذه الأحاديث النبوية الشريفة ترد أبلغ رد على أولئك الأغرار الذين تحدث عنهم النبى ﷺ، قبل أربعة عشر قرنا من الزمان فوصفهم بأوصاف اللاهين الذين لا يبالون، وهم جلوس على الآرائك فى شبع و رى، يرفضون السنة النبوية المطهرة، زاعمين أن القرآن يغنى عن السنة.

● ومن العجب أن بعض هؤلاء الأغرار يطلقون على أنفسهم القرآنيين!!!

وكيف يكون قرآنيا من ينكر السنة النبوية وهى مثل القرآن؟.

● ومن أجل انتقاء أحسن المناهج وأكملها فى التربية الإسلامية المتكاملة المعنية بكل جانب من جوانب حياة الإنسان..

● ومن أجل تربية المسلمين جميعا صغارهم وكبارهم، أفرادهم وجماعاتهم وأسرهم ومجتمعاتهم فى العالم كله وفق منهج الإسلام فى التربية..

● ومن أجل التأكيد على تميز المسلمين فى التربية عن غيرهم من الناس وعن سواهم من الأمم، وتميز منهجهم فى الحياة عن غيره من المناهج..

● ومن أجل بناء الفرد المسلم فالمجتمع المسلم فالدولة المسلمة..

● من أجل ذلك كله كان توجهنا إلى مصدرى الإسلام:

القرآن الكريم،

والسنة النبوية المطهرة.

نتدبرهما ونستنبئهما عن التربية الإسلامية:

مفهومها، وأبعادها، وأنواعها، وخصائصها، وأهدافها، ووسائلها، وكل ما لها أو عليها.

● ومن المؤكد لدينا أن المسلمين فى كل عصر ومصر، يحتاجون دائما إلى أن يتربوا تربية

إسلامية صحيحة نابعة من الكتاب والسنة، ليستطيعوا العيش فى كرامة، وقد استوعبوا أهداف التربية الإسلامية ومقاصدها والقيم التى تحكمها، وبها يعرفون القيم الخلقية الثابتة . . .

● وبعد ذلك يتمكنون من الانطلاق فى مجالات الإيمان والعلم والمعرفة ليعمروا الأرض ويملؤوها عدلا ورحمة وسلاما، كما يطالبهم بذلك دينهم، كما تكشف عنه أهداف التربية الإسلامية .

● ولقد كانت بداية عملنا فى هذا المجال : تفسير سورة المائدة، تحت عنوان : « التربية الإسلامية فى سورة المائدة »، وكان ذلك من توفيق الله تعالى وتسديده .

ثم كانت خطوتنا الثانية هى : « التربية الإسلامية فى سورة النور »، وكان ذلك من توفيق الله تعالى وجميل عونه، ثم واصلنا العمل فى هذه السلسلة حتى كانت هذه الحلقة الخامسة « التربية الإسلامية فى سورة الأنفال » .

ثم يفتح الله ما شاء عن عون لنكتب فى : « التربية الإسلامية فى سورة النساء » و : « التربية الإسلامية فى سورة التوبة » إذا أذن الله تعالى وأعان .

● ونود أن نؤكد حقيقة لها بالغ الأهمية فى حياة المسلمين هى :

أن المسلمين لا يستطيعون أن يتعلموا من مصدر للعلم والثقافة والمعرفة، كما يتعلمون من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد أورد ابن الأنبارى[1] بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم » وفى رواية : فاقبلوا .

وقد قال العلماء فى تفسير ذلك : إنه مثل، شبه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه، وقد أورد ابن الأنبارى هذا الحديث فى كتابه : « الردّ على من خالف مصحف عثمان » وهذا الحديث بتمامه هو : « إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة من تمسك به، ونجاة من اتبعه، لا يَعوَجّ فيُقوّم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضى

---

(١) هو محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى من مشاهير علماء اللغة، كان يحفظ ثلاثمائة ألف شاهد فى القرآن، علم أبناء الخليفة الراضى بالله ومن أجل كتبه كتاب : غريب الحديث، وهو كتاب ضخم يقال إنه خمس وأربعون ألف ورقة . ولد سنة ٢٧١هـ، وتوفى ٣٢٨ هـ ٨٨٤ - ٩٤٠م .

عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إنى لا أقول: آلم حرف. ولا ألفَيَنّ أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة، فإن الشيطان يفر من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة، وإن أصفر البيوت من الخير، البيت الصفر من كتاب الله».

– وروى الدارمى بسنده عن الحارث الأعور عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتن تقطع الليل المظلم، قلت يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم،وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمة الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» خذها إليك يا أعور» والأعور لقب الحارث وليس ذمًا له أو نبزًا له.

● وأهم ما يحتاج إليه الإنسان من التعليم فى معاشه ومعاده، هو ما يصحح به عقيدته وعبادته لربه، وما يتعامل به مع ربه، ومع نفسه ومع الناس.

وقد أجمل الأسلاف من العلماء كل ذلك فى أمرين هما:

– علم التوحيد،

– وعلم أفعال العبيد.

ويدخل فى هذين العلمين جميع العلوم والمعارف، مما له صلة بحياة الإنسان فى معاشه ومعاده.

● والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد تكفلا ببيان ذلك كله، بما لم يُبين مثله فى كتاب أو منهج سابق أو لاحق، وهذا من فضل الله على الأمة الإسلامية، التى أورثها الكتاب وجعله خاتم الكتب وأتمها وأكملها وأرضاها لله تعالى.

● وللقرآن الكريم والسنة النبوية منهج فى التربية يتسم بسمات تجعله متفردا عن سائر

المناهج متميزا عنها، متكاملا متوازنا قادراً على أن يحقق للمتمسكين به سعادة الدنيا والآخرة.

وإذا شئنا أن نشير إلى مجمل سمات هذا المنهج قلنا:

- إنه منهج من عند الله تبارك وتعالى، وهذا حسبه فى أن يكون أكمل المناهج وأكثرها ملاءمة للناس فى كل زمان ومكان.

- وإنه شامل لكل ما يحتاج إليه الإنسان،

- وإنه متكامل لا يغنى بعضه عن بعض،

- وإنه متوازن يحقق الأخذ به للناس أرقى درجات التوازن بين حاجات الإنسان وإمكاناته وفطرته التى فطر الله الناس عليها.

- وإنه إيجابى، يجعل الإنسان فاعلا قادرا على أن يواكب كل متغيرات الحياة وكل متطلباتها.

- وإنه يجمع بين المثالية فى أرقى مستوياتها، والواقعية فى الاعتراف بحاجات الإنسان المشروعة، والعمل على تحقيقها.

- وإنه منهج يستهدف تربية الفرد والأسرة والمجتمع، بل الإنسانية كلها، لتعيش حياتها اللائقة بها، المحققة لتكريم الله تعالى لها.

بَيْنَ يَدَىْ هذا الكتاب

هذا الكتاب: «التربية الإسلامية فى سورة الأنفال» أحاول أن أوضح فيه أهمية أن يكون للأمة الإسلامية قوة مادية تدفع بها أعداءها،وتدافع عن الحق الذى تدعو إليه، والدين الذى يجب أن تنشره بين الناس، حتى تستقيم البشرية على الجادة، ويكون الدين كله لله رب العالمين، وذلك أن أسوأ ما يسوء الأمة المسلمة أن تكون ضعيفة لا تملك القوة التى تلائم العصر الذى تعيش فيه، لتشق طريقها فى أمن وثقة نحو حياة إنسانية كريمة.

● وهذه السورة الكريمة «الأنفال» تحمل فى مضامينها ما يؤكد أن المسلمين يجب أن تكون لهم قوة معنوية ومادية تواجه بها أعداءها، وتعلى بها كلمة الله.

● وموضوع هذه السورة الرئيس الذى يغلب على كثير من آياتها الكريمة هو: «معركة بدر الكبرى» التى سمى الله تعالى يومها بيوم الفرقان فى قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** .... (٤١) ﴾ [**الأنفال**: ٤١].

حتى إن بعض العلماء يرون أن سورة الأنفال كلها فى يوم بدر، ومنهم ابن إسحق الذى قال: «فلما انقضى أمر بدر وأنزل الله عز وجل فيه من القرآن الأنفال بأسرها....».

● وأحب أن أؤكد أن هذه المعركة كانت فاصلا بين مرحلتين من مراحل الدعوة إلى الله: مرحلة المسالمة المطلقة للأعداء، ومرحلة مواجهة الأعداء بالقوة.

وهذه المعركة هى المعركة التى أصِّلت بمناسبتها قواعد الجهاد فى سبيل الله، واتضحت أهدافه وشروطه وآدابه، بل رسمت فيها الخطوط العامة لكل ما يجب أن يسبق الجهاد من إعداد واستعداد، بل رسمت الخطوط لما يكون عليه الأمر بعد انتهاء المعركة، وعرفت الأحكام الخاصة بما يعقب المعركة من أسرى وغنائم وأنفال، بل رسمت كثيرا من الحرب والسياسة، وكيفية التعامل مع المشركين وأهل الكتاب.

كما أوضحت هذه السورة الكريمة المعنى الدقيق لعون الله تعالى للمؤمنين ومدهم بمختلف أنواع المدد، ماديا كان أو معنويا.

● وإن الذين يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلون عن الحق بالتى هى أحسن، والذين يملكون القدرة على الحركة من أجل الإسلام، والذين يجاهدون فى سبيل الله، كل

هؤلاء يحتاجون إلى أن يراجعوا هذه السورة الكريمة ويتدبروا ما جاء فيها، لكى يجدوا لأنفسهم مكانا بين المؤمنين الذين تحدثت عنهم هذه السورة الكريمة ووصفتهم وصفا دقيقا.

- إن الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن هى التى تمهد للحركة الإسلامية، وتلك الحركة هى التى تمهد للتمكين لدين الله فى الأرض، وكل ذلك قائم على منهج تربوى دقيق نابع من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- وعندما تقوم العقبات فى طريق الدعوة أو الحركة أو التمكين لدين الله فى الأرض، وعندما يشتط أعداء الإسلام فى حربهم للمسلمين وتحديهم لدينهم وما يدعون إليه، عندئذ يكون الجهاد فى سبيل الله؛ لتكون كلمة الله العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، أى العمل على أن يسيطر منهج الله تعالى على سائر المناهج. وسورة الأنفال بما فيها ضوء كاشف لمعالم هذا الطريق، بل علامات عليه ومؤشرات وموجهات.

- وآيات القرآن الكريم كلها، والسنة النبوية جميعها، هما اللذان يمدان المؤمنين بالمنهج الصحيح والعمل الصالح والتعاون على البر والتقوى، والتعامل مع الناس مؤمنهم وكافرهم، فى كل عصر وزمن مهما تطاول الزمان، وفى كل بقعة من الأرض مهما تباعد المكان.

- وسورة الأنفال التى نتحدث عنها فى هذا الكتاب -تلقى الضوء على القوة المادية والمعنوية بوصفها سندا للحق، ووسيلة من وسائل نشره والدفاع عنه أمام الذين يعاندونه ويعترضون طريقه والدعاة إليه.

سورة الأنفال

والقيم التربوية التى اشتملت عليها

هذه السورة الكريمة حافلة بالقيم التربوية التى تهدى المؤمنين لما فيه سعادة دنياهم وأخراهم، بل تهدى الناس جميعا -لو أخذوا بما فيها- إلى ما يصلح شئونهم فى الدنيا والآخرة، وموضوع هذه السورة هو غزوة بدر، وهى أولى المعارك العسكرية بين المؤمنين والمشركين.

- ومعركة بدر وما جرى فيها، وما كان قبلها، وما جاء بعدها من نتائج ترتبت على انتصار المؤمنين وانهزام المشركين، تضمنت دروسا عظيمة للمؤمنين فى ذلك الزمان الذى حدثت فيه المعركة، ولا تزال تعطى للمسلمين حتى اليوم وإلى آخر الزمان دروسا عظيمة الأثر -لو تدبروا وتأملوا فيما اشتملت عليه من عبر- كما كانت وستظل معركة أحد مشتملة على دروس عظيمة للمسلمين عندما تقع بهم هزيمة (١).

- والقرآن الكريم كله حافل بالدروس والعبر والقيم التربوية لمن تدبر وتأمل، وفتح الله عقله وقلبه لتلقى الخير والهدى، ولا عجب فى ذلك ولا غرابة، فالقرآن الكريم دائما يهدى للتى هى أقوم، أى لأقوم السبل وأحسنها وأسلمها فى الوصول إلى السعادة فى الدنيا والآخرة، ويبشر المؤمنين بعظيم الأجر يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** (٩) ﴾ [الإسراء: ٩].

- ومن دروس هذه السورة الكريمة يتعلم المسلمون من عدوهم ومَنْ وليهم، ومن يحاربون ومن يسالمون، وماذا يعدون لعدوهم لينتصروا عليه، وكيف يعدون لعدو مرتقب لا يعلمه إلا الله.

ويتعلمون أن النصر فى حقيقته من عند الله بعد أن يأخذ المؤمنون بكل الأسباب المتاحة، لأن الأخذ بالأسباب هو الإعداد الذى طولبوا به فى هذه السورة الكريمة.

---

(١) أوضحنا ذلك فى كتابنا: «التربية الإسلامية فى سورة آل عمران» نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية -القاهرة ١٤١٥ هـ-١٩٩٥م.

● وكل ما فى السورة من قيم سوف نوضحه ونحن نتحدث عن تفسير هذه الآيات الكريمة، ثم نستنبط منها ما فيها من قيم تربوية عامة، أو قيم تربوية فى مجالى الدعوة والحركة والتمكين لدين الله فى الأرض.

● ولنوضح هنا –فى إجمال– ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من موضوعات، دَلاًّ على كل موضوع منها آية أو عدد من الآيات الكريمة؛ لأن هذا من منهجنا فى تفسير ما فسرناه من سور كريمة[1] فنقول سائلين الله تعالى العون والتوفيق:

١ – الآيات الكريمة من الأولى إلى الرابعة:

وموضوعها: بيان حكم الأنفال، ومطالبة المؤمنين بالتقوى وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله للدخول فى زمرة المؤمنين.

وفى الآيات وصف للمؤمنين بصفات منها:

– خوفهم من الله عموما وعند ذكره خصوصا،

– والرضى بأحكامه وكل ما يقضى به،

– والتوكل على الله تعالى،

– وإقامة الصلاة،

– والإنفاق فى سبيل الله،

وذلك هو الإيمان الحق الذى يستحق صاحبه الدرجات العلى عند الله والمغفرة والرزق الكريم.

٢ – والآيات من الخامسة إلى الثامنة:

وموضوعها: معركة بدر كان هدفها إحقاق الحق وإبطال الباطل، وأن المؤمنين ما ينبغى أن يصرفهم عن ذلك صارف من مغنم أو إيثار للعافية.

٣ – والآيات من التاسعة إلى الرابعة عشرة:

وموضوعها أنواع المدد الإلهى للمؤمنين فى معركة بدر، وبيان لمصير المشركين المعاندين

---

(١) حدث ذلك فى تفسير سورة المائدة وسورة النور، وسورة آل عمران، وسورة الأحزاب –وفى هذه السورة الكريمة.

للحق، الذين يشاقون الله ورسوله.

٤ - والآيات من الخامسة عشرة إلى التاسعة عشرة:

وموضوعها: الجهاد فى سبيل الله وشروطه، وما يصيب المؤمنين من بلاء حسن، وما يضعف به الكافرين، ويفزع به قلوبهم.

٥ - والآيات من العشرين إلى الثالثة والعشرين:

وموضوعها: مطالبة المؤمنين بطاعة الله ورسوله، ونهيهم عن التولى عن الرسول ﷺ بعد ما تبين لهم الحق الذى يدعوهم إليه، وينهاهم أن تكون استجابتهم للرسول ﷺ بمجرد الاستماع إليه بالآذان دون وعى بالقلوب، فهذا شأن الكفار والمنافقين، وهؤلاء كالدواب التى لا خير فيها.

٦ - والآيات من الرابعة والعشرين إلى التاسعة والعشرين:

وموضوعها: مطالبة المؤمنين بالاستجابة لما يدعوهم إليه الرسول ﷺ، وتحذيرهم من الوقوع فى الفتنة، وتذكيرهم بنعم الله عليهم بنصره وتأييده ورزقه، وتحذيرهم من خيانة الله ورسوله وخيانة الأمانة، وتحذيرهم من أن تفتنهم أموالهم أو أولادهم عن الواجب، وتعليمهم أن التقوى باب لتكفير السيئات ومغفرة الذنوب.

٧ - والآيات من الثلاثين إلى الخامسة والثلاثين:

وموضوعها: تذكير الرسول ﷺ بمكر المشركين به فى مكة لقتله أو حبسه، وأن الله تعالى نجاه منهم، ووصفٌ لهؤلاء المشركين وتحديهم للنبى ﷺ وزعمهم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، وبيان لغفلتهم إذ يطلبون ما لا يطلبه عاقل، وإخبار من الله تعالى لرسوله بأنه سبحانه لن يعذب الكفار ما دام رسوله فيهم أو ما داموا يستغفرون الله من ذنوبهم وآثامهم، مع أنهم يستحقون العذاب بصدهم عن المسجد الحرام، واستخدامهم المكاء والتصفيق فيه.

٨ - والآيات من السادسة والثلاثين إلى الأربعين:

وموضوعها: بيان حال الكافرين والحديث عن جهودهم فى الصد عن سبيل الله، وتوضيح لمصيرهم، وإخبار بأن الكفار لو انتهوا عن معاداة الحق غفر الله تعالى لهم ما سلف، وتهديد لهم لو استمروا على العداء، ومطالبة للمسلمين بقتالهم لو استمروا فى عنادهم، مع وعد المسلمين بأن ينصرهم الله عليهم.

٩ - والآيات من الحادية والأربعين إلى الرابعة والأربعين:

وموضوعها: أحكام الغنائم، وحديث عن معركة بدر وما دار فيها من عون الله وتأييده للمسلمين.

١٠ - والآيات من الخامسة والأربعين إلى الرابعة والخمسين

وموضوعها: نداء على المسلمين ومطالبة لهم بالثبات فى لقاء العدو، وطاعة الله ورسوله، وترك التنازع وأسبابه، وتحذيرهم من مصائر الكفار والمنافقين، وحديث عما دار فى معركة بدر.

١١ - والآيات من الخامسة والخمسين إلى الثالثة والستين:

وموضوعها: بيان لحال اليهود فى عدائهم للرسول ﷺ، وأحكام للتعامل مع اليهود ومع غيرهم من الأعداء، ومطالبة للمسلمين بالإعداد والاستعداد.

١٢ - والآيات من الرابعة والستين إلى السادسة والستين:

وموضوعها: تحريض المسلمين على القتال، ومطالبتهم بالصبر فى هذا القتال، ومطالبتهم بالفقه فى الدين، لأن سنة الله تعالى فى الحرب أن ينصر الصابرين.

١٣ - والآيات من السابعة والستين إلى الحادية والسبعين:

وموضوعها: أحكام تتعلق بالأسرى، وأسلوب فى التعامل معهم، يكشف عن جوهر الإسلام فى احترامه لإنسانية الإنسان.

١٤ - والآيات من الثانية والسبعين إلى الخامسة والسبعين - آخر السورة الكريمة:

وموضوعها: الحديث عن أصناف المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ، وعن الولاء بين المؤمنين، والولاء بين الكفار.

سورة الأنفال

أسباب نزولها والمعركة التى تحدثت عنها

● أرجح الأقوال أنها: سورة مدنية، أى نزلت كلها بالمدينة المنورة، رُوى هذا القول عن الحسن، وعكرمة، وجابر بن زيد، وعطاء، وعبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، رضى الله عنهم.

● وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها مدنية إلا سبع آيات هى:

– الستة آيات التى تبدأ بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)** ﴾ [**الأنفال**: ٣٠ – ٣٥].

– والآية السابعة هى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)** ﴾ [**الأنفال**: ٦٤].

هذه الآيات السبع نزلت فى مكة، وباقى السورة نزل فى المدينة.

● والأرجح أن السورة كلها مدنية، وأن ما جاء فيها من هذه الآيات الست فى الكلام عما فعل المشركون من محاولات لقتل الرسول ﷺ أو حبسه، أو إخراجه من مكة –يوم هاجر إلى المدينة– إنما هو تذكير له وللمؤمنين بما حدث فى مكة.

والمتفق عليه بين العلماء أن كل ما نزل من القرآن الكريم بعد الهجرة النبوية فهو مدنى؛ أيا كان الموضوع الذى تعرضه الآيات.

● وعدد آيات هذه السورة الكريمة فى مصحف عثمان رضى الله عنه خمس وسبعون آية.

وعدد آياتها فى بعض المصاحف ست وسبعون آية.

وفى بعض المصاحف عدد آياتها سبع وسبعون آية.

وسبب تلك الزيادة عن الخمسة والسبعين هو تجزئة بعض الآيات.

● وقد نزلت هذه السورة الكريمة فى معركة بدر الكبرى، كما روى ذلك البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما.

– وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه، قال: سألت عبادة رضى الله عنه عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين.

– وفى رواية أخرى لأحمد بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فشهدتُ معه بدرا، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو، فانطلقتْ طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلتْ طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ، لا يُصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حوينا، فليس لأحد فيها نصيب.

وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو، وهزمناهم.

وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله ورسوله، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين.

● وفى المعركة التى تحدثت عنها هذه السورة الكريمة قال محمد بن إسحق –صاحب السيرة النبوية–: حدثنى محمد بن مسلم الزهرى، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبى بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير.

وحدثنى غيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما.

كلٌ قد حدثنى هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر. قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب الناس فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا.

وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أمر الناس، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها فى أصحابه.

فخرج ضمضم بن عمرو الغفارى سريعا إلى مكة.

وخرج رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له: دفران، فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم.

فاستشار رسول الله ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش: فقام أبو بكر رضى الله عنه، فقال فأحسن،

ثم قام عمر رضى الله عنه، فقال فأحسن،

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله: امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «برك الغماد» يعني مدينة بالحبشة، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علىّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار -وذلك أنهم كانوا عدد الناس- وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من زمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى زمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ -رضى الله عنه-: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟.

قال: أجل.

فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك

عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك فوالذى بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته، لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونًا غدًا؛ إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسر رسول الله –ﷺ– بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن انظر إلى مصارع القوم».

أما مجريات تلك المعركة فقد ذكرها ابن اسحق أيضا فى السيرة النبوية تقتطف منها ما يرسم صورتها ويحدد أبعاد تلك الصورة، وذلك فيما يلى:

قال ابن اسحق: «وخرج رسول الله ﷺ فى ليال مضت من شهر رمضان، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس، وأبا لبابة على المدينة.

ودفع رسول الله ﷺ اللواء إلى مصعب بن عمير رضى الله عنه، وكان لون اللواء أبيض، وأمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع على بن أبى طالب ويقال لها: العُقاب، والأخرى مع بعض الأنصار وهو سعد بن معاذ –كما قال ذلك ابن هشام.

– وكان أبو سفيان قد أحرز عيره وساحَلَ بها فنجى من المسلمين فأرسل إلى قريش: إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدا!!

ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادى –والقُلُب –الآبار– فى العدوة الدنيا، والمسلمون بهذه العدوة الدنيا، وبعث الله السماء فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشا منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

● فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله أرأيت هذه المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟.

قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة.

فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القُلُب، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأى.

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماءٍ من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه فمُلئ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية.

وقال سعد بن معاذ رضى الله عنه: يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشا -يشبه الخيمة- تكون فيه، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا؟ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبى الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم بُنى لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه.

وأقبلت قريش فلما رآها رسول الله ﷺ، قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم -أهلكهم- الغداة».

وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وولده الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتيبة من الأنصار.. فأبوا قتالهم وقالوا: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على..

فبارز عبيدة -وكان أسن القوم- عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علىٌّ الوليد، فأما حمزة فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه -أى جرحه جراحة لم يقم معها- وكرّ حمزة وعلىّ بأسيافهما على عتبة فأسرعا قتله، واحتملا صاحبهما إلى أصحابه.

ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتنفكم القوم، فانضحوهم عنكم بالنبل.

ورسول الله ﷺ فى العريش، معه أبو بكر الصديق. فكانت وقعه بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان، ثم عدّل رسول الله ﷺ الصفوف، ورجع إلى العريش، وهو يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد.

وأبو بكر يقول: يا نبى الله: بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع.

وكان أول شهيد من المسلمين فى بدر مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رُمى بسهم، وكذلك رمى حارثة بن سراقة أحد بن عدىّ بن النجار وهو يشرب من الحوض.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم، وقال: والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام – وفى يده تمرات يأكلهن: بخ بخ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء! ثم قذف التمرات عن يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل.

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشا بها، ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نضحهم بها، وأمر أصحابه فقال: شدوا، فكانت الهزيمة، فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: أَحَدٌ أحد.

وكان عدد المؤمنين فى هذه المعركة ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، –أو سبعة عشر رجلاً– ومعهم فرسان، وسبعون بعيرا، وكان الجيش مكونا من كتيبتين إحداهما للمهاجرين ورايتها مع على بن أبى طالب رضى الله عنه، والأخرى للأنصار ورايتها مع سعد بن معاذ.

ولم يعزم رسول الله ﷺ على أحد بالخروج إلى بدر وإنما ترك ذلك لاختيار الناس، وقد أفلتت العير وما تحمله.

ولم يكن الهدف قتال المشركين، وإنما كان توجيه ضربة سياسية واقتصادية لعير قريش العائدة من الشام وفيها كثير من أموالهم؛ إذ كانت ألف بعير موقرة بالأموال، بقيادة أبى سفيان بن حرب.

وكان جيش المشركين الذى استنفره أبو سفيان ألف رجل أو قريبا من ذلك، ومعهم مائة

فرس وستمائة درع، وكان يقود هذا الجيش أبو جهل بن هشام.

وقد انتهت المعركة بهزيمة المشركين، فقتل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون،

وأما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر رجلا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

وقد روى البخارى بسنده عن أبي طلحة رضى الله عنه أن النبى ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش، فقُذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث، أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى وأتبعه أصحابه وقالوا: ما نُرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟! فقال عمر يا رسول الله: ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

● وقد كانت معركة بدر أول قتال بين المسلمين والمشركين، وفيها بيَّن الله للمسلمين قوانين الجهاد، ونظم الحرب وما ينبغى أن يكون عليه هذا الجهاد والحرب من قيم أخلاقية تفرق بين الجهاد فى الإسلام وغيره من حروب الناس وقتالهم، مما سوف نذكره فيما يلى، والله المستعان.

سورة الأنفال

والجهاد فى سبيل الله تعالى

الجهاد بالنفس وقتال الأعداء فى الإسلام شُرع متدرجا، أى مر بمراحل فى تشريعه، نود أن نشير إليها باختصار(١) فيما يلى:

المرحلة الأولى فى تشريع الجهاد:

كان جهاد الأعداء وقتالهم غير مسموح به للنبى ﷺ ولا لأصحابه رضى الله عنهم مدة وجودهم فى مكة المكرمة، وكان ذلك لحكمة بالغة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولكنها ملائمة لطبيعة المرحلة، وظروف الدعوة، بل ظروف المسلمين أنفسهم.

والمرحلة الثانية:

أذن الله فيها للمؤمنين أن يقاتلوا من اعتدى عليهم، ويكفوا القتال عن الذين لم يوجهوا إليهم عداءً أو عدوانًا، وكانت هذه المرحلة بعد أن أجبر المسلمون على ترك مكة، حيث هاجروا إلى المدينة المنورة، وقد نزل فى تلك المشروعية للقتال قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)** ﴾ [الحج: ٣٨ - ٤١].

وهذه الآية الكريمة تشتمل على عدة حقائق من أهمها:

- أن الله تبارك وتعالى يدافع عن الذين آمنوا عندما يقاتلون أعداء الله ويؤيدهم ويساندهم؛ لأن من سنته تعالى أن ينصر المؤمنين.

---

(١) توسعنا فى الحديث عن الجهاد فى كتابنا: ركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

– وأنه تعالى شرع للمؤمنين أن يواجهوا المعتدين ولا يرضوا بظلم أو عدوان يقع عليهم، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، مع وجوب أن يأخذ المؤمنون بالأسباب فيعدوا ويستعدوا.

– وأن الذين يحاربون من أجل دينهم وإيمانهم، وأن كل ما يعاديهم إنما يعادى الله ويعادى الحق، وهذا العدو يجب حربه وقتاله.

– وأن الجهاد أو القتال إنما شرعه الله لتأمين عبادة الله وحماية شرعه ونظامه، والدعاة إليه.

– وأن هؤلاء المؤمنين الذين شُرع لهم الجهاد ووُعدوا بالنصر والتأييد من الله، عليهم واجبات كثيرة هى – كما جاء فى آية الإذن بالقتال:

- إقامة الصلاة أى إرساء عمود الدين وعماده فى المجتمع، وتطهير المجتمع من الفحشاء والمنكر والبغى.
- وإيتاء الزكاة: أى تخليص المجتمع من الحاجة والعوز، والعناية بالفقراء والمساكين، وتخليص المجتمع من البخلاء الذين يشحون بأموالهم عن وجوه الخير.
- والأمر بالمعروف لكل أحد، والنهى عن المنكر لكل أحد، وذلك أن الشرع أوجب الأمر بالمعروف أو ندب إليه، وحرم المنكر أو كرهه وكرّه فيه، وذلك أن المجتمع لا يطمئن ولا يستقر حتى يسود فيه المعروف، ويمتنع فيه المنكر.

وقد يتطلب ذلك كله جهاداً مشروعا بل واجبا أحيانا.

والمرحلة الثالثة من مراحل الجهاد هى:

أمر الله تعالى كل مؤمن قادر على القتال، أن يقاتل كل من كفر بالله، مع استثناء مَنْ طلب منهم المهادنة والمسالمة، أو كان بينه وبين المسلمين عقد وموثق، أو اعتزل القتال فلم يقاتل مع أعداء المسلمين ولا مع المسلمين، قال الله تعالى: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠)** ﴾

[النساء: ٨٩، ٩٠].

- وفى هذه المرحلة من الجهاد يحذر الله تعالى المسلمين من أن ينخدعوا بطائفة من الناس يريدون خداع المسلمين بأن يأمنوا المسلمين ويأمنوا قومهم فى نفس الوقت، هؤلاء لا

يجوز إعطاؤهم الأمان، بل يجب قتالهم حيث وجدوا، قال الله تعالى : ﴿ **سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١)** ﴾ [**النساء** : ٩١] .

والمرحلة الرابعة من مراحل الجهاد هي :

أمر الله تعالى للمسلمين بأن يقاتلوا المشركين والكفار كافة –بغير استثناء، لأن هؤلاء يقاتلون المسلمين كافة لا يستثنون منهم أحدا؛ أى أنه قتال بين الكفر والإيمان، هذا القتال من شأنه أن يستمر أبدا، لأنه عداء بين باطل وحق، وليس قتالا على حدود إقليمية ولا على مصالح أو قوميات .

ولأجل ذلك كان جهاد هؤلاء الأعداء واجبا أبدا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)** ﴾ [**التوبة** : ٣٦] .

وقال جل شأنه : ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)** ﴾ [**التوبة** : ٥] .

● وقد أشاع أعداء الإسلام فرية خلاصتها : أن الإسلام قد انتشر بين الناس بالسيف وأن المسلمين قد أكرهوا الناس على الدخول فيه، وتلك فرية ومحض كذب، وباطل من القول وزور . ونستطيع أن نسوق فى مجال الرد عليهم[1] ما يدحض افتراءهم بما يلى :

١ – الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه العزيز : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)** ﴾ [**البقرة** : ٢٥٦] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ..... (٢٩)** ﴾ [**الكهف** : ٢٩] .

---

(١) ناقشنا ذلك بتوسع فى كتابنا : الجهاد فى سبيل الله أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به . من ص ٥٢ إلى ص ٧٩ . نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية –القاهرة : ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م .

وهاتان الآيتان صحيحتان فى ترك حرية الإيمان أو الكفر للناس بعد عرض الدين أو الحق عليهم، فأين هذا الإكراه الذى يزعمون، وأين مصداقية مقولتهم إن المسلمين وضعوا السيف على رقاب الناس ثم قالوا لهم: إما أن تدخلوا فى ديننا أو نقتلكم؟! إن ذلك مجرد زعم لا سند له من الحق أو الواقع.

● وربما كان بعض الذين لا يؤمنون بالإسلام والقرآن يحتاجون إلى ردّ من نوع آخر.

وأدع هذا الرد لرجل من الغرب حَسُن فهمه للإسلام وحسنت نيته وهو يتحدث عن زعم بعض كتاب الغرب أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وذلك هو: «توماس كارليل» الذى يسميه نقاد الغرب «نبى الكتاب» يقول «توماس كارليل»: إن الزاعمين بأن الإسلام قد انتشر بالسيف، إن ذلك غاية فى السخف والغثاثة.

ويرفض أن يعتبر زعمهم ذلك من أكاذيب التاريخ، لأن تلك الأكاذيب قد تناقش فتبطل، وزعمهم هذا أضعف من أن يناقش.

ويقول: إن القائلين بذلك هم سواء ومن يقول: إنَّ رجلا واحد حمل سيفه[١] وخرج إلى جميع مخالفيه ليبعث فيهم الخوف من سيفه -وحده- ويسوقهم كرهًا إلى اعتقاد ما ينكرون، فيعتقدونه ويثنون عليه ثم يحملون السيف معه لتخويف الآخرين حتى يدخلوا هذا الدين!!!

وفى سبيل دحض هذه المزاعم، نرى من الضرورى -ونحن نشرح سورة الأنفال التى تحدثت بإسهاب عن الجهاد- أن نوضح أهداف الجهاد فى الإسلام ووسائله، وميادينه التى يتحرك فيها المجاهدون بشىء من الإيجاز[٢].

● **هدف الجهاد فى سبيل الله:**

إن هدف الجهاد فى سبيل الله هو: تحرير النوع الإنسانى كله من الشرك، ومن عبادة غير الله تعالى، وتحرير الناس عموما من الهوى والظلم، وإهدار كرامة الإنسان بالكفر والضلال.

---

(١) يقصد محمدا ﷺ.

(٢) توسعنا فى الحديث عن ذلك فى كتابنا: الجهاد الذى أحلنا عليه فى الصفحات السابقة كل من يريد التوسع فى المعرفة عن الجهاد.

● ولا يختص بالجهاد طائفة من المسلمين دون طائفة ولا أهل زمن دون أهل أزمان أخرى، ويمكن تلخيص هدف الجهاد فى أن تكون كلمة الله هى العليا، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» وروى أحمد بسنده عن معاذ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة، فقد وجبت له الجنة. ومن سأل الله القتل فى سبيل الله من نفسه صادقًا ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد، ومن جرح جرحا فى سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجىء يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك، ومن خرج به خراج فى سبيل الله كان عليه طابع الشهداء».

● إن هدف الجهاد فى الإسلام هو الإنسانية كلها فى كل زمان ومكان، لأن النوع الإنسانى كله من صالحه أن يستقيم على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهى عبادته وحده، والتحرر من كل معبود، ومن كل طاغوت ومن كل باطل، لأن الإنسان لا يحيا حياته الإنسانية الكريمة إلا إذا تحرر من كل هذا.

ولهذا كان الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة ليقاوم الانحراف عن الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها، فما دام الناس يعيشون على هذه الأرض، فإن طواغيت منهم يحبون أن يُعبدوا من دون الله، ويحبون أن ينتقصوا من حقوق الإنسان ما يدعمون به باطلهم ووزرهم وافتياتهم على الله وعلى الحق.

● وما دامت الحياة الإنسانية مستمرة والأرحام تدفع بأجنتها ليكون هذا الجنين إنسانا له حقوق وعليه واجبات، فإن الظالمين والطواغيت يحاولون دائما أن ينحرفوا بهذا الإنسان عن فطرته، ويهضموا حقوقه، والجهاد فى سبيل الله هو الذى يعيد إلى هؤلاء الطواغيت عقولهم، أو يخلص الإنسانية منهم.

والجهاد هو الذى يخلص الإنسان من كل ظلم يقع عليه ويكفل له حقوقه، ويتحدى بقوة السيف من يعتدى على هذه الحقوق أو ينتقص شيئا منها.

وهذا هو المعنى الدقيق العميق لكون الجهاد فى سبيل الله، فريضة ماضية -أى مستمرة- إلى يوم القيامة.

● **وسائل الجهاد فى سبيل الله:**

إذا كانت أهداف الجهاد فى سبيل الله كما ذكرنا آنفا من حماية العقيدة إلى حماية

المجتمع إلى التمكين لدين الله فى الأرض، وتأمين هذا التمكين، مع تأمين الدعوة إلى الله، فإن وسائل هذا الجهاد عموما هى كل وسيلة مشروعة تحقق هذه الأهداف.

● وهذه الوسائل نذكر منها ما يلى:

الاستعداد والإعداد:

١ – أى التهيؤ الروحى والعقلى والبدنى والمادى، وليس الاستعداد سهلا كما قد يتصور بعض الناس، وإنما هى طريق طويلة، وزاد ضخم يتزود به الساعى فى هذه الطريق، بل متاعب كثيرة تعترض السير فى هذه الطريق، وتهيؤ لمواجهة من يعترضون السير فى هذه الطريق. والآية الكريمة الجامعة التى أوجبت هذا الإعداد والاستعداد هى قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

بل إن هذه الآية الجامعة تضمنت الأهداف والوسائل معا، فالوسائل هى: كل ما استطعتم من قوة معنوية ومن رباط الخيل أى الآلة العسكرية.

والأهداف هى: إرهاب أعداء الله وأعدائكم، وأى أعداء آخرين لا تعلمونهم ولكن الله يعلمهم، وإرهاب هؤلاء يعنى إيقاف شرهم وعدوانهم، لأن إرهاب العدو جزء من هزيمته، فضلا عن كف شره وقتاله.

٢ – خوض المعارك ضد هؤلاء الأعداء فعليا، والتضحية فى هذه المعارك بالجهد والوقت والمال والنفس، والآية الجامعة لهذه التضحية هى قوله تعالى: ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)** ﴾ [التوبة: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦)** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقد كان للمؤمنين على مر العصور فى الماضى نماذج فى التضحية أى بذل المال والنفس وكل شىء فى سبيل الله، وسوف يظل تقديم هذه النماذج فى الحاضر والمستقبل، ما دام الإيمان بالله واليوم الآخر يعمر القلوب، وما دام المنهج ملتزماً.

٣ – وتأمين حدود البلاد بالمرابطة فى الثغور، لإيقاف عدوان الأعداء وإفشال مخططاتهم فى تحدى الدعوة إلى الله، وفى الوقوف أمام العمل على التمكين لدين الله فى الأرض.

● وهذا التأمين للبلاد الإسلامية معركة حقيقية وإن لم يكن فيها قتال مباشر فى كثير من الأحيان، وذلك أن القتال جزء من الحرب، وليس بالضرورة أن يكون القتال أهم ما فى الحرب من وسائل قهر العدو، وإنما أهم ما يقهر العدو هو الحرب المستمرة ضده لإجهاض محاولاته المعادية، وهذه الحرب ما ينبغى أن تشتمل على أى عمل يخالف شرع الله ومنهجه ونظامه، فالمسلم يلتزم بمنهج الله تعالى فى سلمه وفى حربه على السواء.

● **ميادين الجهاد فى سبيل الله:**

يخطئ من يتصور أن للجهاد فى سبيل الله ميدانًا واحداً هو أرض المعركة وحدها، وإنما هى ميادين للجهاد عديدة، يجب أن يخوضها المسلمون وأن يتواجدوا فى كل منها.

● ومن هذه الميادين ما نذكره فيما يلى:

- ميدان المعارك الفعلية مع عدو ظاهر: يقاتل المسلمين ويحشد لهم، وذلك بالحشد للعدو ومواجهته بما يهزمه ويقضى عليه.

- وميدان المعركة المحتملة مع عدو مرتقب: وهذا الميدان وإن خلا من القتال إلا أنه يتطلب جهدا فى الحرب والكيد، والإعداد والاستعداد.

- وميدان الدعوة والحركة والتنظيم: وهو ميدان يتطلب جهودا فائقة وصبرا واحتمالا، ومعرفة عميقة وثقافة جيدة وذكاء فائقا، ورغبة شديدة فى العمل وفى الاستمرار فيه.

- وميدان التربية: وهو أوسع الميادين وأوْلاها ببذل المزيد من الجهود العلمية والفنية والعملية، واستيعاب مفردات التربية الإسلامية من: تربية روحية، وخلقية، وعقلية، وبدنية، ودينية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وجهادية، وجمالية.

- وميدان العمل على التمكين لدين الله فى الأرض: وهو من أهم الميادين وأولاها ببذل الجهود الفكرية والثقافية والعملية والحركية والتنظيمية والتربوية، كما يتطلب تنسيقا جيدا بين مختلف القوى فى العالم الإسلامى كله.

- وميدان المحافظة على التمكين بعد الوصول إليه: وهذا الميدان يتطلب أعظم الجهود وأكبر التضحيات، فإن الوصول إلى التمكين وإن احتاج إلى جهود مضنية ومتعددة ومستمرة، فإن المحافظة على هذا التمكين تحتاج أكثر من هذا كله، وقد قال الأدباء: إن البقاء على القمة أصعب من الوصول إليها.

- والقمة للعمل من أجل الإسلام هى الوصول إلى التمكين، والاستمرار فى التمكين هو غاية ما يستهدفه العمل الإسلامى بكل مفرداته.

- وانهيار التمكين لا يستغرق وقتا ولا جهدا كذلك الوقت والجهد اللذين استغرقهما الوصول إلى التمكين.

- ومن مقولات العاملين فى الحركة الإسلامية: «إن الاستمرار فى أعمال الدعوة والحركة والتنظيم والتربية بعد الوصول إلى التمكين واجب يفرضه وجوب الاستمرار فى التمكين ووجوب المحافظة عليه» وهى مقولة جديرة بالتأمل والتدبر، وهى دليل على الوعى والاستفادة من حركة التاريخ ومن دراسة أسباب قيام الدول وأسباب انهيارها.

وبعد: فذلك هو الجهاد فى سبيل الله كما تحدثت عنه سورة الأنفال التى نحن بصدد إلقاء الضوء عليها واستنباط القيم التربوية العامة والخاصة بالدعوة والحركة منها، راجين من الله تعالى أن يتكامل الحديث عن الجهاد فى سبيل الله -تلك الفريضة الماضية إلى يوم القيامة- من خلال آيات هذه السورة الكريمة.

تفسير آيات السورة الكريمة

١ - الآيات من الأولى إلى الرابعة

في : بيان حكم الأنفال وفي مطالبة المؤمنين

بالتقوى وإصلاح ذات البين

وتحديد صفات المؤمنين وبيان جزائهم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ [الأنفال : ١ - ٤].

● تتحدث هذه الآيات الكريمة عن الأمور التالية :

- إجابة من سألوا رسول الله ﷺ عن الأنفال وكيف تقسم، وما حكمها.

- ومطالبة المؤمنين الذين سألوا عن الأنفال -بعد اختلافهم فيها- بتقوى الله تعالى وإصلاح ذات بينهم فيما نجم من خلاف.

- وتوضح لهم أن المستجيبين لحكم الله هم المؤمنون، وأن من صفات المؤمنين الخوف من الله والتوكل عليه وإقام الصلاة والإنفاق في سبيل الله تعالى.

- وأن جزاء المؤمنين عند الله هو الدرجات العالية والمغفرة والرزق الكريم.

● وقد اشتملت الآيات الكريمة على سؤال وجواب، وأكثر من أمر، وعلى أكثر من شرط وجزائه، وعلى أكثر من خبر، مما سوف نوضحه ونحن نعرض لشرح الآيات الكريمة فيما يلي :

- « يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول . . . ».

● السائلون هم الصحابة رضوان الله عليهم الذين اختلفوا في الأنفال -كما ذكرنا ذلك الاختلاف في الحديث الذي روى عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

● والمسئول هو الرسول ﷺ.

● وموضوع السؤال هو «الأنفال».

● وإجابة السؤال هى: أن الأنفال ليست لطائفة منكم ولا لأحد، وإنما هى لله وللرسول يصنع بها ما أمره الله به.

● والأنفال: جمع نفل وهو الزيارة، ومنها نفل الصلاة أى الزائد منها عن الفرض.

والأنفال: هى الغنائم لأنها زيادة أيضا فيما أحله الله تعالى لأمة محمد ﷺ، مما كان محرما على غيرها من الأمم.

فقد روى الطبرانى -فى الكبير- بسنده عن يزيد بن السائب رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضلت على الأنبياء بخمس:

بعثت إلى الناس كافة،

وادُخرتٍ شفاعتى لأمتى،

ونُصرت بالرعب شهرا أمامى، وشهرا خلفى،

وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا،

وأُحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى».

● ومحل الأنفال: فيه خلاف بين العلماء، نذكر منه ما يلى:

- قال بعضهم: محلها الخمس،

- وقال آخرون: محلها ما عاد من المشركين، أو أُخذ بغير حرب، وهو الفيىء،

- وقال غيرهم: محلها رأس الغنيمة -كما يراه إمام المسلمين-.

● وقد قسم الله تعالى الغنيمة على الأخماس: فجعل خمسها لرسول الله ﷺ، وأربعة أخماسها لسائر المسلمين، وهم الذين قاتلوا أو قُتلوا، فهم فيها سواء لاشتراكهم فى السبب الذى استحقوها به.

هذه حِكمة الله وحُكمه، وقضاء الله فى خلقه، وعلمه الذى أنزله عليهم.

«فاتقوا الله»: أى خفوه والتزموا أمره ونهيه فى المشاجرات والخلافات والتنازع الذى قد يحدث بينكم.

«وأصلحوا ذات بينكم»: أى أصلحوا نفس ما بينكم، وهى الصلة التى بينكم، وهى رابطة الإسلام، وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون، والمساواة، وترك الأثرة، والبعد عن التفرق وتجنب أسبابه، ليحل محلها الوئام والإيثار وكل ما يعطف المسلمين بعضهم على بعض.

– والمعنى العام لهذه الآية الكريمة هو: يسألك أصحابك يا محمد عن هذه الغنيمة التى نفلها الله لكم، فقل لهم: هى لله وللرسول، فاتقوا الله ولا تختلفوا، وأصلحوا ذات بينكم لئلا يرفع تحليلها عنكم بسبب ما يقع بينكم من خلاف.

«وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين»:

ذلك أمر بطاعة الله ورسوله فى كل أمر أو نهى أو قضاء أو حكم، فالله تعالى يطاع لذاته فى كل ما أمر به أو نهى عنه؛ إذ هو رب العالمين ومالك أمرهم، والرسول ﷺ يطاع فى أمر الدين، لأنه مبلغ عن ربه تعالى، ومبين لوحيه بالقول والفعل، وهذه الطاعة لرسول الله ﷺ تعبدية، لا تخضع لرأى أحد، وتتوقف عليها نجاة الطائع من عذاب الله فى الآخرة، لأن معصية الرسول ﷺ، توجب العقاب فى الآخرة.

– والرسول ﷺ يطاع فى كل ما أمر به، سواء أكان ما أمر به وحيا من عند الله يتلى، أم كان اجتهادا منه ﷺ فى أمر من أمور الدنيا المتعلقة بالمصالح العامة، ولا سيما فى الحرب والكيد للعدو، لأنه الإمام القائد.

- وهذان النوعان من الطاعة لرسول الله ﷺ، واجب شرعى له ﷺ، بل واجب لكل إمام للمسلمين أو قائد لهم؛ ما دام قد اختير بطريقة صحيحة تقرها شريعة الإسلام، وما دام ينفذ شرع الله تبارك وتعالى.

«إن كنتم مؤمنين»: أى امتثلوا هذه الأوامر كلها إن كنتم مؤمنين، وذلك أن الإيمان لا يكون إلا بطاعة الله ورسوله، وتلك الطاعة دليل عليه ومظهر من مظاهره.

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا...» والمعنى: أن المؤمنين الكاملى الإيمان الذين يتقون الله ويصلحون ذات بينهم، ويطيعون الله ورسوله، هؤلاء المؤمنون لهم صفات تدل عليهم هى –كما أوضحت الآية الكريمة– ما يلى:

الصفة الأولى:

– أنهم يخافون الله، ومن خاف الله تعالى اتقاه و اطاعه «إذا ذكر الله وجلت قلوبهم».

الوجل: استشعار الخوف.

وخوف الله تعالى إنما يكون من مهابته سبحانه وتعالى.

وقد روى عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء رضى الله عنها قالت: الوجل فى القلب كاحتراق السعفة يا شهر بن حوشب، أما تجد له قشعريرة؟.

قلتُ: بلى.

قالت: فادع الله، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك.

● وليس ضروريا أن يكون الخوف من الله هو الخوف من عذابه.

● ويعزز هذا المعنى للخوف وهو مهابة الله تعالى واقشعرار القلوب عند التفكير فيه، وعند ذكره سبحانه وتعالى، يعزز ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)** ﴾ [**الزمر**: ٢٢].

والصفة الثانية:

أنهم: «**إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا**»: أى زادتهم يقينا واطمئنانًا ومعرفة وإقبالا على الطاعات.

وزيادة الإيمان حقيقة مسلمة بنص هذه الآية الكريمة «زادتهم إيمانا» وثابتة بآيات أخرى كريمة منها قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)** ﴾ [**آل عمران**: ١٧٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)** ﴾ [**الأحزاب**: ٢٢].

والمعنى – معنى قوله تعالى «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا»: أن تلاوة القرآن الكريم تزيد المؤمن إيمانا، أو هكذا ينبغى أن يكون، ولهذا يكون، ولهذا يكون القرآن الكريم ربيعان للقلوب وحياة لها.

والصفة الثالثة:

من صفات المؤمنين هى: وأنهم «على ربهم يتوكلون»: والتوكل على الله هو أعلى مقامات التوحيد، كما قال أسلافنا من العلماء رحمهم الله تعالى.

● وليس معنى التوكل على الله ترك الأخذ بالأسباب، لأن الأخذ بالأسباب واجب شرعى، يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم ...... (٦٠) ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ومن غيرها من الآيات الكريمة مثل قوله تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ...... (١٠٢) ﴾ [النساء: ١٠٢].

● والفقه الصحيح للتوكل على الله إنما يكون بعد الأخذ بالأسباب، إيمانا ويقينا بأن الله وحده هو المدبر لكل أمر، فيجب تفويض الأمر إليه بعد الأخذ بالأسباب.

والصفة الرابعة هي:

أنهم: « الذين يقيمون الصلاة ».

وإقامة الصلاة عمل قلبى بدنى فى وقت واحد، فالخشوع فيها واستحضار عظمة الله تعالى بتدبر ما فى الصلاة من تلاوة وذكر وتسابيح، بالإضافة إلى أداء أركانها من ركوع وسجود وقيام، كل ذلك يجعل المصلى عضوا صالحا فاعلا فى المجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فضلا عن أن ينتهى هو عن الفحشاء والمنكر والبغى، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ (٤٥) ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والصفة الخامسة هي:

أنهم كرماء.. أهل بذل وعطاء يعرفون حق الله وحق الناس فيما منحهم الله من مال، « ومما رزقناهم ينفقون » أى ينفقون من أموالهم فى سبيل الله أى فى وجوه البر والخير، كالزكاة المفروضة، والصدقة المندوبة، وتجهيز الجيوش، وبناء المساجد والمدارس والمشافى ونحو ذلك من المرافق العامة التى تنفع المسلمين.

والإنفاق فى هذه الآية الكريمة أعم من الزكاة والصدقة.

● هؤلاء المؤمنون الموصوفون بهذه الصفات التى ذكرنا هم المؤمنون حقا، « وأولئك هم المؤمنون حقا » أى حق الإيمان، أو الإيمان الذى لا نقص فيه.

ولا شك أن استكمال هذه الصفات يجعل الإيمان أرقى من مجرد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، على وجه الإجمال، بل الإيمان بهذه الصفات يجعل المؤمنين كاملى الإيمان.

● وجزاء هؤلاء المؤمنين حقا هو أحسن الجزاء، كما قال تعالى: « لهم درجات عند ربهم »:

والدرجات منازل ورُتب رفيعة عند الله تعالى، استحقوها، فضلا من الله تعالى.

وحسب هذه الدرجات فضلا ورفعة أنها درجات «عند ربهم» أى فى الآخرة، دار القرار والخلود بلا موت.

● ومن جزائهم أن لهم عند الله مغفرة الذنوب ورزقا كريما «مغفرة ورزق كريم».

والمغفرة أن يغفر الله لهم السيئات وأن يشكر لهم الحسنات

والرزق الكريم فى الجنة؛ إذ يعطيه لهم من حيث لا يحتسب،

أو رزق كريم لا ينقص منه ما فرط منهم فى الدنيا من ذنوب.

ووصف الرزق بأنه كريم ؛بمعنى أنه لا قبح فيه ولا شكوى منه، هكذا تقول العرب فى كل شيء حسن: إنه كريم.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة قيما تربوية عظيمة الأثر جليلة القدر، قادرة على أن تجعل حياة المسلم أكثر سعادة فى الدنيا وأكثر رضا لله تعالى فى الآخرة.

ومن تلك القيم ما نذكره فيما يلى:

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾ ما يلى:

أ – أن السؤال للعلم والمعرفة مشروع بل مطلوب بقول الله تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧)** ﴾ [الأنبياء: ٧].

وعلى المسئول أن يجيب دون إمهال، وذلك واجب شرعى كذلك، كما دلت على ذلك السنة النبوية، فقد رؤى ابن عدى –فى الكامل– بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كتم علما عن أهله أُلجم يوم القيامة لجاما من نار».

● والسؤال والإجابة بهذا الأدب الإسلامى حوار جيد معلم، وطلب للعلم، وتحصيل لعلم نافع، وكل ذلك من المطالب الإسلامية التى تستفاد من قوله تعالى: «يسألونك عن

الأنفال قل الأنفال لله والرسول . . . . . » .

ب – ويتعلمون أدب الاختلاف فى الإسلام، وهو أنه ليس لأحد أن يتشبث برأيه، أو أن تسوء أخلاقه فى التعامل مع من اختلف معه، وإنما يتجه لأهل العلم والذكر؛ يستوضحهم ويطلب منهم العلم والمعرفة، ويرضى بما يجيبونه به .

جـ – ويتعلمون من الآية الكريمة أن تقوى الله وإصلاح ذات البين وإزالة أسباب الخلاف، وطاعة الله ورسوله، كل ذلك من شروط الإيمان، ولذلك جاءت الآية الكريمة على صيغة شرط وجزاء والمعنى : إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله، وما لم يتحقق الشرط لا يتحقق الجزاء، أى لا إيمان إلا بتقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله .

● ويفهم من الآية أن من استمر على الخلاف مع أخيه المسلم فليس بمؤمن كامل الإيمان، لأنه لم يطع الله ورسوله فى وجوب حب أخيه المسلم والتسامح معه والعفو عن زلته : . « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » .

٢ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا . . . .** ﴾ ما يلى :

أ – أن المؤمن له صفات بحيث لا يُسمَّى مؤمنا إلا إذا توفرت فيه وهى :

– خوف الله عموما؛ أى خوف معصيته فى أى أمْرٍ أمَرَ به أو نهى عنه، ومن خاف معصية الله أطاعه، ومن أطاع الله فقد فاز فوزا عظيما .

– وخوف الله لمجرد ذكره، لاستشعاره عظمة الله تعالى واستحضار أنه مالك الملك وأن كل شيء بيده، بل بيده مقاليد السموات والأرض، وكل ذلك يقتضى خوف الله وخوف عقابه عند الخطأ أو المعصية .

ب – وأن تلاوة القرآن الكريم وتدبره يجب أن يزيد المؤمن إيمانا؛ أى يقوى صلته بالله تعالى، ويزيد من الإقبال عليه بالطاعة، وكل تلاوة للقرآن الكريم لا تزيد المؤمن إيمانا؛ فإن عليه أن يراجع نفسه ليقف بها عند الحد المطلوب من تلاوة القرآن الكريم حق تلاوته .

جـ – وأن صفات المؤمن التى تكمل إيمانه كثيرة ومن أبرزها ما جاء فى هذه الآية

الكريمة، وهى :

– التوكل على الله بالمعنى الصحيح للتوكل – الذى أوضحناه آنفا –ومن توكل على الله هُدى وكُفى وقى وتنحى عنه الشيطان

– وإقامة الصلاة بالمعنى الدقيق الصحيح لإقامتها –كما أوضحناه آنفا،

– والإنفاق من رزق الله فى الوجوه التى شرعها الله تبارك وتعالى –وقد أوضحناها آنفا،

وتلك الصفات هى التى تجعل المؤمن مؤمنا حقا، والمؤمن الحق الإيمان هو الملتزم بهذه الصفات المؤتمر بكل ما أمر الله به المنتهى عن كل ما نهى الله عنه.

٣ – ويتعلمون من قوله تعالى : ﴿ **لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ ما يلى :

أ – أن الدرجات العالية والرزق الكريم عند الله، إنما يستحقه المؤمنون حقا الذين توفرت فيهم تلك الصفات التى ذكرنا وأن العاقل من وضع نفسه فى تلك المكانة الرفيعة، وما ينال تلك المكانة إلا الطائعون لله ورسوله.

ب – وأن تلك المكانة عند الله تعالى، تعنى مغفرة الذنوب والتجاوز عن السيئات فى الدنيا، وبما يكون لهم عنده يوم القيامة من رزق كريم دائم شريف، وحسبه شرفا أنه من عند الله تبارك وتعالى.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة كثيرا من القيم التى تزودهم بخير الزاد فى مجالات الدعوة والحركة والتنظيم والتربية، مما سوف نذكر منه ما يفتح الله به فيما يلى :

١ – يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾ ما يلى :

أ – أن طريق الدعوة إلى الله، والحركة من أجل التمكين لدين الله مليئة بالمنعطفات والمعوقات والأعداء، وأن هؤلاء الأعداء منهم الذين يعلنون عداوتهم للمسلمين، ومنهم مَنْ يضمرون هذا العداء ويكيدون للإسلام والمسلمين.

● وطرق التغلب على هذه المعوقات، وأساليب مواجهة هؤلاء الأعداء، وإبطال كيدهم وردّ شرهم، كل ذلك لا يكون إلا بعد تساؤل وحوار مع أهل العلم والذكر ممن يملكون الخبرة في مجالى الدعوة والحركة، وما يتبعها من تربية وتنظيم.

● وعلى أهل العلم والذكر والخبرة ألا يبخلوا عن سائلهم ومن يتحاورون معهم، بما يعرفون، وذلك أن المقرر فى ديننا أن المستشار مؤتمن.

فقد روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن».

وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن، فإذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه».

● ومن المقرر فى أدبيات العمل من أجل الإسلام أن ترك الاستشارة وطلب النصيحة من الأخطاء الفاحشة فى مجالات الدعوة والحركة والتربية والتنظيم؛ إذ هى من المعوقات التى يضعها العاملون من أجل الإسلام فى طريق عملهم!!!

فقد روى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى بأسانيدهم عن تميم الدارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم».

ب - ويتعلم الدعاة والحركيون من الآية الكريمة أن من أدب السؤال والحوار، أن يتلقى السائل إجابة أهل العلم والذكر، تلقيا حسنا تسوده الثقة والاطمئنان إلى ما أجاب به أهل الاختصاص.

فما داموا أهل علم واختصاص فما ينبغى مماراتهم فيما يجيبون به من معلومة أو خبرة أو رأى ونصيحة، وإلا ضاعت فرصة الاستفادة من أهل العلم والمعرفة.

جـ - وعلى الدعاة والحركيين أن يدركوا عن وعى وإيمان أن صفات المؤمنين التى أوضحتها الآية وهى:

تقوى الله تعالى بكل معنى من معانى التقوى،

وإصلاح ذات البين وإزالة أسباب الخلاف،

وطاعة الله ورسوله،

- كل تلك الصفات شرط فى اكتمال الإيمان، وشرط فى أن ينصرهم الله فى معارك العمل من أجل الإسلام.

- إن تقوى الله تعالى معامل أمان فى نجاح كل عمل يقوم به الإنسان، وهى الطريق إلى أن يحظى المتقى بمعية الله تعالى ينصره ويؤيده ويمده بالأسباب، قال الله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**[1] (١٩٤) ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال جل شأنه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** (١٢٨) ﴾ [النحل: ١٢٨].

- وإصلاح ذات البين، لدى العاملين من أجل الإسلام شرط أساسى للقيام بأى عمل لله، سواء أكان من أعمال الدعوة أم من أعمال الحركة أم من أعمال التنظيم والتربية، أم من أعمال الجهاد فى سبيل الله تعالى.

- إن إصلاح ذات البين بين العاملين من أجل الإسلام يقتضى أن يكونوا صفا واحدا كالبنيان المرصوص؛ لأن وحدة الصف شرط فى نجاح المؤمنين فى كافة أعمالهم التى يواجهون بها أعداءهم، وما أكثر أعداء الإسلام وأعداء الحق وأعداء المؤمنين بالله تعالى!!!

- ولقد امتدح الله تعالى الذين أصلحوا ذات بينهم ثم جاهدوا فى سبيله متضامين متلاحمين متراحمين كأنهم بنيان مرصوص، لا يستطيع عدوهم أن يجد فى صفوفهم ثغرة ينفذ منها إليهم، فقال جل شأنه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** (٤) ﴾ [الصف: ٤].

- وهل العمل فى سبيل الله فى هذا الزمان -الذى تحالف فيه أعداء الإسلام من شرق وغرب ضد المسلمين- إلا قتالا فى سبيل الله؟

- وطاعة الله ورسوله إحدى الصفات الرئيسية فى المؤمن، وهى مطلوبة فى كل حال وفى كل حين:

فالمؤمنون مطالبون بطاعة الله ورسوله فى إخوانهم وشركائهم فى العمل، حيث لا يهملون استشارة عالمهم، ولا استثارة من فتر منهم، ولا التعاون مع من أخلص العمل منهم.

- كما أن طاعة الله ورسوله مطلوبة فيمن توجه إليهم الدعوة إلى الله، وفيمن يتحرك فيهم الدعاة، وفيمن يطبق عليهم منهج تربوى معين، ومقتضى هذه الطاعة ألا يكلفوهم ما لا

---

(١) تكرر قوله تعالى: «واعلموا أن الله مع المتقين» فى سورة التوبة الآيتين: ٣٦، ١٢٣.

يطيقون، ولا ينتقصون من قدر أحد منهم ولا من عمله، وإنما يعينونهم على التسديد والمقاربة.

● بل على العاملين من أجل الإسلام أن يطيعوا الله ورسوله فى أعداء الدعوة والمتربصين بالدعاة؛ لأن المؤمن – مهما اشتط عدوه، وتجاوز حدود ما أحل الله فى التخاصم والتعامل –ليس له أن يتجاوز ما أحل الله وما رسم من حدود؛ لأن المبدأ العام الذى أقره القرآن الكريم هو: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩)** ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

و: ﴿ **وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)** ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

و: ﴿ **وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ (١)** ﴾ [الطلاق: ١]. وهو مبدأ يجب أن يلتزم به كل مؤمن.

● ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة وهو يتعامل مع الأسرى لديه – والأسرى هم ألد أعداء الأمس[(١)].

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا** ﴾ ما يلى:

أ – أنه ليس أحد من الناس أحوج إلى أن تكتمل فيه صفات الإيمان من العاملين فى مجالى الدعوة والحركة؛ وذلك أن الله قد وعد بنصره المؤمنين، فكيف النصر فى تلك المعارك الكثيرة المستمرة دون أن يتحقق شرطه وهو الإيمان؟.

● وصفات إكمال الإيمان فى هذه الآية الكريمة –كما أشرنا آنفا – هى:

– الخوف من الله عند تلاوة آياته وعند ذكره عموما، خوفا يؤدى إلى زيادة الإيمان،

– والتوكل على الله حق التوكل،

– وإقامة الصلاة،

– والانفاق من رزق الله فى سبيل الله.

---

(١) سوف نوضح ذلك بالتفصيل عند حديثنا عن الأسرى فى هذه السورة الكريمة فى الآيتين: ٦٧، ٧٠ بإذن الله تعالى.

ب – ولتوضيح ذلك نقول والله المستعان :

– يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى :« الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »، أن خوف الله فرض على كل مؤمن؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)** ﴾ [**آل عمران** : ١٧٥] .

والخوف من الله يصحح الإيمان، ويغرى بمزيد من العمل الصالح، ويجعل الداعى إلى الله على حذر دائم من الغفلة، فقد روى الترمذى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلتُ يا رسول الله : قول الله : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ (٦٠)** ﴾ [**المؤمنون** : ٦٠] أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق؟ قال : « لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه » .

● وهذا تفسير نبوى لمعنى الوجل يفيد منه الدعاة فى تعاملهم مع الله تعالى، ويعكس النصر على أيديهم ما داموا يستجمعون صفات المؤمنين

– ويتعلمون أن يحرصوا على أن يزداد إيمانهم باستمرار، لكثرة ما تتلى عليهم آيات الله وهى القرآن الكريم، سواء أكانت التلاوة ملفوظة أم متدبرة ملحوظة .

● إن ذلك ينبغى أن يكون شأن الدعاة إلى الله وشأن كل العاملين من أجل أن يمكن دين الله فى الأرض؛ فهم بحاجة إلى أن يزدادوا إيمانا فى كل موقف ينتصرون فيه على أعدائهم أو ينهزمون فيه، لأن الله تعالى يربى المؤمنين ويمنحهم الدروس المعلمة بالنصر حينا وبالهزيمة حينا آخر، ولن يزدادوا إيمانا حتى يستوعبوا دروس النصر –كما حدث فى بدر– ودروس الهزيمة –كما حدث فى أحد– وويل لمن لم يزد إيمانه وهو يتبلى بالنصر أو الهزيمة .

– ويتعلمون أن التوكل على الله فرض على كل مؤمن، بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)** ﴾ [**التوبة** : ٥١] . وبدليل آيات كريمة أخرى عديدة، فقد روى الترمذى بسنده عن عمر رضى الله عنه مرفوعا : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا » .

● والتوكل على الله تعالى يقتضى الرضا بقضاء الله وقدره خيره وشره . وكثيرا ما يتعرض الدعاة إلى الله إلى الشر والأذى تضييقا عليهم أو بلاء وامتحانا– قد يصل إلى حد إزهاق الأرواح والتعذيب حتى الموت– ولا مخرج لهم من هذا إلا بالرضى بقضاء الله وقدره، أى التوكل عليه، والمضى فى طريق الدعوة، ولن يصيب أحد إلا ما كتب له .

● الدعاة إلى الله أحوج الناس إلى التوكل على الله حق توكله حتى يرزقهم كما يرزق الطير: «تغدو خماصا وتروح بطانا» فهم يغدون على عملهم فى سبيل الله خلوا من الأسباب والقوى المادية التى يقاومون بها أعداءهم، ويروحون بإذن الله وقد امتلأوا نصرا وتوفيقا وتأييدا، وما ذلك إلا بالتوكل على الله حق توكله.

● وقد سبق أن أشرنا إلى أن التوكل على الله لا يعنى ترك الأخذ بالأسباب؛ لأن الله تعالى أمر بالأخذ بالأسباب، كما يفهم ذلك الأمر من قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** .... (٦٠) ﴾ [الأنفال: ٦٠].

– ويتعلم الدعاة والحركيون أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق فى سبيل الله من خير ما يعين الدعاة والحركيين على المضى فى طريق التمكين لدين الله؛ لأن التمكين لن يكون إلا على أيدى المؤمنين، ولا إيمان بغير صلاة وزكاة وإنفاق من مال الله على المستحقين من عباد الله.

● والعاملون من أجل التمكين لدين الله فى الأرض يجب أن يهرعوا إلى الصلاة يستعينون بها على تحقيق أهدافهم؛ فهى تنقى القلوب من الشوائب وتنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذلك كانت ثقيلة إلا على المؤمنين المحبين للطاعة الخاشعين لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** (٤٥) ﴾ [البقرة: ٤٥].

● والصلاة تريح من عناء العمل ومن وعثاء الطريق، فقد روى أحمد وأبو داود بسنديهما عن رجل من أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها».

● والإنفاق فى سبيل الله –زكاة أو صدقة– هو الأصل فى التعبير العملى عن الإيمان؛ لأن الله تعالى أمر بإيتاء الزكاة وحبب فى الصدقة.

● ومن المسلم به فى مجالات العمل من أجل الإسلام أن تكون التضحية بالوقت والجهد والمال من صميم هذا العمل ومن صلبه ومن أسباب نجاحه، فكيف تتصور التضحية من غير إنفاق المال فى سبيل الله؟.

● إن هذا الإنفاق مما رزق الله على من أمر الله بالإنفاق فيه، إنما هو ترشيد للحياة الإنسانية وضبط لتداول المال بين الأغنياء والفقراء واقتلاع لجذور الحاجة والعَوز من المجتمع، ودعم للعمل من أجل التمكين لدين الله فى عباد الله، وسد لكثير من الثغرات فى مجالات

عديدة من مجالات العمل من أجل الإسلام.

● وحاجة العمل من أجل الإسلام إلى المال، وإلى الإنفاق لا تفتر ولا تتوقف؛ لأن الدعوة والحركة والتنظيم والتربية والجهاد فى سبيل الله تعالى، كل ذلك لا يستغنى عن المال بحال.

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ أموراً كثيرة من أهمها ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

أ – أن الله تعالى لا يتخلى عن أوليائه بحال، فإن امتحنهم فى الدنيا بهزيمة أمام عدو، أو ببلاء ومحنة فى المال أو الولد أو غيرهما، كالخوف والنقص من الثمرات، فإن ذلك لا يعنى أنه سبحانه تخلى عنهم، وإنما ابتلاهم بذلك ليزدادوا إيمانا، بعد أن يحسنوا قولا وعملا: «حسبنا الله ونعم التوكل»، عندئذ ينقلبون بنعمة من الله وفضل ولا يمسسهم سوء، كما يفهم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)** ﴾ [**آل عمران**: ١٧٣، ١٧٤].

ب – وأن هؤلاء المؤمنين حقا لهم عند الله درجات فى الجنة، بعد مغفرة ذنوبهم فى الدنيا، ولهم فى الجنة رزق لا ينقطع، وهذا أقصى ما يرجو مؤمن من ربه، ولكنه لا ينال ذلك إلا بأن يكون من المؤمنين حقا.

● والدعاة إلى الله والعاملون من أجل تمكين دين الله فى الأرض أولى الناس بأن يكونوا من المؤمنين حقا؛ لما يبذلون من جهد، ولما يتعرضون له من بلاء، فنرجو الله تعالى أن يجعلهم من أصحاب الدرجات عند الله والمغفرة والرزق الكريم.

جـ – ويتعلمون من هذا الجزء من الآية الكريمة أن الذين يعدهم الله النصر وينزله عليهم هم المؤمنون حقا – كما حدث فى معركة بدر – وكما يمكن أن يحدث فى كل معركة يخوضها المؤمنون بإرادتهم ولا يجدون مناصا من خوضها، فتلك سنة الله فيمن يدعون إليه وقد اكتملت فيهم صفات المؤمنين حقا، فقد كان ذلك من سنة الله فى الذين خلوا من قبل وهى سنته فى الذين يأتون من بعد، لن تجد لسنة الله تبديلا.

● وقد يتساءل بعض المؤمنين قائلين: لماذا يتأخر النصر، ولماذا يبتلى المؤمنون -فى هذا العصر- كل هذا البلاء، حتى ليوشك العالم كله أن يجاهر بعدائه للإسلام والمسلمين؟!

وطرح هذا التساؤل دليل غفلة عن السبب فى تأخر النصر، أو السبب فى بطش أعداء الإسلام بالمسلمين؛ إذ هى قضية يدرك أبعادها غير الغافلين، فإن الله تعالى قال: ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)** ﴾ [**الروم**: ٤٧]. فلو كان المؤمنون مؤمنين حقا لنصرهم الله على أعدائهم، لأن سنة الله لا تتغير ووعده لا يتخلف.

● حين تستكمل صفات المؤمنين حقا فى الدعاة إلى الله والعاملين من أجل الإسلام، فليس ببعيد على الله -وفق سنته- أن ينصر المؤمنين بأضعف الأسباب، بل ربما بغير أسباب.

● ومعنى ذلك أن الذين يرجعون تأخر النصر إلى خطأ فى السياسات أو قصور فى المخططات أو خلل فى ترتيب الأوليات والمرحليات، أو ضعف فى القيادات يغفلون عن سنة الله تعالى.

والأصل أن يتهموا أنفسهم، وأن يستكملوا صفات المؤمنين حقا.

٢ – الآيات الكريمة من الخامسة إلى الثامنة:

معركة بدر هدفها إحقاق الحق وإزهاق الباطل

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝ ﴾ [الأنفال: ٥ – ٨].

● تتحدث هذه الآيات الكريمة عن مشابهة بين أمرين:

– أمر اختلاف المسلمين فى الأنفال لمن تكون، ثم جعل هذه الأنفال متروكة لله وللرسول يقضى فيها الرسول بما أوحى إليه ربه فيها – كما أوضحنا ذلك آنفا–،

– وأمر إخراج الله تعالى لرسوله ﷺ من بيته بالحق ليلقى إحدى طائفتى المشركين وهى الطائفة المقاتلة، وكراهية كثير من المسلمين لهذا اللقاء لعدم استعدادهم له.

– وحكمة ذلك الإخراج للرسول ﷺ من بيته ولقاء طائفة المقاتلين من الأعداء هى: إحقاق الحق وإبطال الباطل، ولو كره المجرمون القائمون على الشرك بالله وتحدى الحق وأهله.

● وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على جملة أخبار تضمنت عبراً وعظات جليلة القدر فى مسار الحركة الإسلامية وقدرتها على مواجهة أعدائها، ومزجها –فى عملها من أجل الإسلام– بين الدعوة والحركة والتنظيم والجهاد فى سبيل الله؛ لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

● وفى قصة معركة بدر التى أشارت إليها هذه الآيات الكريمة، روى محمد بن إسحق بسنده –فى السيرة النبوية– قال: «لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام– ومعه عير قريش –ندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

فانتدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً.

وكان أبو سفيان قد استنفر –حين دنا من الحجاز– من يتجسس الأخبار، ويسأل من لقى من الركبان؛ تخوفًا على أموال الناس، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عندئذ فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة،

وخرج رسول الله ﷺ فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له: ذفران، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم.

فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر –رضى الله عنه– فقال فأحسن، ثم قام عمر –رضى الله عنه– فقال فأحسن،

ثم قام المقداد بن عمرو –رضى الله عنه– فقال: يا رسول الله ﷺ، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنوا إسرائيل لموسى –عليه السلام– اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فالوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد –يعنى مدينة فى الحبشة –لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه.

فقال له رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا علىّ أيها الناس، وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من غير بلادهم.

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟.

قال: أجل،

فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله به، فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، وإنا لصبر عند الحرب، صدق على اللقاء، ولعل الله يريك مناما

تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم»(١).

وبعد: فلننظر فى تفسير الآيات الكريمة المتحدثة عن معركة بدر، بإلقاء الضوء الملائم على ما تضمنته من معانٍ وقيم، والله المستعان.

- «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون».

● «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق...» أى إن اختلاف المسلمين فى الغنائم ومن يحوزها وكيف تقسم؟ ووصولهم فى هذا الاختلاف إلى تلك الحال الذى تساءلوا فيه عن الأنفال، كحالهم التى اختلفوا فيها عندما أمرك الله تعالى بالخروج لقتال المشركين، وهذا الإخراج لك وهذا القتال للمشركين حق ثابت يجب القيام به، ومع ذلك كان فريق من المؤمنين كارهين للقتال بل مؤكدين كراهيتهم له.

والمعنى أنهم مهما كرهوا هذا القتال الذى أمرك الله به -لأنهم لم يستعدوا له وإنما خرجوا لملاقاة العير- فإن النصر بيد الله تعالى، ومقاليد الأمور إليه وحده، فليس لهم أن يكرهوا ما أمرك الله به من عمل.

● «يجادلونك فى الحق بعد ما تَبَيَّن...».

الذين جادلوا رسول الله ﷺ فى قتال المشركين هم بعض المسلمين لا كلهم، بدليل قول الله تعالى: «وإن فريقا من المؤمنين لكارهون».

● و«الحق» الذى جادلوا فيه: هو أمر الله بالقتال أى النفير.

● و«الجدال» هو قولهم: ما كان خروجنا للقتال وإنما كان لأخذ عير قريش، وقولهم: هَلاَّ قلتَ لنا سنقاتل المشركين لنستعد ونتأهب للقتال؟ فقد كان جدالهم فى القتال لأسباب رأوها، من أهمها ما نذكر بعضه فيما يلى:

- أنهم لم يستعدوا للقتال بحشد عدد أكبر من المقاتلين،

- وأنهم لم يحملوا معهم السلاح الملائم لخوض القتال،

---

(١) يُلتمس تفصيل أحداث معركة بدر في كل كتب السيرة النبوية وفي معظم كتب التاريخ الإسلامي، وفي كثير من كتب التاريخ العامة.

– وأنهم لم يحضروا معهم أهم آلة الحرب آنئذ وهى الخيول؛ إذ كانوا رَجلين ليس معهم من الفرسان إلا فارسان فقط.

- ولكن هذا الجدال لم يكن له محل ولا مُبَرِّر؛ لأن الله تعالى قد بيَّن لهم الحق؛ إذ أمر بالقتال ووعد رسوله ﷺ إحدى الطائفتين، وقد فاتت العير –إذ هرب بها أبو سفيان– فلم يبق إلا النفير أى الحرب وقتال المشركين والانتصار عليهم.

- «وهم كارهون» لهذا الخروج، إذ خُيِّل إليهم بهذا الخروج أنهم يساقون فيه إلى الموت لا إلى الحرب، وهم يعلمون ذلك بسبب عدم استعدادهم، فكأنهم ينظرون إلى هذا المصير.

- وكل الأعذار التى قدمها هذا الفريق من المؤمنين الكارهين للقتال هى اعتذارات جدلية، ما كان لها أن تكون؛ لأن الحق قد تبيّن وهو ما أمر الله به من القتال ومن الوعد بإحدى الطائفتين وهى طائفة المقاتلين من المشركين بقيادة أبى جهل.

- «وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم...»، ووعد الله محقق بكل تأكيد، وهو مُنْصَبّ هنا على الحرب وقتال المشركين والانتصار عليهم.

- «وتودون أن غير ذات الشركة تكون لكم...» أى تحبون أن تكون لكم العير بما تحمل من متاع، لا النفير بما يترتب عليه من حرب وكرب، وسمى العير: «غير ذات الشركة» أى الحدة والقوة، تعريضا بهم لإيثارهم العير والمال، وكراهيتهم الحرب والقتال.

- وتؤكد هذه الآيات الكريمة أن خوض المؤمنين لمعركة بدر إنما كان لكى يحق الله بهذه المعركة الحق الذى أراده فى كلماته التى أنزلها على رسوله ﷺ؛ عندما وعده إحدى الطائفتين، كما يريد الله تبارك وتعالى بهذه المعركة أن يقطع دابر الكافرين الذين عاندوا الحق، واضطهدوا أهله وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم.

- وهكذا كان انتصار المسلمين فى بدر إيذانا بانتصارهم الأكيد على الشرك وأهله، وتطهير الجزيرة العربية من المشركين؛ على الرغم من أن هؤلاء المشركين قد نالوا من المسلمين فى أحد وحنين، مما كان درسا وتعليما وتفقيها للمسلمين ليأخذوا بأسباب النصر، ويعرفوا بدقة شروطه وآدابه، ويدركوا ما تتركه الهزيمة فى المهزومين من آثار.

- يقول الزمخشرى فى التعليق على الآية الكريمة: «وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم...» الآية، يقول: «يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسَفسَافَ الأمور، وألاّ تلقوا ما يرزؤكم فى أبدانكم وأحوالكم، والله عز وجل يريد معالى الأمور، وما يؤدى إلى

عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز فى الدارين، وشتان بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسَر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلتكم، وأعزكم وأذلهم، وحصل لكم ما لا تُعَارض – أى تُشابه أو تساوى – أدناه العِيرَ وما فيها»(١).

● «ليحق الحق ويبطل الباطل...» أى وعد الله بما وعد، وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة وخوض القتال ليحق الحقَّ أى يُقِرّه ويثبته، والحق فى هذه الآية هو الإسلام.

«ويبطل الباطل» أى يزيله ويمحقه، والباطل هنا هو الشرك والكفر، يفعل ذلك سبحانه وتعالى مهما كره المجرمون له، والمجرمون يكرهون قطعا إحقاق الحق وإبطال الباطل؛ لأنهم يعادون الحق ويعيشون على الباطل.

● وإحقاق الحق وإبطال الباطل لا يكون بالاستيلاء على العير، وإنما يكون بقتل أئمة الكفر والطاغوت، من صناديد المعاندين الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة قيما تربوية تهديهم وتنير لهم الطريق فى كل معركة يخوضونها إحقاقا للحق وإبطالا للباطل، والأصل فى كل مسلم أن يعمل على إحقاق الحق وإبطال الباطل، ومن هذه القيم التربوية المعلمة ما نشير إلى بعضه فيما يلي :

١ – يتعلمون من قوله تعالى : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون** ﴾ ما يلى :

أ – أن ما يأمر به الله تعالى وما ينهى عنه لابد أن تكون له حكمة بالغة وهدف نبيل، وأن التدبر فى هذا الموقف يجعل المؤمن حامدا لله شاكرا له إن أمره أو نهاه؛ لأن ذلك – على وجه اليقين – لصالح الإنسان إن امتثل، وقد أمر الله رسوله بالخروج إلى لقاء المشركين ووعده إحدى الطائفتين.

ب – وأن عدم امتثال أمر الله ونهيه معصية لله ورسوله، وأن كراهية الامتثال تؤدى إلى المعصية؛ إذ يجب على المسلم –عندما تكره نفسه تنفيذ ما أمر الله به أو نهى عنه–

---

(١) الزمخشري: تفسيره الكشاف: ٢/٥ ط الحلبي – القاهرة: ١٣٦٧هـ – ١٩٤٨م.

أن يصرف نفسه عن تلك الكراهية، وأن يُقبل على الامتثال برضى وسعادة وحمدٍ وشكر لله تعالى.

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **يجادلونك في الحق بعد ما تبيّن كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ ما يلى:

أ – أنَّ من المسلمين من يجادلون فى الحق على الرغم من وضوحه، وأنّ منهم من يستجيبون للأمر وهم كارهون، بل تبلغ كراهية الاستجابة إلى حد تصورهم أنهم يساقون إلى الموت!!!

وفى هذا درس عظيم للمسلمين فى كل زمان ومكان، يثنيهم عن أن يقوموا بالواجب وهم كارهون، وإنما عليهم أن يؤدوه سعداء به راضين عن أدائهم له، ما دام واجبا.

ب – وأن رفض لقاء العدو بحجة نقص العَدَد أو العُدَد، ليس مقبولا ما دام هذا اللقاء للعدو من الواجبات التى أوجبها الله تبارك وتعالى.

جـ – وأن الجدال فى الحق بعد ما يتبين يسهم فى إحداث القلق والاضطراب وفساد المعايير، ويؤدى إلى الخلل فى الحكم على المواقف والناس والأشياء، فالذين جادلوا رسول الله ﷺ فى الحق بعد ما تبين، خيل إليهم – وهم يشاركون فى معركة بدر – أنهم يساقون إلى موت هم يعلمون أنه كائن لا محالة، يساقون إليه وهم ينظرون.

٣ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم...** ﴾ ما يلي:

أ – أن وعد الله تعالى أكيد ومحقق لا محالة، وأن الله تعالى لا يعد إلا بما فيه صالح المسلمين فى معاشهم ومعادهم وحاضرهم ومستقبلهم؛ لأنه –تعالى– لا يعد إلا بخير.

ب – وأن ما يعد الله تبارك وتعالى به أو يأمر، لا ينبغى التحول عنه، ولا يُتصور أن غيره أنفع منه وأجدى؛ فقد كانت طائفة من المسلمين تتصور أن الحصول على العير التى مع أبى سفيان أجدى عليهم، ثم تبين لهم خطأ هذا التصور.

جـ – وأن ما يأمر الله تعالى به أو يعد، قد يبدو مكلفا من الجهد ومن المال، بل من النفس، ومع ذلك فإن القيام به واجب؛ لأن فيه عزة للإسلام والمسلمين، ونصرا الإسلم وقمعا للشرك وأهله، وفى ذلك إحقاق للحق وإبطال للباطل.

د – وأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل بما ينزل من آيات، ومن أمثلة هذه الآيات في معركة بدر ما يلي:

– أنه سبحانه أنزل الملائكة تقاتل فى صفوف المسلمين؛ حتى إن بعض المسلمين أحسَّ بهم،

– أو بما جعل الله المؤمنين قلة فى نظر المشركين ليغتروا بهم فيقاتلوهم فيكون نصر المؤمنين الذى وعد الله به،

– أو بما جعل الله المشركين قلة فى نفوس المؤمنين، لئلا يهابوهم أو يهابوا لقاءهم،

– أو بما شاء الله تبارك وتعالى من أسباب يعلمها هو وحده سبحانه وتعالى.

هـ – وأن النفس البشرة مفطورة على أن تؤثر العافية وتحصل على الغنيمة الباردة والفائدة غير المكلفة: «وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم». ولكن هذه الرغبة يجب أن تتوقف عندما تكون المصلحة فى المواجهة مع العدو أو يكون هناك أمرٌ من الله تعالى.

٤ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون**﴾ ما يلى:

أ – أن إحقاق الحق إرادةُ الله تعالى وأنه لذلك أنزل القرآن الكريم، وشرع الدعوة إليه والأمر بالمعروف والجهاد فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا.

ب – وأن إبطال الباطل وإزهاقه إرادةُ الله تعالى كذلك، ولذلك أنزل القرآن الكريم وشَرَع الدعوة إليه وإلى الحق وشرع النهى عن المنكر وأوجب الجهاد فى سبيله لتكون كلمة الذين كفروا السفلى.

- وفى إحقاق الحق وإبطال الباطل ما يثلج صدور المؤمنين، ويزيد من غيظ الكافرين، وكراهيتهم للحق وأهله، وهذا مطلب يسعى إليه كل مؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومؤمن بالدين الخاتم والرسول الخاتم ﷺ.

جـ – وأن إحقاق الحق وإبطال الباطل يحتاجان إلى قوة مادية وإعداد، وإلى مواجهة للعدو وقطع دابر الكافرين، وذلك يحتاج دائما إلى استعانة عليه بالله تعالى وبصالح الأعمال.

وقد أوضحت الآيات الأولى من هذه السورة الكريمة عُدَّة النصر وأدواته، وصفات المؤمنين الذين يتحقق على أيديهم النصر الذى وعد الله به المؤمنين.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية -دعوة وحركة وتربية وتنظيما- من هذه الآيات الكريمة قيما تربوية جليلة الأثر، تغنى وتقنى فى مجالات العمل من أجل الإسلام.

وسوف نوضح بعض هذه القيم فى النقاط التالية، طالبين من الله العون والتوفيق.

١ – يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون** ﴾ ما يلى:

أ – أن الجهاد فى سبيل الله وما يتطلبه من إعداد وتعبئة وحرب وقتال وتضحيات بالمال والجهد والنفس، أمر أوجبه الله تعالى على نبيه ﷺ؛ إذ أمره بالخروج من بيته لممارسة هذا الجهاد، وكل مسلم مطالب بهذا الجهاد؛ لأنه شرع لإحقاق الحق.

ب – وأن بعض الناس قد يكرهون المشاركة فى الجهاد؛ إيثاراً للراحة وتجنباً للتضحية بالنفس، وتلك طبيعة بعض الناس، وأن هؤلاء الناس يجادلون ليبرروا لأنفسهم ما يريدون على الرغم من ظهور الحق، وربما كان من طبيعة بعض الناس أن يكون لهم فى كل شيء جدل واختيار، وليس ذلك بعيب إلا إن أصبح ذلك شأنهم، وكان الحق واضحا أمامهم، عندئذ يعاقبون، وعندئذ نقول: إن الآية الكريمة حذرت من هذه الصفة، أما أن يستفسر الناس أو يتساءلوا أو يجادلوا؛ لأن الأمر غير واضح فذلك لا بأس به، وهو داخل فى التشاور ولا حرج فيه بإذن الله تعالى.

جـ – ولنا أن نتصور الدعاة والحركيين والعاملين من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، وقد أصبحوا يجادلون فى كل شيء، ويختارون حتى فيما لا وجه فيه للاختيار – لأنه أمر مثلا – عندئذ كيف يسير العمل من أجل الإسلام؟ وكيف تتحقق أهداف هذا العمل؟ وكيف يسير موكب الدعوة والحركة والتربية والتنظيم؟

● إن ذلك سوف يفضى إلى تضييع الوقت والجهد والمال، وسوف يعوق العمل ويباعد بين العاملين والأهداف التى يسعون إلى تحقيقها، وكل ذلك بسبب أن طائفة من المسلمين يجادلون فى الحق بعد ما تبيَّن.

د – وأن من الوارد أن يكره بعض الدعاة والحركيين عملا أو أعمالا كلفوا أن يقوموا بأدائها، ولكنَّ أدب الجندية يقتضيهم أن يؤدوه وهم له كارهون تجاوبا مع ما لهم من فقه للدعوة وفقه للطاعة.

غير أن أداء العمل –مع الكراهية لأدائه– يؤدى إلى تجاهل كثير من الفوائد التى نشير إلى بعضها فيما يلى :

– أن أداء العمل مع الكراهية يفقد العامل الحماس والانشراح النفسي، فهل يحقق النجاح من كان هذا شعوره وهو يؤدى عملا من الأعمال؟!

– وأن الذى يؤدى عملا وهو لا يحبه قلما يجيد ويحسن، فضلا عن أن يبدع ويبتكر، مع أن الإحسان مطلب شرعى كتبه الله على كل شيء، وهو طريق إلى رضا الله تبارك وتعالى.

– وأنهم عندما يؤدون العمل وهم له كارهون، قد افترضوا فى قيادتهم عدم الكفاءة، فقد يقولون فى أنفسهم إن كفاءة القيادة تقتضى أن تكلفنا بعمل نحبه ونرغب فى أدائه.

● وعندما يفقد العامل ثقته فى كفاءة قيادته، فإن النجاح فى أداء عمل كلفت به القيادة يكون أبعد ما يكون!!!

● وفى مثل هذه الحال أيكون فى الإمكان إتمام عمل على وجهه وعلى الصورة المرجوة من التجويد والإحسان؟!

● وهل تستطيع الدعوة أو الحركة – مع فقد الثقة فى القيادة – أن تشق طريقها أو أن تبلغ غايتها، أو تؤدى على وجه الدقة لكل مرحلة من مراحل العمل – وهى كثيرة – ما يجب أن يؤدى؟

● وهل تستطيع الحركة – والحال هذه – أن تستوعب أصناف الناس، وأن تسعى بكل منهم فى الخط الملائم لقدراته وميوله واتجاهاته؟

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ ما يلى:

أ – أن هؤلاء المجادلين فى الحق بعد ما تبيَّن، تختلط عليهم الأمور، وتغيم أمامهم الرؤى، ويريهم الشيطان أو الغرور ما يَرَى، وما يهديهم أبدا إلى سبيل الرشاد، فهم يخسرون بذلك كثيرا مما يتصورون أنه سلامة وأمن وعافية.

ب – وأن هؤلاء الذين يؤثرون الدعة، ويتخيلون أنهم بالجهاد يساقون إلى الموت وهم ينظرون، هؤلاء أحوج الناس إلى أن يربَّوا تربية إسلامية صحيحة تعلمهم أن إيثار العافية بالتخلى عن الواجب إثم كبير، وضياع لكثير من المغانم فى الدنيا والآخرة، على توهم أن ذلك ينجى من المتاعب والمشقات، ألا ما أخطر أن يود المسلمون غير ذات الشوكة!!!

● آه لو أثر الدعاة والحركيون أن يكونوا فى جانب من يودون غير ذات الشوكة!!!

إذن لضعفوا وهانوا على الله والناس، وخسرت بهم الدعوة والحركة جل معاركهما أو كلها؛ لأن المقرر أن النصر مع الصبر، وأن الله تعالى يقول: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

● وفى غالب أحيان الإنسان يكون ما يكرهه خيرا له، وما يحبه شرا له!! أرأيت كيف يحب الإنسان الشهوات واللذائذ وكيف يكره البذل والعطاء والتضحية؟

جـ – وأن جهاد العدو ذى القوة والشوكة مكتوب على كل قادر عليه من المسلمين، ولا يُعفَى من القيام به إلا أصحاب الأعذار، فكيف يتخلى عنه الدعاة والحركيون مؤثرين السلامة والعافية وغير ذات الشوكة؟!

● قال الأسلاف من العلماء: «والجهاد مكتوب على كل أحَدٍ غزا أو قعد...»[1] فكيف يتخلى عنه مَن يدعون الناس إليه؟

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين** ﴾

---

(١) للتوسع: انظر لنا: الجهاد أو الركن الذي لا تحيا الدعوة إلا به. من سلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا – دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة: ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

ما يلى :

أ – أن الله تعالى بيده مقاليد كل شيء، وما النصر إلا من عند الله، وكل الأسباب، وكل أنواع الإعداد المادى والمعنوى ليست هى العوامل الأكيدة للنصر، أو إحقاق الحق وقطع دابر الكافرين، وإنما هى عوامل مساعدة.

● وليس لأحد –خاض معركة فانتصر فيها– أن ينسب النصر إلى نفسه أو إلى مهارته وحسن إعداده؛ لأن الحق كما قرره الله تعالى هو : ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** (١٢٦) ﴾ [آل عمران : ١٢٦].

ب – وأن كلمات الله هى حججه وبراهينه التى جعلها الله تعالى للمسلمين على الكافرين سلطانا مبينا.

● ويمكن أن يدخل فى معنى هذه الكلمات أمور منها :

– الأمْداد التى يمد الله تعالى بها أولياءه من المؤمنين، سواء أكانت أمدادا مادية كالسلاح والعتاد أم كانت معنوية كإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء،

– والملائكة التى ينزلها الله تعالى أحيانا لتقاتل فى صفوف المؤمنين، كما حدث فى معركة بدر،

– وإلقاء الهيبة والمخافة من المؤمنين فى قلوب أعدائهم،

– وتهوين شأن الأعداء فى نفوس المؤمنين، وغير ذلك مما يختاره الله تعالى ويجعله سببا فى نصر الإيمان على الكفر.

● وكلمات الله تعالى بهذه المعانى كلها هى التى يجعل الله تعالى فيها إحقاق الحق، وبها يكون قطع دابر الكافرين، حيث لا تقوم لهم قائمة، كما تنطق بذلك الآية الكريمة : «ليحق الحق بكلماته، ويقطع دابر الكافرين».

● وإن قطع دابر الكافرين هدف للمؤمنين فى كل زمان ومكان؛ إذ هم رجس نجس يجب أن تطهر منهم الأرض، وتنقى المجتمعات من شرورهم البشرية؛ ليعيش الناس حياة آمنة مطمئنة؛ إذ الكفر جحود للوحدانية وإنكار للشريعة وتكذيب للنبوة، بالإضافة إلى ما فيه من جحود النعمة وترك ما يجب من شكر.

ولأن الكافر يجحد الحق عموما ويستره ويخفيه ويأتى كل فعل مذموم كان قطع دابره راحة للإنسانية كلها، وكان هدفا دائما للمؤمنين فى كل حين وفى كل مكان.

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قول الله تعالى: ﴿**ليحق الحق، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون**﴾ ما يلى:

أ – أن الله تعالى – على وجه الحقيقة – هو الذى يحق الحق ويبطل الباطل بما يهيئ من أسباب، وبما يشرع للناس من الدين وبما يأمر به، وبما ينهى عنه، وما المجاهدون أو العاملون فى الحركة الإسلامية أو الدعاة إلى الله إلا أسباب سخرها الله تعالى ليحق الحق ويبطل الباطل.

- ولا تستقيم حياة البشر إلا بأن يُحَق الحق ويبطَل الباطل، فلو لم يحق الحق ضاع الإنسان وخسر دنياه وآخرته، ولو لم يبطل الباطل، لفقد الإنسان الأمن والطمأنينة ووقع الظلم والاضطراب وعدا القوى على الضعيف، وعانى الإنسان من الباطل أسوأ ما يعانيه فى حياته.

ب – وأن إحقاق الحق عند التأمل والتدبر هو إظهار الإسلام وهيمنته على كل دين أو منهج أو نظام؛ لأنه الدين الخاتم الذى أتمه الله تعالى وأكمله وختم به الأديان والمناهج.

- وإظهار الإسلام وإعلاء شأنه وهيمنته على الدين كله لا يتم إلا على كره من المجرمين؛ لأن فى سيادته وهيمنته قضاءً على الباطل والجريمة، ولابد أن يكره المجرمون ذلك؛ لأن فيه قضاء عليهم وعلى إجرامهم.

- ولذلك كان إحقاق الحق هدفا وغاية؛ لما فيه من الخير العميم للبشرية كلها فى حاضر الزمان وآتيه.

ب – وإبطال الباطل عند التأمل والتدقيق هو إنهاء للكفر وإعدام له ولأهله، وإراحة للإنسانية منه، وكل قول أو عمل يؤدى إلى إبطال الباطل تقرب إلى الله، بل عبادة له سبحانه يجزى عليها أحسن الجزاء.

- وإبطال الباطل يقتضى صراعا مع أهله وجهادا مستمراً لا هواده فيه، وصبرا على كثير من المعاناة فى التعامل مع المجرمين.

• ولو وضع الدعاة إلى الله والحركيون والعاملون من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، لو وضعوا نصب أعينهم هذه الحقائق لهانت عليهم التضحيات، ولأيقنوا أن الإسهام فى إحقاق الحق وإبطال الباطل من صميم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

٣ - الآيات من التاسعة إلى الرابعة عشرة

أنواع المدد الإلهى للمؤمنين فى معركة بدر

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) ﴾ [الأنفال : ٩ - ١٤].

● تتحدث الآيات الكريمة عن المدد الذى أمد الله تعالى به المسلمين فى معركة بدر، وهذا المدد فى هذه الآيات أنواع هى :

- ألف من الملائكة يردف بعضهم بعضا أى يتبعه، وهذا من الإمداد المعنوى والمادى معا، لحدوث البشرى للمسلمين وبث الاطمئنان فيهم، وإقناعهم بأن النصر من عند الله وحده.

- والنعاس الذى ألقاه الله عليهم ليذهب ما فى نفوسهم من خوف العدد المتفوق كثرة وعدة، فكان هذا النعاس أمنا لهم، وراحة بدنية بعد المجهود والمعاناة.

- وإنزال المطر عليهم ليشربوا، وليتطهروا، وتطمئن قلوبهم وتثبت أقدامهم على الأرض فتسهل حركتهم.

- وإلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا، ليزيد ذلك خوفهم من المسلمين واضطرابهم.

● وتتحدث الآية عن أمر موجه إلى الرسول ﷺ وصحبه هو : أن يضربوا فى المشركين كل هامة أى رأس، وأن يضربوا كل يد تحمل السلاح، «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان».

● وتخبر الآيات الكريمة كل سامع أن معاداة الرسول ﷺ جزاؤها العقاب الشديد فى الدنيا

والآخرة: فى الدنيا بالانهزام أمام المؤمنين، وفى الآخرة بعذاب النار.

● وقد اشتملت الآيات الكريمة على عدد من الأخبار، وعلى أكثر من أمر، وأكثر من أسلوب شرط، مما سوف نفصله فيما يلى:

- «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم...» أى لما علم المسلمون أنهم ملاقوا ذات الشوكة، ورأوا كثرة عدد العدو ووفرة عدته، ورأوا قلة عددهم وعتادهم استغاثوا بالله تعالى قائلين -كما ذكر بعض العلماء-: يا غياث المستغيثين أغثنا وانصرنا على عدونا، فاستجاب لهم الله تبارك وتعالى.

- وفى ذلك روى الإمام أحمد وغيره من أصحاب السنن بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قال: لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلا، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل نبى الله ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يديه، وجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر -رضى الله عنه- فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبى الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين» فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون».

- وروى البخارى بسنده عن ابن عباس -رضى الله عنهما نفس المعنى الذى رواه أحمد ولكن بلفظ وجيز.

- «فاستجاب لكم...» أى أغاثكم.

قال المفسرون: لما استغاث الرسول ﷺ وأصحابه بربهم، وقد أيقنوا أن النصر من عنده وحده، وأن جميع الأسباب لا تجدى عليهم شيئا، إذا كانت وحدها دون عون الله تبارك تاعالى لأنه سبحانه مسبب الأسباب.

ولما استغاثوا به سبحانه كان من رحمته أن استجاب لهم، «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم...»، ومجىء الاستجابة عقب الاستغاثة معطوفة عليها بالفاء له دلالة على أمرين:

أحدهما: ترتب الاستجابة على الاستغاثة لأن الفاء العاطفة -كما يقول علماء اللغة-

تقتضى الترتيب والتعقيب.

والآخر: أن الله تبارك وتعالى نظر إليهم فرحمهم إذ استجاب لهم، وتوالت عليهم إمداداته سبحانه وتعالى.

- «فأمدهم بألف من الملائكة مردفين» أى يردف بعضهم بعضا سواء أكانوا قد قاتلوا بالفعل -كما روى ذلك بعض الصحابة- أم كانوا من جهة البشرى والطمأنة والتثبيت، كما تدل الآية على ذلك، وهو الأرجح لدى المحققين من المفسرين.

ومما يعزز الاتجاه إلى هذا المعنى أن الملائكة وإن نزلوا وطمأنوا، إلا أن الآية الكريمة وجهت المسلمين إلى أن النصر من عند الله تعالى، كما دلت على ذلك آيات قرآنية كثيرة.

- «وإذ يغشيكم النعاس أمنة منه...»، وذلك مدد أمدهم الله تعالى به إذ استجاب لاستغاثتهم، وفى تغشيته لهم النعاس راحة جسدية ونفسية، لأنه لا ينام إلا من أمن، فذلك مدد من الله لهم، إذ هم فى جو المعركة جرحا وقتلا ومع ذلك غشاهم النعاس، أى أذهب عنهم الخوف، على الرغم من قلتهم وكثرة أعدائهم.

- «وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام»، وذلك من أنواع المدد كما ذكرنا آنفا، وقد حقق إنزال الماء عليهم عددا من الفوائد أشارت إليها الآية الكريمة وهى:

- أنهم شربوا وارتووا وكانوا عطاشا لا ماء عندهم، وقد حفروا حوضا اجتمع فيه الماء الذى أنزله الله عليهم.
- وأنهم تطهروا وتزودوا من الماء، فاغتسلوا وزال عن بعضهم الجنابة.
- وربط بهذا الماء أو بتلك النعمة على قلوبهم، فصبروا على لأواء المعركة، وثبتوا حتى نصرهم الله على أعدائهم.
- وأن أقدامهم قد ثبتت فى المعركة، إذ كانت الأرض مليئة فلبدها الماء وثبتها.

- «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا...» وذلك من أنواع المدد الإلهى للمؤمنين، إذ أوحى الله تعالى إلى الملائكة أنى مع المؤمنين، فطمئنوهم وثبتوهم، فحدث هذا حتى تم النصر بفضل الله تعالى.

- «سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب...»، وذلك من أهم أنواع المدد الإلهى، وهو

تخريف المشركين من المؤمنين، وهى حرب نفسية عصبية بلغتنا اليوم، وذلك يُخذِّل العدو ويصيبه بالذعر، وفى ذلك نصر للطرف الآخر.

● تلك أنواع المدد التى تحدثت عنها الآيات الكريمة.

– فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان»، وذلك صريح من الله تعالى للمؤمنين لأن يضربوا من المشركين كل رأس وكل يد تحمل السلاح، أى يقتلوهم، أو يعجزوهم عن الحركة والعمل بضرب اليدين والرجلين –الأطراف– فهؤلاء المشركون جزاؤهم القتل.

● وإنما استحق هؤلاء القتل أو التعجيز، إن لم يمكن القتل، لأنهم شاقوا الله ورسوله، وعادوا المؤمنين وعاندوهم، وجانبوهم وطردوهم وعذبوهم حتى القتل، فكان جزاؤهم من جنس عملهم.

وهذا هو عذابهم فى الدنيا أو عقابهم، وأما فى الآخرة فلهم العقاب الشديد فى جهنم: «ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب».

– «ذلكم فذوقوه، وأن للكافرين عذاب النار»، ذلكم: إشارة إلى القتال، وما فيه من مشاق»، «فذوقوه» خطاب للمؤمنين، أى ذوقوا مشقة القتال فى سبيل الله، لتنالوا عظيم الأجر على تحمل تلك المشقة.

«وأن للكافرين عذاب النار»، أى أن المؤمنين يجب أن يوقنوا بأن النصر والتأييد حاصل بأمر الله تعالى، وبأن للجاحدين بآياته عقابا آخر يوم القيامة هو عذاب النار.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة كثيرا من القيم التى تفيدهم فى ممارسة الحياة والتعامل مع أحداثها تعاملا يحقق لهم الأمن والطمأنينة ويقربهم من الله تعالى، ويحقق لهم رضاه سبحانه وتعالى، مما سوف نوضحه فيما يلى والله المستعان:

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم**﴾ ما يلى:

أ – أن الاستغاثة بالله تعالى هى الأصل عند طلب العون، وهى مطلوبة عندما يحزب الإنسان أمر مهم فى معاشه أو معاده، وأن هذه الاستغاثة لا تكون إلا بالله وحده.

- فقد استغاث المسلمون بربهم «إذ تستغيثون ربكم» وكان فيهم رسول الله ﷺ فلم يستغيثوا به، لأن الله وحده هو المغيث الذى يكشف الضر عن عباده.
- وفى ذلك تحرير للعقيدة من أوهام كثيرة يقع فيها بعض الناس؛ إذ يستغيثون ببعض عباد الله من الأموات أو الأحياء، وهم فى هذه الاستغاثة جد مخطئين؛ إذ الاستغاثة بالله وحده.

ب – وأن الله تعالى يستجيب لمن استغاث به، إذا كان مخلصا فى استغاثته، وكان على الحق، ويستغيث من أجل إحقاق الحق، كما يفهم ذلك من قوله تعالى «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم»، فكان المستغيثون هم رسول الله ﷺ وصحابته، وكانت الاستجابة عقب الاستغاثة مباشرة.

جـ – وقد جاءت استجابة الاستغاثة بغوث لم يكن أحد يتوقعه؛ فقد كانت ملائكة تقاتل فى صفوف المسلمين، وما عهدت البشرية فى تاريخها شيئا من ذلك!!

- وكان ذلك بشرى للمؤمنين، وطمأنة لقلوبهم، مما أكد لهم أن الله تعالى معهم يؤيدهم فى معركة الصراع بين الحق والباطل، وكان فى ذلك التأييد وسرعة الاستجابة ما جعل المؤمنين يوقنون بأن النصر من عند الله وحده.

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**إذ يغشيكم النعاس أمنة منه، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام**﴾ ما يلى:

أ – أن لله تعالى أنواعا من المدد يؤيد بها عباده الصالحين، وأن منها أن يمنحهم النعاس فى المعركة!!

- وذلك مدد عجيب وغريب ومعلم للمسلمين، ومؤكد لزيادة اليقين بأن قدرة الله تعالى وحكمته فى كل شىء تدعم المؤمنين وتنصرهم فى معاركهم مع الباطل.
- ولننظر فى مدد النعاس يغشى المقاتلين فى المعركة، علام يدل وإلام يشير؟!
- إنه نعمة من الله تجىء فى وقت يكون الإنسان فيه أحوج ما يكون إلى الراحة والطمأنينة

وهو جو الحرب والقتال.

● وقد ترتب على منح الله تعالى لهم نعمة النعاس أن حماهم من أعدائهم حتى لا يقتلوهم وهم نيام.

● وكأنهم بهذا النعاس الذى يغشاهم فى أرض المعركة ليسوا فى معركة وإنما فى حياتهم التى ألفوها، وذلك مزيد من الإحساس بالأمن.

ب - وأن مما أمد الله به المسلمين فى هذه المعركة أن أنزل عليهم من السماء ماء له فوائد جمة عموما وفى معركة بدر على وجه الخصوص، ففى العموم: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)** ﴾ [**الأنبياء**: ٣٠]، وفى خصوص معركة بدر كان للماء الفوائد التالية:

● التطهير من الجنابة بالنسبة لمن احتلم منهم، والتطهر عموما من كل ما يتقذره الإنسان.

● وأنه أذهب عنهم رجز الشيطان سواء كان الجنابة أو الوسوسة التى وسوس بها إليهم حين سبقهم العدو إلى الماء، فخاف المؤمنون العطش، فلما نزل الماء شربوا واغتسلوا وبنوا حوضا وتزودا وثبتت الأرض تحت أقدامهم فقد كانت رملية تغوص فيها الأقدام.

● وأن نزول الماء من السماء جعل المسلمين يشعرون بأن الله تعالى معهم بكلؤهم ويؤيديهم، ويجرى من أجلهم الأحداث على النحو الذى يحقق مصالحهم، وفى هذا ربط على قلوبهم وتثبيت لها على الإيمان واليقين بأن الله معهم ينصرهم على أعدائهم أعداء الحق.

٣ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ مايلى:

أ - أن نوعا آخر من المدد أو النعم التى أنعم الله بها على المؤمنين أن أوحى إلى الملائكة أن ثبتوا المؤمنين فإنى معهم، فانصروهم على أعدائهم.

● والتثبيت أخذ صورا منها:

- أن الملائكة أخبروا الرسول ﷺ بنصر الله، والرسول ﷺ أخبر المؤمنين فثبتهم ذلك.

- أو أن الملائكة ألقوا فى رُوُع المؤمنين أنهم منصورون فثبتوا.

– أو أن الملائكة تشبهوا برجال من المؤمنين من معارفهم وكانوا يمدونهم بالنصر والظفر والفتح.

ب – وأن مدداً ونعمة من الله على المؤمنين أن ألقى فى قلوب أعدائهم الرعب، فى مقابل الربط على قلوب المؤمنين، وكان ذلك من أعظم نعم الله على المؤمنين.

جـ – وأن إبادة الذين كفروا أو تعجيزهم عن العمل والحركة فى القتال، مطلب قرآنى جاء على صيغة الأمر، فاضربوا فوق الأعناق –أى الرؤوس– واضربوا منهم كل يد أو أصابع قادرة على حمل السلاح، ذلك شأن المؤمنين مع الكافرين الذين يقاتلون المسلمين دائما.

٤ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب**﴾ مايلى:

أ – أن الكافرين إنما استحقوا هذه المعاملة المستأصلة لهم أو المعجزة لهم عن القتال، لأنهم عادوا الله ورسوله وكانوا فى جانب غير جانب المؤمنين وغير جانب الحق.

ب – وأن هذا الجزاء للكافرين من قتل ونكال وخزى وعذاب فى الآخرة، هم الذين ذهبوا بأنفسهم إليه حينما كفروا وعاندوا الحق وأهله.

● وفى هذا زجر لكل كافر عن أن يستمر على كفره، وتخويف له من المصير السيئ الذى ينتظره فى الدنيا والآخرة.

٥ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار**﴾ مايلى:

أ – أن القتال فى سبيل الله له تضحياته ومتاعبه، فذوقوا ذلك أيها المؤمنون، واعلموا أنكم الرابحون وأن الكافرين هم الخاسرون، وأن قتلاكم أيها المؤمنون فى الجنة وأن الكافرين عموما فى عذاب النار؛ على اعتبار أن المخاطب هم المؤمنون.

ب – وأن الهزيمة التى يذوقها الكفار فى الدنيا، وإن كانت قتلا أو تعجيزا وأسرا، فإنها يسيرة إذا قورنت بما ينتظرهم يوم القيامة، أى: لكم القتل والأسر فذوقوه أيها الكافرون، وأن لكم يوم القيامة عذاب النار، على اعتبار أن ذلكم إشارة وخطاب للذين كفروا.

جـ – وأن فى مصير الكافرين عظة وعبرة لكل أحد من العقلاء، وفى معاناة المسلمين

لمتاعب القتال والجهاد درس لهم يعينهم على الصبر والتحمل فى سبيل الله، وفيه ما فيه من النصر على الكفار، والفوز فى الدنيا والآخرة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

فى هذه الآيات الكريمة من المواقف التربوية -المعلمة للدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة والتنظيم والتربية والتمكين لدين الله فى الأرض- ما هو كثير وضرورى، بحيث لا يستغنى عنه أى عامل من أجل الإسلام فى أى مرحلة من مراحل العمل، مما سوف نوضحه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم....** ﴾ مايلى:

أ - أنه لا نجاح ولا فلاح لعمل الدعاة والحركيين وسائر العاملين فى معاركهم التى يخوضون إلا أن يستغيثوا بربهم، وذلك أن الاستغاثة بالله تعالى ودعاءه واجب شرعى، فقد روى الترمذى بسنده عن النعمان بن بشير -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)** ﴾ [غافر: ٦٠]، قال العلماء: وفى الأمر بالدعاء أمر بمطلق العبادة؛ لأن الدعاء بمعنى العبادة فى كثير من آيات القرآن الكريم.

ب - والدعاة إلى الله أعرف الناس بوجوب دعاء الله والاستغاثة به سبحانه وتعالى، فقد روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه من لم يسأل الله يغضب عليه».

● والدعاة إلى الله أعرف الناس بأن دعاء الله والاستغاثة به سبحانه، مقرونة بالإجابة بدليل قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)** ﴾ [**غافر**: ٦٠]، وبدليل ما رواه أبو يعلى فى مسنده بسنده عن أنس بن

مالك -رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل قال: «أربع خصال: واحدة منهن لى، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادى:

فأما التى لى، فتعبدنى لا تشرك بى شيئا،

وأما التى لك عليّ، فما عملت من خير جزيتك به،

وأما التى بينى وبينك، فمنك الدعاء وعليّ الإجابة،

وأما التى بينك وبين عبادى، فأرض لهم ما ترضى لنفسك».

جـ- وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية لا يمر بهم حين من الزمان إلا وهم فى صراع مع صنف من أعداء الحق وأهله أعداء الله تبارك وتعالى، أو هم فى صراع وجدل مع أعداء العقل والشرع من ضُلاّل المسلمين.

- وعلى قدر ما يجب أن يستعد الدعاة والحركيون لهذه المعارك صغيرها وكبيرها، بالأخذ بما يتاح لهم من الأسباب ماديها ومعنويها، وعامها ومرحليها، فإنهم مع ذلك مطالبون بدعاء الله تعالى والاستغاثة به فى كل أمر من أمورهم، لأن الإيمان الحق يتضمن الاستغاثة بالله دون سواه، كما يتضمن التأكيد بوجوب دعائه والاستغاثة به.

د- وأن عون الله ومدده لدعاته والعاملين من أجل إعزاز دينه أقرب ما يكون إليهم؛ بشرط أن يتوفر فيهم الإيمان والعمل الصالح والاستغاثة به سبحانه ودعاؤه.

- إنه سبحانه وتعالى لن يتخلى عن أوليائه أو يسلمهم لعدوهم أبدا -إلا أن يكون ابتلاء واختباراً- ولكنه سبحانه وتعالى هو الذى يختار زمان الانتصار ومكانه، ويهيئ له الأسباب. ذلك مما يؤمن به الدعاة إلى الله، ومما هو يقين عندهم، إذ النصر من عند الله العزيز الحكيم.

هـ- وأنه سبحانه وتعالى يمد أولياءه بما شاء من المدد، حتى إنه ينزل عليهم الملائكة تحارب فى صفوفهم -كما حدث فى معركة بدر.

- ويفعل الله تبارك وتعالى ذلك كله وأكثر منه، بشرى للمؤمنين وطمأنة لقلوبهم، ولزيادة يقينهم بأن النصر من عند الله تبارك وتعالى.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: **﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم، ويثبت به الأقدام﴾** ما يلى:

أ – أن المدد الإلهى والعون الربانى لا يتخلى عن المؤمنين ولا يتخلف عن ركبهم بحال، حتى لو كان هذا المدد نعاسا فى أثناء القتال يزيل توتر الأعصاب فى المعركة ويباعد بينهم وبين الخوف من كثرة عدد العدو وتفوق عدته وآلته العسكرية، إنه غفوة فى المعركة تعقب أمنا فى النفوس وراحة فى الأبدان، والله سبحانه هو المتكفل بحفظ أوليائه من أعدائهم أثناء هذه الغفوة! فما أعجب أن يكون المدد نعاسا وإغفاء!!

ب – وأن المدد الإلهى قد يكون مطراً يأتى من حيث لا يتوقع الناس المطر، وما أعظم حقق المطر من فوائد للمسلمين فى معركة بدر!

- لقد تطهروا به واغتسلوا من الجنابة التى أصابت بعضهم بالاحتلام، فذهب بذلك عنهم رجز الشيطان، ثم حفروا الأحواض ليجتمع فيها الماء لأخذه عند الحاجة.
- ولقد كان نزول المطر على غير توقع؛ تقوية لقلوبهم فى الثقة بالله، وأنه معهم يرعاهم ويحفظهم ويربط على قلوبهم.
- ولقد تلبدت بالماء تلك الأرض الرملية الناعمة التى كانوا فيها فثبتت عليها أقدامهم، وهم أحوج ما يكونون إلى ثبات الإقدام.

جـ – ويتعلمون من تلك الآية أن الله تبارك وتعالى يذهب عن أوليائه رجز الشيطان، وأن هذا الرجز ليس الشيطان، وأن هذا الرجز ليس قذراً ماديا فحسب، ولكنه قد يكون قذرا نفسيا يدخل القلب فيغرى بالفتور عن العمل، أو يوهم بطول الطريق ووعورتها وكثرة مشقاتها وبعد غاتتها، مما قد يصيب باليأس والقعود.

- كل ذلك من رجز الشيطان الذى يريد الله أن يذهبه عن المؤمنين؛ لينطلقوا فى طريقهم جادين صابرين محتسبين عند الله تعالى كل ما يقومون به من عمل وجهاد.

د – وأن ثبات القدم على الأرض إنما يسبقه ثبات القلب على الحق، وهذا الثبات من نعم الله ومن مدده الذى يمد به أولياءه ودعاته، وليس له ثمن عند الله أفضل من الإيمان والعمل الصالح، وأن هذا الثبات أفضل ما يجنى المؤمن من ثمرة، ولذلك كان من دعاء النبى ﷺ فيما رواه الترمذى بسنده عن أنس –رضى الله عنه– قال:

قال رسول الله ﷺ : « يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك » .

● وإذا ثبت القلب ثبت القدم فى أى معركة، فلا يكون تزحزح - فضلا عن تراجع أو فرار - وإنما هو الثبات والثقة .

● وثبات القلب والقدم فى الحق وعلى الحق مطلب أساسى وضرورى لكل من يتصدى لشىء من العمل الإسلامى دعوة أو حركة أو تنظيما أو تربية، ومن لا يثبت قد يتولى ويفر من المعركة، والفرر والتولى إحدى الكبائر؛ إلا أن يكون الفار متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة - كما سنوضح ذلك فيما بعد .

● وكل أنواع الثبات من نعم الله ومدده، أو هى الأسباب التى يجعلها الله فى طريق النصر والفتح المبين .

٣ - ويتعلم الدعاة من قوله تعالى : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ ما يلى :

أ - أن من المدد الإلهى أن يوحى الله تعالى إلى الملائكة أنه سبحانه وتعالى مع المؤمنين، فعلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا فى معاركهم مع الباطل، ومع أعداء الله تعالى، وتثبيت الملائكة للمؤمنين، قد يكون إلهاما لهم به، وقد يكون عملا ماديا؛ إذ يقاتلون فى صفوف المؤمنين - كما حدث فى معركة ابدر - وقد يكون بسبب آخر أو بأسباب أخرى .

ب - ويدرك الدعاة إلى الله أكثر من غيرهم أن من المدد الإلهى أن يلقى الله الرعب فى قلوب الأعداء، فإذا هم قوة كبيرة العدة كثيرة العدد، ولكنها قوة مرتعبة، من تلك القلة المؤمنة .

● كان ذلك فى معركة بدر، ولايزال ذلك إلى اليوم، وسوف يظل إلى أن تقوم الساعة، ولن تجد رعبا أكبر مما ألقاه الله فى قلوب أعداء الحركة الإسلامية اليوم من علمانيين وملحدين وأنصار لتهميش الدين فى حياة الناس، ودعاة للزراعية بالغيبيات - كما يقولون - فقد أصابهم من الرعب من الحركة الإسلامية ما جعلهم يكيلون لها الاتهامات جزافا، ويتصورون أنها وراء كل جريمة، ويطلقون ضدها الحملات الإعلامية والقمعية ويتحالفون ضدها مع ألد أعدائهم !!

● أليسوا بذلك قد ألقى الله فى قلوبهم الرعب؟!

● أليس أعداء الحركة الإسلامية اليوم يحسبون كل صيحة عليهم؟

● أليسوا يمارسون من الظلم ما لا يجوز لهم، رعبا من أحداث لم تقع، وقد لا تقع أبدا، لأن من كان مسلما لا يقتل نفسا حرم الله قتلها، ولا يسرق ولا يعتدى؟!

● إنه الرعب الذى ألقاه الله فى قلوب أعداء الحركة الإسلامية فجعلهم لا يرون الحق ولا يبحثون عن الحقيقة.

جـ – وأن الله تعالى عندما ألقى الرعب فى قلوب المشركين فى معركة بدر فخافوا وارتاعوا، أمر المؤمنين بأن يستأصلوا هؤلاء الخائفين؛ لأنهم خطر على الحياة الإنسانية وعلى أنفسهم أولا، فإن لم يستأصلوهم أعجزوهم عن مواصلة شركهم وما يؤدى إليه الشرك من باطل وضلال، فأمر الله المؤمنين بأن يضربوا فى المشركين فوق الأعناق وبأن يضربوا منهم كل يد قادرة على ممارسة الشر والفساد.

٤ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب، ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ ما يلى:

أ – أن هؤلاء المشركين إنما استحقوا هذا العقاب الدنيوى؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فهو أعمى البصيرة والبصر، فاقد نعمة العقل والفهم، يعيش أوهاما وأكاذيب تملأ عليه حياته، ويسعى فى الناس بأباطيل وضلالات تفسد على الناس حاضرهم ومستقبلهم، فكان – لا جَرَم – مستحقا لهذا العقاب الشديد فى الدنيا: الاستئصال أو التعجيز، ومستحقا لما ينتظره عند الله من عقاب شديد.

ب – وأن العاملين فى مجالى الدعوة والحركة يواجهون كل يوم من يشاق الله ورسوله برفضهم دين الله ونهجه، وإصرارهم على عزله عن الحياة، وزعمهم بأن الدين رجعية وتأخر وإيمان بغيبيات لا قيمة لها فى حياة الناس!!

● ومن صميم عمل الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يبذلوا قصارى ما يستطيعون من جهد لهداية هؤلاء المعاندين المعادوين؛ بتوضيح الحقائق فيما يتصل بالدين وبنهجه ونظامه فى الحياة.

● ووسائل الدعاة إلى الله فى توضيح هذه الحقائق معروفة تتدرج من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، وقد تصل ما وراء ذلك إن تعنت الأعداء،

وناصبوا منهج الله العداء، وحالوا بين الإسلام وبين أن يكون هو النظام الذى يحتكم إليه المسلمون.

- وليطمئن الدعاة إلى أن الله ينصر المؤمنين ويحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، وما على الدعاة إلا أن يتزودوا بالإيمان والعمل الصالح، ويوقنوا بأن الله معهم وبأنه سيلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب، وأن النصر من عنده سبحانه وأنه تعهد بنصر المؤمنين بل جعل ذلك حقا عليه سبحانه وتعالى: ﴿ **فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** (٤٧) ﴾ [**الروم**: ٤٧].

٤ - الآيات من الخامسة عشرة إلى التاسعة عشرة

فى : الجهاد وشروطه، والبلاء وظروفه وعون الله للمؤمنين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾

[الأنفال: ١٥ - ١٩].

● تتحدث هذه الآيات الكريمة عن أمور تُطلب من المؤمنين أثناء الجهاد فى سبيل الله تعالى، تعد من مطالب الجهاد أو شروطه، وهى كثيرة منها ما نشير إليه فيما يلى :

– الثبات فى المعركة أمام العدو،

– وعدم التولى – أى الفرار – يوم الزحف إلا لخطة قتال،

– والاعتماد على الله تعالى والاعتقاد بأن الفعل فعله فى القتل والرمى والانتصار على الأعداء.

– وتقبل البلاء الذى يبتلى الله به المسلمين فهو بلاء حسن،

– والجزم بأن الله تعالى سوف يضعف موقف الكافرين،

– وأن استفتاح الكفار بقولهم: اللهم انصر أحب الفريقين إليك جاء محققا لنصر المؤمنين عليهم؛ لأن المؤمنين أحب الفريقين إلى الله وأوصلهم للرحم.

● وقد اشتملت الآيات الكريمة على نداء موجه للمؤمنين – يطالبهم فيه بالثبات فى مواجهة العدو – وعلى نهى وعلى أكثر من أسلوب شرط، وعلى أكثر من خبر بعضها مؤكد، وبعضها تقريرى، مما سوف نوضحه ونحن نفصل القول فى الآيات الكريمة، والله المستعان.

– «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار» كان المشركون قد

زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين بعد أن نجت عيرهم، وقد أعد المشركون أنفسهم وجمعوا صناديدهم مُصرين على قتال المؤمنين.

- فنادى الله على المؤمنين يطالبهم بالثبات أمام هؤلاء الزاحفين، وينهاهم عن أن يولى أحدهم دبره للمشركين، وإنما يقاتلونهم ولهم إحدى الحسنيين: النصر عليهم أو الشهادة فى سبيل الله.

ويخبرهم سبحانه وتعالى بأن من يوليهم دبره إلا لخطة قتال، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم.

- وأباح لهم التولى لخطة تؤدى إلى نكاية العدو أو كان انحيازاً لفئة من المؤمنين تحميه أو يحميها، ولا يباح التولى لغير ذلك من الأسباب، إذ هو من أكبر الكبائر، وعده رسول الله ﷺ من السبع الموبقات أو المهلكات لصاحبها، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والقولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

- «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس« المصير». والمعنى: أنّ من لم يثبت للأعداء الزاحفين، فإنه يرجع - بعدم الثبات أى التولى - وقد حمل غضب الله أى انتقامه سبحانه وتعالى منه نتيجة لتوليه وفراره، كأن المتولى المنهزم يبحث له بتوليه عن ملجأ أو منجى فلا يجد إلا غضب الله تعالى!

- ولا يباح التولى إلا إذا كان المتولى متحرفًا لقتال أو متحيزا إلى فئة، كما أوضحنا ذلك آنفا.

- وقد جاء التعبير القرآنى الكريم فى التولى وجزائه على هيئة أسلوب الشرط، وأسلوب الشرط يعنى أنه إذا تحقق الشرط تحقق الجزاء وإذا انتفى الشرط انتفى الجزاء.. «من يولهم... فقد باء بغضب من الله».

- يوم الزحف مأوى وخيم يوم القيامة هو جهنم، وهى دائما بئس المصير.

- وحكم التولى يوم الزحف -وهو الإثم واستحقاق غضب الله ومأواه جهنم- ليس مقصورا على يوم بدر، وإنما هو سار على كل زحف وقتال فى سبيل الله تعالى وكل معركة يخوضها المؤمنون ضد أعدائهم إلى يوم القيامة؛ إذ القاعدة المهمة أن العبرة فى أحكام

القرآن الكريم بعموم ما يدل عليه لفظه، وليس بخصوص السبب الذى نزلت فيه الآيات.

● ومن قال من العلماء إن «يومئذ» أى يوم بدر، فقد وقع فى الوهم؛ بدليل أن الآية نزلت بعد القتال فى بدر وانقضاء المعركة، فلا وجه لتخصيص التولى بيوم بدر وحده.

- «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم...» قال مجاهد: اختلفوا يوم بدر، فقال هذا: أنا قتلت، وقال الآخر: أنا قتلت، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والمعنى أن هذه الكسرة الكبيرة للمشركين لم تحصل منكم وإنما حصلت بمعونة الله تعالى، قال المقريزى: «ولما التحم القتال كان رسول الله ﷺ رافعًا يده يسأل الله النصر، وما وعده، وأمر ﷺ فأخذ من الحصا كفا فرماهم بها، وقال: شاهت الوجوه، اللهم ارعب قلوبهم وزلزل أقدامهم، فانهزم أعداء الله لا يلوون على شىء، وألقوا دروعهم، والمسلمون يقتلون ويأسرون، وما بقى منهم أحد إلا امتلأ وجهه وعيناه بالحصا، ما يدرى أين توجه، والملائكة يقتلونهم. وذلك قوله تعالى: «فلم تقتلوهم ولكم الله قتلهم....» الآية.

● وقال فخر الدين الرازى: «روى أنه لما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ: «هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى»، فنزل جبريل وقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان، قال لعلى: أعطنى قبضة من التراب من حصباء الوادى، فرمى بها فى جوههم، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه، فانهزموا»[1].

وقال الزمخشرى: «والفاء فى قوله: «فلم تقتلوهم» جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم، فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم؛ لأنه هو الذى أنزل الملائكة وألقى الرعب فى قلوبهم وشاء النصر والظفر، وقوى قلوبكم وأذهب عنها الفزع والجزع»[2].

- «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى..» أى ما رميت أنت يا محمد إذ رميتهم ولكن الله تعالى، بمعنى أن الرمية التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها ما بلغ، ولكن الله تعالى هو الذى رمى، فكان أثر رميته ذلك الانكسار للعدو والقتل والأسر الذى حل به.

---

(١) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ٥ : ١١٢ ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٢) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: ٢/ ٩ ط الحلبى - القاهرة ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م.

● روى ابن إسحق فى معنى الآية: أنها كانت فى يوم بدر، لما استوت الصفوف ونزل جبريل آخذا بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع، فأخذ رسول الله ﷺ حثية من الحصباء فاستقبل بها قريشا، فقال: شاهت الوجوه، ثم نفخهم بها، وأمر أصحابه فقال: شدوا، فكانت الهزيمة وقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم، فكان الرمى للحصى من فعل النبى ﷺ، وكأن الرمى أى القتل من فعل الله تبارك وتعالى.

– «وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا...» أى أن الله تعالى فعل ما فعل في بدر من نصر للمؤمنين وهزيمة للكافرين «ليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا» بالنصر والغنيمة وحسن السمعة.

● والبلاء يكون بالحسن من الأمور كما يكون بالسيئ منها، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

– «إن الله سميع عليم» أى سميع لكلامكم واستغاثكم به، عليم بأحوال قلوبكم وإخلاصكم، وهذا يجرى مجرى التحذير والترهيب؛ لئلا يغتر الإنسان بظواهر الأمور، وليعلم أن الخالق سبحانه وتعالى مطلع على كل ما فى الضمائر والقلوب.

– «ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين» أى مضعف كيدهم وتحديهم للنبى ﷺ وللدين الحق الذى جاء به من عند الله، وتوهين الله تعالى كيد الكافرين يكون أمور منها:

– إطلاع المؤمنين على عورات الكافرين،

– وإلقاء الرعب فى قلوبهم،

– وتفريق كلمتهم، وزيادة اختلافهم، ضعف عزائمهم.

– ونقض ما أبرموا بسبب.

قال ابن عباس –رضى الله عنهما: ينبئ الله رسوله ويقول: إنى قد أوهنت كيد عدوك حتى قتلت خيارهم وأسرت أشرافهم»[1].

– «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم، وإن تعودوا نعد، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين».

● الخطاب فى هذه الآية للكفار؛ خذلانا لهم وتوبيخا على استفتاحهم أى استنصارهم الله على رسول الله ﷺ، كما قال بذلك الحسن ومجاهد والسدى وغيرهم.

---

(١) فخر الدين الرازى: التفسير الكبير: ١٥/ ١١٤، مرجع سابق.

● روى محمد بن إسحق أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وآتى بما لا يعرف فأحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحا منه، فأهلكه الله وقومه.

● وقال السدى: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر قد أخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين، وخير القبيلين، فقال الله تعالى: «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ.

– وقد يكون الخطاب: «تستفتحوا...» للمؤمنين، فقد روى أنه ﷺ لما رأى المشركين وكثرة عددهم، استغاث بالله هو والصحابة رضى الله عنهم –كما ذكرنا ذلك آنفا– وطلب من الله ما وعده به من إحدى الطائفتين، أى طلب الرسول ﷺ الفتح والنصر فجاءه الفتح والنصر، ويرى بعض العلماء أن الخطاب للمؤمنين هو أولى من أن يكون للكافرين.

– «وإن تنتهوا فهو خير لكم...».

● والمعنى –إن كان الخطاب للكافرين–: إن تنتهوا عن قتال الرسول ﷺ وعداوته وتكذيبه فهو خير لكم فى الدين والدنيا، أما فى الدين فبخلاصكم من العقاب الأخروى، وأما فى الدنيا فبخلاصكم من القتل والأسر.

أى أن الانتهاء عن عداء الرسول ﷺ خير لكم، والعودة إلى عدائه شر لكم، لأنكم لا تكونون إلا مغلوبين مقهورين.

● وإن كان الخطاب للمؤمنين، فالمعنى: إن تنتهوا عن المنازعة فى أمر الأنفال، وتنتهوا عن طلب الفداء على الأسرى –فقد كان قد وقع ذلك منهم فى بدر، حتى عاتبهم الله تعالى بقوله: ﴿**لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴿٦٨﴾﴾ [**الأنفال**: ٦٨]، أى إن تنتهوا عن مثله فهو خير لكم، و«إن تعودوا» إلى تلك المنازعات «نعد» إلى ترك نصرتكم؛ لأن الوعد بنصرتكم مشروط بشرط استمراركم على الطاعة وترك المخالفة، ثم لا تنفعكم الفئة والكثرة.

– «ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت»؛ أى أن الكثرة والعدة لا تغنى الكافرين فى عدائهم ضد الحق وأهله. إن كان الخطاب للكافرين.

أو: لا تنفع المؤمنين كثرتهم إن لم يكونوا طائعين ملتزمين لكل ما أمرهم الله به أو نهاهم عنه –كما حدث فى حنين مثلا– إن كان الخطاب للمؤمنين، وتكون الآية الكريمة مقررة لقاعدة عامة غير مرتبطة بمعركة بدر وهى: أن الفئة والكثرة لا تغنى أصحابها شيئا؛ لأن

العبرة بالإيمان والطاعة لكى يأتى النصر من عند الله تعالى.

- «وأن الله مع المؤمنين» بالعون والتوفيق والمدد، مهما كانوا قلة؛ لأن معية الله تعالى فيها كل خير وكل ربح وكل نصر.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة كثيرا من القيم التربوية التى لابد منها فى الحياة، لكى تستقيم للناس علاقات إنسانية كريمة، فيستطيعوا بالتمسك بهذه القيم أن يحظوا بسعادة الدنيا والآخرة، وذلك ما نشير إليه فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار...** ﴾ ما يلى:

أ - أن الثبات على الحق والتضحية بكل شىء فى سبيله هو الأصل وهو الواجب الذى لا يتخلى عنه أبدا مهما كثر الأعداء وتعاظمت عدتهم وآلتهم، لأن الثبات على الحق من القيم التى يجب أن يتمسك بها المؤمنون فى كل حين وعلى كل حال.

ب - وأن التولى عن الأعداء فى معارك الحق فرارٌ من القتال، ومن المعروف أن التولى عن العدو كبيرة من الكبائر، عدها رسول الله ﷺ من الكبائر فى بعض أحاديثه، وجعلها من السبع الموبقات فى أحاديث أخرى.

● أما عدُّها من الكبائر، فقد روى الطبرانى -فى الكبير- بسنده عن سهل بن أبى حثمة رضى الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «اجتنبوا الكبائر السبع: الشرك بالله، وقتل النفس، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنة، والتَّعرُّب بعد الهجرة».

● وأما عدُّها من السبع الموبقات، فقد روى البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى بأسانيدهم، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

جـ – وأن هذا التولى قد يكون مباحا عند الضرورة –استثناء من القاعدة– وذلك فى حالتين هما:

– أن يكون التولى بسبب خطة حرب تؤدى إلى خذلان العدو.

– أو أن يكون انحيازا إلى فريق من المؤمنين للانتصار بهم على الأعداء.

د – وأن من تولى عن العدو لغير خطة حرب أو انحياز لفئة من المؤمنين، فقد ارتكب كبيرة توجب غضب الله تعالى وتؤدى به إلى جهنم وبئس المصير.

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، وليبلى المؤمنين بلاء حسنا إن الله سميع عليم** ﴾ ما يلى:

أ – أن الأثر الحقيقى للنصر على الأعداء هو لله تعالى، وأن أعمال الناس وجهودهم أسباب للنصر هيأها الله تعالى للمقاتلين: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم».

ب – وأن الله تعالى هو الذى يقتل الأعداء، وإن كان المسلمون يقاتلونهم، وأنه سبحانه هو الذى يرميهم ويقضى عليهم، وإن كان الرسول ﷺ والمسلمون يرمونهم: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى».

جـ – وأن الله تعالى ينصر المسلمين أحيانا ليبليهم بلاء حسنا –كما حدث فى معركة بدر– ومعنى ذلك أن الله تعالى كما يبلى المؤمنين البلاء الحسن بالنصر، قد يبليهم البلاء السيئ بالهزيمة كما حدث فى أحد، لئلا يغتر المؤمنون بالنصر، ولئلا ينكسروا أو ييأسوا إن وقعت بهم الهزيمة.

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين** ﴾.

أ – أن الله تعالى مع المؤمنين وأنصار الحق يؤيدهم على عدوهم ويضعف كيد أعدائهم ويوهنه بما شاء من أسباب، ويكفى المؤمنين هذه المؤونة فى الوقت الذى يطالبهم فيه بأن يأخذوا بالأسباب التى تتاح لهم دون تقصير أو فتور.

ب – وأن الكافرين أعداء الله تعالى، وأن ما يكيدون به لله ولرسوله وللمؤمنين هو زيادة فى الكفر والضلال ومعاداة الحق، ورغبة فى اقتلاع الإيمان من قلوب المؤمنين، وعمل على أن يشيع الفساد بشيوع الكفر فإن ذلك قرين هذا.

جـ– وأن من صميم عمل المؤمنين أن يكونوا للكافرين بالمرصاد، يحولون بينهم وبين

استمرارهم فى الكفر، بالدعوة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، ثم بالقتال والمجالدة حتى يجنبوا المجتمع الإنسانى شرورهم وآثامهم.

٤ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم، وإن تعودوا نعد، ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين** ﴾ مايلى:

أ – أن المسلمين إن أقبلوا على الله بالطاعات واستغاثوا به فى السراء والضراء، وأخلصوا النية فى طاعتهم واستغاثتهم، فإن الله تبارك وتعالى يغيثهم ويمدهم بالعون والتأييد، ويجيئهم الفتح، وتأخر الفتح دليل على قصور فى الطاعة لله وخلل فى التوكل عليه.

ب – وأن الكافرين إن تصوروا أنهم على الحق واستفتحوا داعين على الفئة الضالة الشريرة، فإنهم فى الحق يدعون على أنفسهم وسوف يتحقق ما دعوا به، ويجيئهم ما طلبوا بعون الله للمؤمنين وخذلانه للكافرين، ورد كيدهم إلى نحورهم.

جـ – وأن المؤمنين –إن كانوا هم المخاطبين بالآية– إن انتهوا عما قد يقعون فيه من خلاف وتنازع، فهو خير لهم، وأن الكافرين –إن كانوا هم المخاطبين بالآية– إن انتهوا عن كفرهم وضلالهم وتحديهم لله ورسوله والحق، فذلك الانتهاء عن الكفر والشر خير لهم.

د – وأن الذين ينتهون عن الخلاف والتنازع، أو الذين ينتهون عن الكفر والفساد، إن عادوا إلى ما كانوا عليه، فإن الله تعالى يعود عليهم بالنكال والعذاب، ولن تغنى عنهم فى هذه الحالة كثرة ولا قوة، لأن الله تعالى أكبر من كل كثرة وأقوى من كل قوة.

هـ – ويتعلمون هذه الحقيقة الكبرى وهى: أن الله تعالى مع المؤمنين على كل حال، قلة كانوا أو كثرة، وعلى قوة كانوا أو على ضعف، وفى كل حين، فى عهد النبى ﷺ أم فى أى عهد بعده، إلى أن تقوم الساعة.

«وأن الله مع المؤمنين» يؤيدهم ويوفقهم وينصرهم ويفتح لهم البلاد وقلوب العباد.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة قيما وأخلاقا وآدابا، لا يستطيعون ممارسة أعمالهم إلا بها، بل لا ينجحون ولا يوفقون إلا إذا تحلوا بها، وكانت جزءا من طباعهم وأخلاقهم، مما نشير إلى كثير منها فيما يلى :

١ - يتعلمون من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ ما يلى :

أ - أن ملاقاة أعداء الله وأعداء الحق، ما ينبغى أن ينهزم فيها الدعاة والحركيون، بل لا ينسحبون من تلك المعارك بحال؛ إذ هى معارك لابد منها، ولن يخلو منها عصر أو مصر، وسواء أكانت الملاقاة على مستوى الجدل والحوار أم على مستوى الإعداد، أم على مستوى الكيد والحرب، أم أعلى مستوى القتال والمناجزة.

- وأنصار الحق ودعاته وحماته أهل بذل وتضحيحة بالمال والجهد والوقت والنفس، ومن كانوا كذلك فلن ينهزموا، وكيف ينهزمون وفى هزيمتهم وتراجعهم عن المضى فى المعارك تخاذل وقعود عن الجهاد فى سبيل الله، وذلك هو التولى الذى نهى الله عنه وهدد من يقوم به؟!

- وعلى الرغم من أن لكل معركة ظروفها وملابساتها، وخططها ومراحلها والإعداد لها، وعلى الرغم من أن بعض هذه الظروف والملابسات قد تقتضى مهادنة موقوتة، فإن التراجع مطلقا والتولى عند الزحف من أكبر الموبقات ومن الكبائر السبع المعروفة.

ب - ولا يباح هذا التولى عن الدعوة أو الحركة أو التربية أو التنظيم أو العمل من أجل التمكين لدين الله، مهما استبد العدو أو تعاظمت قوته أو بالغ فى كيده، هذا التولى كبيرة من الكبائر لا تباح للمؤمن إلا فى حالتين أثناء القتال والتلاحم فحسب، وهما -كما أوضحنا آنفا- التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة من المؤمنين.

- أما ما كان أقل من القتال والمناجزة، فلا يجوز التولى فيه، مهما تكن قوة العدو وكيده، إذ كيف ينسحب الداعية إلى الله من مجال الدعوة؟! وكيف يتخلى الحركى عن مخالطة

الناس وتقديم الخير والنفع لهم والتأثير فيهم، وتشجيعهم على الالتزام والانتماء؟! وكيف يتولى التربوى عن ممارسة التربية؟!

● إن تولى هؤلاء أو أحدهم كبيرة من الكبائر، وعمل شأن يعد من معوقات العمل الإسلامى، بل من تأييد أعداء الله وأعداء الحق.

جـ - وأن الثبات على الحق وترك التولى عنه أو الانهزام دونه مكلف وشاق، ولا يتحمله إلا الرجال الصادقون، أولئك الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)** ﴾ [**الأحزاب**: ٢٣](١).

● وكل تضحيات الدنيا -مهما كان نوعها أو حجمها أو ما تكلفه للإنسان- لا تعدل رضى الله تبارك وتعالى وثوابه والحصول على جنته! وما أجدر الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يضحوا وأن يتقربوا بهذه التضحيات إلى الله تعالى.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى...** ﴾ ما يلى:

أ - أن يوقنوا أن الله تعالى هو الموفق المعين فى السلم والحرب، فى الدعوة والحركة والتربية والجهاد، وأن كل توفيق يتحقق لهم فى أى مجال من مجالات العمل الإسلامى إنما هو من الله تعالى، وما الناس وما يملكون من عدد وعدة إلا أسباب هيأها الله تعالى.

ب - ولا يستطيع الإنسان أن يحصى نعم الله عليه وتوفيقه إياه فى مجال العمل من أجل الإسلام، فإن خير الله فى ذلك المجال عميم، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

- كم من مدعو كان عنيدا، وبعيدا عن الحق، أعان الله الداعى فى عمله، فإذا المدعو قد لان وهُدى إلى الحق!!

- وكم من معركة خاضها الدعاة إلى الله، من أجل الحق وتمكين منهج الله، فنصرهم الله على أنفسهم وعلى شياطينهم وعلى أعدائهم ممن يكرهون الحق ويتحدون منهج الله ونظامه!!

---

(١) أوضحنا ما فى هذه الآية الكريمة من قيم تربوية عامة وقيم تربوية فى مجالى الدعوة والحركة فى كتابنا: التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

– وكم من طريق فى مجال الدعوة والحركة والتربية بالغ الطول متعدد المراحل صعب القطع، يسره الله تعالى وأعان عليه، فإذا بالدعاة يقطعونه ويصلون إلى أهدافهم!!

– وكم كانت الأسباب التى هيأها الله تعالى أبسط وأيسر مما يتصور أكثر الدعاة تفاؤلا، وأقدرهم على الاقتحام وأرضاهم بتحمل الشدائد!!

– وكم من تيسير!! وكم من توفيق!! وكم من عون وتأييد!!

جـ – كل هذه المعونات التى يمن الله بها على دعاته وأوليائه، توحى بها الآية الكريمة: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى...».

إن هذه الآية الكريمة تعلم الدعاة والحركيين والعاملين من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، تعلمهم ما لا يقادر قدره ولا يمكن إحصاؤه وعده، ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)** ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم** ﴾ ما يلى:

أ – إن المؤمنين عموما، والدعاة إلى الله على وجه الخصوص معرضون للبلاء بالشر والخير، بالسيئ والحسن، وأنه سبحانه يبتليهم ليعلم المجاهدين منهم والصابرين، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)** ﴾ [محمد: ٣١]، أى لنعاملنكم معاملة المختبر، وذلك بأن نأمركم بالجهاد فى سبيل الله، وتحمل أعبائه وأعباء الدعوة إلى الله، حتى نعلم من امتثل منكم الأمر بالجهاد، والصبر على دينه وما كلف به، ليظهر ذلك لكم وللناس فيعرف من أطاع ومن عصى أنه أطاع أو عصى.

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: «ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين» ما يلى:

أ – أن الله تعالى يشير «ذلكم» ويذكر المؤمنين إلى عظيم تأييده لهم فى قتله أعداءهم ورميه إياهم، وأنه ابتلى المسلمين بالنصر الذى أحرزوه فى بدر، أى ذلك كله، «وأن الله موهن كيد الكافرين» وتلك نعمة كبرى من الله على الدعاة والمؤمنين تضاف إليها نعم جليلة أخرى.

ب – وأن من نعم الله المتوالية على المؤمنين فى كل حين ما نشير إلى بعضه فيما يلى :

– أن العاقبة والنهاية إنما تكون بنصر الله المؤمنين على الكافرين طال الزمان بذلك النصر أم قصر، تلك سنة الله فى الصراع بين المؤمنين والكافرين.

– وأن الله يوهن كيد الكافرين بأسباب عديدة منها :

- أن يلقى الرعب فى قلوبهم من المؤمنين،
- وأن يفرق كلمتهم ويذهب وحدتهم،
- وأن يهون من شأنهم فى نفوس المسلمين، حتى لا يهابوهم،
- وأن يختار الله من الأسباب التى يؤيد بها المؤمنين أو يوهن بها كيد الكافرين ما يشاء.

٥ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى : «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح، وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين» ما يلى :

أ – أن هذه الآية تحمل من البشارات للمؤمنين شيئا كثيرا نذكر منه ما يلى :

– بشارة بأن الله تعالى مع المؤمنين يقتل من قاتلهم،

– وبشارة بأن الله تعالى يرمى الأعداء بأيدى المؤمنين،

– وبشارة بأن الله مع المؤمنين يكلؤهم ويرعاهم وينصرهم،

– وبشارة بأن لهم –وهم يواجهون أعداءهم– حرية الحركة والمناورة، بحيث لا يعد ذلك فرارا أو توليا فى المعركة؛ إذا كان تحرفا لقتال أو تحيزا إلى فئة.

ب – وليثق الدعاة إلى الله أنهم فى معية الله تعالى وعونه وحفظه بل تأييده ونصره، وليقروا بذلك عينا، وليتخذوا منه وسيلة إلى الصبر على تحمل أعباء الدعوة والجهاد، والثبات حتى يلقوا الله تعالى، فيجدوا عنده أجزل الثواب.

جـ – وليوقن الدعاة والحركيون أن الاستغاثة بالله تعالى عبادة بل هى دعاء يعد مخ العبادة، وأن الله تعالى سامع بذلك عليم بنوايا من يستغيثون به، مستجيب لهم، لا يخيب لهم رجاءً فيه، ولا يؤخر عنهم النصر؛ إلا لحكمة يعلمها، والخير لهم فى دنياهم أو أخراهم.

٦ – ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: « . . . وإن تعودوا نعد، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين» ما يلى:

أ – أن أعداء الله وأعداء الحق قد يتصورون –ولو لبعض ساعة– أنهم على الحق، وأنهم الأجدر بالدفاع عن القيم الفاضلة، وأن الدعاة إلى الله على الباطل، وأنهم يضللون الناس باسم الدين، وأنهم رجعيون وغيبيون وظلاميون، وأنهم وأنهم . . . وإلى آخر ما جاء ضدهم فى قاموس الملحدين الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

- وتلك نظرة أنصار الباطل إلى أنصار الحق من قديم، ولقد عبر عن هذا أبو جهل، فى العهد «النبوى»، فقال فى معركة بدر: «اللهم انصر أفضل الدينين وأحقه بالنصر . . .»، لقد حسب المأفون أنه على دين!!

- وعلى الرغم من وضوح النتائج –للمقارنة بين ما كان عليه أهل الجاهلية، وما كان عليه النبى ﷺ وصحابته– يعبد الجاهليون الحجارة، ويجور قويهم على ضعيفهم، ويشربون الخمر ويزنون، والنبى ﷺ وصحبه يوحدون الله ويؤمنون بكتابه وسنة نبيه ﷺ، ويدينون دين الحق ويتعاملون بالعدل والإحسان ويتعاونون على البر والتقوى. على الرغم من وضوح ذلك فإن أبا جهل ذاك قال: انصر أفضل الدينين!!

- ولابد أن يردد ذلك أبو جهل العصر الذى نعيشه، فيتصور أنه على الحق، وأن ما تردده أبواقه هو الحق، وأن الدعاة إلى الله على الباطل، وأن يستعدى عليهم الله تعالى!! سنة الله فى الصراع بين الحق والباطل . .

- ولم يكن ولن يكون أبو جهل وحده ولكن يشاركه فى ذلك آباء جهل وأمهات جهل كثيرون وكثيرات، كان ذلك أيام المشركين –كما ذكرنا آنفا– من أن المشركين تعلقوا بأستار الكعبة وهم خروج إلى معاداة الحق، قائلين: اللهم انصر أهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين، فأنزل الله تعالى هذه الآية: «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . . .» أى إن تستنصروا لأهدى الفريقين وأكرم الحزبين فقد جاءكم النصر.

- تلك حقيقة لا ينبغى أن يضيق بها الدعاة إلى الله أو الحركيون، وليدَعوا للحق والباطل كليهما أن يعلنا عن أنفسهما، وليفوضوا الأمر إلى الله تعالى يفصل فيه بين أنصار الحق وأتباع الباطل بما يشاء، وليوقنوا بأن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، والله

تبارك وتعالى يريد ذلك: ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾ [الأنفال: ٧، ٨]، وليعلموا علم اليقين أن الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة: ٣٣][1].

- تلك حقيقة يجب أن تعيش فى قلوب الدعاة وعقولهم، وأن يعلّموا الناس، ويفقهوهم بهذه الحقيقة وغيرها من سنن الله تعالى التى لا تتغير ولا تتبدل.

ب – وأن من رحمة الله بعباده أن جعل باب التوبة مفتوحا أمام كل مخطئ، ليتوب ويثوب إلى الصواب، ويذوق حلاوة الإيمان، لو أنه أخلى عقله من رواسب الكفر ودواعى الضلال.

- وقد انتهى عن الباطل ودخل فى حوزة الحق ما لا يحصى عدده من الناس، ممن كانوا طغاة ظالمين، فأصبحوا أنصاراً للحق، بل دعاة إليه!

ولنا فى الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه –الذى كان شديدا على الإسلام والمسلمين ثم هداه الله فكان أنموذجا للحق وللدعوة إليه– لنا فيه خير مثال.

- ثم يستمر موكب أعداء الحق الذين تحولوا إلى أولياء له، حتى يدخل فى الإسلام عتاة التتار وجبابرتهم، ثم المماليك. وعلى طول التاريخ دخل فى الإسلام أعداء ألداء من اليهود والنصارى، وحشد هائل من العلماء.

- كل أولئك كانوا يتصورون أنهم على الحق فانتهوا عن ذلك التصدى للحق، فكان ذلك خيرا لهم.

- وليس للدعاة –فى ظل هذه الآية الكريمة– أن يحكموا على أحد مهما تعاظمت أخطاؤه بأنه ملعون مطرود من رحمة الله، أو أن باب التوبة قد أغلق دونه، وذلك أن دين الإسلام –خاتم الأديان وأتمها وأكملها– أرحم بالمخطئين من أن يغلق أمامهم باب التوبة والرجوع عن الباطل، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... ويتوب الله على من تاب».

---

(١) ونفس الآية الكريمة فى سورة الصف: ٩، وفى سورة الفتح جاءت الآية نفسها ولكن آخر الآية جاء: «وكفى بالله شهيدا» ٢٨.

جـ - وأن الكفار إن لم ينتهوا عن كفرهم وباطلهم، وعادوا إلى معاندة الحق ومناصبة دعاته العداء، فإن الله تعالى سوف يعود عليهم بما أذاقهم من هزيمة وبما أوهن من كيدهم.

● وأن هؤلاء الكفار لو عادوا إلى كفرهم وتحديهم للحق ودعاته فسوف لا تغنى عنهم كثرتهم ولا قوة عتادهم، ولن يحول كل ذلك بينهم وبين الهزيمة.

● وإن على الدعاة إلى الله أن يمهدوا لهؤلاء المعاندين للحق، طريق العودة عن هذا العناد، وأن يبذلوا فى سبيل ذلك ما يستطيعون من جهود يرون أنها سوف تهديهم إلى الحق.

● وليس للدعاة أن يكفوا عن محاولات هداية المعاندين متربصين بهم عقاب الله، لأن من المسلَّمات أن هداية هؤلاء خير للدعاة وللحق نفسه من أن يظلوا سادرين فى عنادهم وتحديهم للحق وأهله ودعاته، لأن ذلك من صميم فقه الدعوة إلى الله.

٧ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: « . . . وأن الله مع المؤمنين » ما يلى:

أ - أن معية الله تعالى للمؤمنين تقطع بأن النصر سوف يكون لهم على أعدائهم، لأن النصر -كما أوضحنا آنفا- لا يكون إلا من عند الله ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)**﴾ [**آل عمران**: ١٢٦].

● يعلم تلك الحقيقة كل المؤمنين، ويزداد الدعاة إلى الله بها يقينا كلما خاضوا غمار الدعوة والحركة والعمل على التمكين لدين الله فى الأرض.

● بل إن الكفار يعلمون أن النصر من عند الله!! فقد جاء فى كتب السيرة النبوية أن قريشا وهى فى الطريق إلى بدر مرت بابن رحضة الغفارى، فبعث إليهم بابنه ومعه هدايا وقال لهم: إن أحببتم أن نمدكم بالسلاح والرجال فعلنا، فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم، قد قضيت الذى عليك، فلعمرى لئن كنا نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا نقاتل الله -كما يزعم محمد- فما لأحد بالله من طاقة!!

● هذه مقولة المشركين تقطع بأن النصر من عند الله، وأن من كان الله معه فلن يغلب أبدا، وليس لأحد به طاقة!!

فما بال المؤمنين والدعاة إلى الله!!

٥ - الآيات من الآية العشرين إلى الثالثة والعشرين

مطالبة المؤمنين بطاعة الله ورسوله، وتحذيرهم من أن تتولى قلوبهم وعقولهم عنه سبحانه وتعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال: ٢٠ - ٢٣].

● تتحدث الآيات الكريمة عن أمر من الله تعالى للمؤمنين بأن يطيعوا الله ورسوله فى كل ما أمرهم به وما نهاهم عنه.

وينهاهم عن الإعراض عن الحق بعدما استمعوا إليه من خاتم رسله محمد ﷺ، محذراً لهم من عاقبة أقوام سلفوا من الكفار والمنافقين أعرضوا عن الحق، فكانوا كالدواب بل من شر الدواب؛ لأنهم عطلوا عقولهم حين أصموا آذانهم عن الحق، فكان مصيرهم ما كان مما هو معروف عنهم وعن أمثالهم.

● وقد اشتملت الآيات الكريمة على أمر، وأكثر من نهى، وأكثر من شرط، وعلى خبر مؤكد، مما سوف نوضحه فى الشرح التالى للآيات الكريمة:

- «يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله...» هذا أمر مباشر بطاعة الله ورسوله فى كل أمر جاء من عند الله فبلغه الرسول ﷺ، أو صدر من الرسول الذى لا ينطق عن الهوى فى شيء من أمور الدين أو أمور الدنيا.

● ولأن السورة الكريمة نزلت فى معركة بدر، ولأن أغلب آياتها فى الجهاد فى سبيل الله، والجهاد فى سبيل الله أعلاه التضحية بالنفس، وهى تضحية شاقة صعبة على كل أحد، كان الأمر بطاعة الله ورسوله فى الجهاد من الأوامر المهمة التى يقام لها أكبر وزن فى مجال الإيمان كله، بل للجهاد وزن كبير بين أركان الإسلام وقواعده، لأن الجهاد فى ذروة سنام الإسلام كما قال رسول الله ﷺ، فقد روى الترمذى بسنده عن معاذ رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «... ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام، من أسلم سلم، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد...».

● وطاعة الله ورسوله مطلوبة فى الجهاد وغيره، وهذه الطاعة خير للمسلمين وتأمين لحاضرهم ومستقبلهم.

وقد تكرر طلب طاعة الله ورسوله فى هذه الآية بعد أن جاء فى بداية السورة، واعتبرت الطاعة شرطا لكمال الإيمان فى قوله تعالى: «وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين».

– «ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون» أى لا تتركوا طاعته بامتثال أوامره وترك زواجره، فهو لا يأمركم إلا بما ينفعكم ولا ينهاكم إلا عما يضركم.

● والتولى عن الرسول ﷺ معصية تغضب الله تعالى، وتدل على أن المتولى غافل لا يستعمل عقله ولا سائر حواسه، مع أنه يعقل ويسمع الحق الذى جاء به محمد ﷺ!!

● والتولى عن رسول الله ﷺ –مع سماع الحق الذى جاء به– من أكبر الكبائر، بل يخرج صاحبه من الإيمان كله؛ إذ كل ما جاء به محمد ﷺ تجب طاعته، وهذه الطاعة تعنى قبول المنهج والتمسك به؛ لأن من مقتضى السماع الفهم والتصديق، والإذعان، والعمل بمقتضى ما أمر به الرسول ﷺ، واجتناب كل ما نهى عنه، وإلا وقع المتولى عن الرسول ﷺ فى الإثم واستحق شديد العقاب.

– «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» وفيها نهى عن التشبه بأقوام سابقين من الكفار والمنافقين الذين قالوا بألسنتهم إنا قبلنا ما جاء به الرسول من تكاليف الله تعالى، مع أنهم بقلوبهم لا يقبلون هذه التكاليف، وتلك صفة المنافقين.

● فالكفار المعاندون تحدثت عنهم آية كريمة هى: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** (٤٦) ﴾ [النساء: ٤٦]، فحذر الله تعالى المؤمنين ونهاهم أن يكونوا كهؤلاء.

● والمنافقون تتحدث عنهم آية كريمة هى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** (١٦) ﴾ [محمد: ١٦]، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ**

﴿ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤]، فحذر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا كهؤلاء.

- « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ».

● وهذا إخبار مؤكد من الله تعالى يخبر فيه عن هؤلاء السابقين من الكفار والمنافقين وأمثالهم ممن يتولون عن تكاليف الله تعالى وعن الحق.

● والمعنى: أن شر ما يدب على الأرض من مخلوقات الله تعالى هم الأشرار من البشر؛ لأن الله منحهم العقل فعطلوه، ومنّ عليهم بالنبى فكذبوه فهم بذلك شر الدواب، ولهؤلاء الأشرار صفتان تميزهم هما:

● أنهم صم أى لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة، فكانوا حين عطلوا أسماعهم عن الحق كأنهم فقدوا هذه الأسماع كلية.

● وأنهم بكم: أى لا ينطقون الحق، كأنهم فقدوا قوة النطق.

● ولهاتين الصفتين فيهما نتيجة محتومة هى أنهم لا يعقلون، فهم بعدم الاستماع إلى الحق وبسكوتهم عنه كمن فقدوا عقولهم التى يميزون بها بين الحق والباطل، والخير والشر، وهم بذلك كمن فقدوا نعمة العقل فكانوا شر الدواب.

● ولا يقال كيف يعَدون شر الدواب وهم أصحاب قلوب وأعين وآذان وحواس؟ لأنهم بهذا التولى عن الرسول ﷺ قد عطلوا هذه الحواس، فهم يشبهون من وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾

[الأعراف: ١٧٩].

- « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » والمعنى: أن شر الدواب هؤلاء، لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، أى لو علم فيهم استعدادا للهداية لأسمعهم، ولكنه علم بما هو كائن منهم.

- وهو بكل شيء عليم - أنهم لا خير فيهم ولا استجابة منهم لما يسمعون من الحق، فكان منهم هذا الإعراض والتولى.

● ولو أسمعهم مع ذلك لتولوا عن القبول وعن العمل، وهم معرضون قبل ذلك لعمى

قلوبهم وبصائرهم، ومعاندتهم لمن يدعوهم إلى الحق والخير والهدى.

● وهذه الآية الكريمة توضح لنا أن الله تعالى لم يسمعهم أى لم يوفقهم إلى الاستجابة للحق، لأن الباعث على هذه الاستجابة هو ما فى الفطرة الإنسانية من نور الحق الذى يحبب النفس فى الخير، وهم قد فقدوا هذا الباعث لأنهم أفسدوا فطرتهم ومالوا بها عما فطره الله تعالى عليها، فصاروا بذلك الانحراف، وإن سمعوا لم يعقلوا، ولم يعملوا.

● وهؤلاء وتلك صفاتهم يشبهون من وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١)** ﴾ [**البقرة**: ١٧١]: أى مثل هؤلاء الكفار الممتنعين عن الاستماع إلى الحق والاستجابة له كمثل راعى الغنم ينعق أى يناجيها وينادى عليها فلا تفقه منه شيئا ولا يقرع سمعها غير الصوت، ولا تعى ما وراء ذلك، فهؤلاء كذلك عن الحق صُمّ الآذان، عُمىُ البصائر، خُرسُ الألسنة، لا ينطقون بخير، ولا يصدرون عن عقل.

● وعلم الله تعالى يشمل ما كان وما سوف يكون، أى الواقعات والمعدومات على السواء.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة عددا من القيم التربوية التى لو تعاملوا بها مع الله ومع أنفسهم ومع غيرهم لكان لهم الخير فى الدنيا والآخرة، ولو تركوها لكانوا شر ما يدب على الأرض من مخلوقات، ومن هذه القيم ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تتولوا عنه وأنتم تسمعون» ما يلى:

أ – أن طاعة الله ورسوله واجبة لازمة لكل مسلم، لا يقبل إيمان ولا إسلام إلا بهذه الطاعة؛ لأن الله تعالى أمر بهذه الطاعة فى هذه الآية الكريمة، وفى آيات أُخر منها فى هذه السورة: قوله تعالى: ﴿ ... **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ... ﴾ [**الأنفال**: ١]، وقوله تعالى: ﴿ ... **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا** ... ﴾ [**الأنفال**: ٤٦].

● وأمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ فى اثنى عشر موضعا فى القرآن الكريم(١).

● وقد وعد الله تعالى على الطاعة له ولرسوله بالأجر العظيم والجزاء الحسن، والفوز والرحمة فى عديد من آيات القرآن الكريم، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...**﴾ [النساء: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)**﴾ [النساء: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)**﴾ [النور: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)**﴾ [الأحزاب: ٧١]، فطاعة الله ورسوله فيها فلاح الدنيا والآخرة.

ب - وأن طاعة الله ورسوله فى امتثال كل أمر ونهى، مما ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فما من خير إلا وأمر الله به وبلغه عنه رسوله ﷺ، وما من شر إلا ونهى الله عنه، وبلغه عنه رسوله ﷺ، فالله تعالى يطاع فيما أمر وفيما نهى، والرسول ﷺ يطاع فيما أمر وفيما نهى كذلك.

جـ - وأن التولى عن الرسول ﷺ هو تولٍ وإعراض عن الله تبارك وتعالى، وتلك كبيرة تخرج صاحبها عن الإيمان، والإسلام والإحسان، وكل فضيلة، بل تدخل صاحبها فى الكفر والنفاق والسوء والشر وكل رذيلة.

● وأن من تولى عن الرسول ﷺ بعد سماع ما جاء به من الحق عمل شنيع يشبه عمل الكفار والمنافقين، يستوجب عقابا شديدا.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» ما يلى:

أ - أن القرآن الكريم أوضح فى بيان شاف أن القول لا يكون إلا بالعمل، وأنه لا وزن للقول دون عمل، وأنه لا معنى لقول المؤمن: سمعت وأطعت، ما لم يظهر أثر قوله بامتثاله، فإذا قصر فى امتثال الأمر واجتناب النهى، فأى سمع له؟ وأى طاعة له

---

(١) هى: ٣٢، و١٣٢ من آل عمران، و٥٩ من النساء، و٩٢ من المائدة، و٢٠ من الأنفال، و٩٠ من طه، و٥٤، و٥٦ من النور، و٢٣ من محمد، و١٣ من المجادلة، و١٢ و١٦ من التغابن، وتكررت فى بعض الآيات أكثر من مرة مثل: سورة النساء فى الآية ٥٩، والمائدة: ٩٢، والنور: ٥٤، وسورة محمد: ٣٣، والتغابن: ١٢، وجاءت المطالبة بالطاعة على لسان الرسل صلوات الله عليهم فى سورة الشعراء: إحدى عشرة مرة.

كذلك؟ إنه عندئذ منافق يقول ما لا يفعل ويظهر الإسلام ويبطن الكفر، ولذلك نهت الآية الكريمة عن ذلك فى قوله تعالى: «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون».

ب - وتاريخ الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون مسجل عليهم فى القرآن الكريم بوصفهم منافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، فقد وصفهم الله تعالى وصفا شاملا فى قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)** ﴾ [البقرة: ٨ - ١٦]، كما وصفهم فى قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)** ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

جـ - وعلى المسلمين أن يأخذوا من هؤلاء الأولين عبرة؛ وبخاصة إذا تحدث عنهم القرآن الكريم، وما لم يأخذوا هذه العبرة فقدوا المصداقية، وكانوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون.

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ ما يلى:

أ - أن شر الخلق من الناس هم الذين يقولون سمعنا وهم لا يسمعون فهم بذلك كالدواب بل كشر الدواب، لأنهم أصموا آذانهم عن سماع الحق فضلا عن الإيمان به والدفاع عنه، وعطلوا حواسهم فأغلقوا أفوههم فكانوا بُكمًا لا ينطقون الحق، وألغوا عقولهم فأصبحوا لا يعقلون، ففقدوا التمييز بين ما ينفعهم وما يضرهم،

فكانوا أشبه بالأنعام منهم بالإنسان.

ب - وأن واجب المسلمين ألا يصموا آذانهم عن الحق، وألا يكفوا ألسنتهم عن النطق به وتبليغه للناس، وألا يعطلوا عقولهم فتضطرب لديهم الرؤية فلا يميزوا بين حق وباطل، كل ذلك مما يتعلمه المسلمون من هذه الآية الكريمة.

جـ - وأن إنسانية الإنسان لا تتضح فيه إلا إذا استمع إلى الحق واستجاب له، ونطق به لسانه وعملت به جوارحه وعقل الفرق بينه وبين الباطل.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون**﴾ ما يلى:

أ - أن علم الله تعالى يتعلق بما كان وبما سوف يكون أى بالموجودات والمعدومات، وأن هذه الإحاطة التى يوصف بها علم الله تعالى يجب أن يؤمن بها المسلم، ليقوى إيمانه، ويزداد يقينه، فلا يساوره أدنى شك فى أن الله تعالى يراه ويراقبه ويعلم خائنة عينه وما يخفى صدره، وهذا يستدعى استقامة السلوك واتباع كل ما جاء به محمد ﷺ.

ب - وأن المسلم يجب أن يؤمن بأن الكفار والمنافقين أهل شر بل هم شر الناس، وأن الله تعالى يعلم عنهم هذا الكفر وذلك النفاق ولكنه قد يمهلهم إلى حين، لكنه معاقبهم فى الدنيا والآخرة، وما على المسلمين إلا أن ينتظروا سنة الله وكيف تجرى على هؤلاء وأولئك.

- ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولكنه سبحانه علم فيهم الشر، بل أسوأ الشر، وأنه سبحانه لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون عن الحق على كل حال.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

فى هذه الآيات الكريمة كثير من القيم التربوية التى يتزود بها الدعاة إلى الله والحركيون فى مجال عملهم، وهم يشقون الطريق فى موكب الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، بل هى لهم خير زاد وخير متاع.. وفيما يلى نشير إلى بعض هذه القيم التربوية، والله المستعان:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله**

ورسوله...» ما يلى :

أ – أن طاعة الله ورسوله عمل مطلوب باستمرار، بحيث لا يتوقف عنه المسلم أبدا ، وأن تلك الطاعة هى من الإيمان أو هى الإيمان نفسه : الطاعة فى اليسر والعسر والمنشط والمكره.

- فقد روى البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع عليه ولا طاعة».

ب – وأن الطاعة واجبة مهما يكن أمر الآمر بها، وإن كان أقل من المأمور فى بعض الأمور ما دام من أهل الطاعة والأمر، فقد روى أحمد وابن ماجة والحاكم بأسانيدهم عن العرباض ابن سارية رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتم من سنتى، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة وإن عبدا حبشيا، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد».

جـ – والعاملون فى مجال الحركة الإسلامية يدركون أن أعمالهم كلها طاعة لله تعالى ولرسوله؛ لأن الأعمال من أجل الإسلام قد أمر الله تعالى بها ورسوله ﷺ ، فهى واجبة على كل قادر عليها، وعلى سبيل المثال :

- فإن الدعوة إلى الله بكل مفرداتها وفى جميع مراحلها واجب...
- والحركة من أجل جمع الناس على الخير وتحبيبهم فيه، وتعزيز انتمائهم للإسلام بدعم التزامهم بمنهجه واجب أوجبه الإسلام...
- والتربية والتنظيم من أجل التمكين لدين الله فى الأرض وسيادة منهجه ونظامه لكل شعب الحياة، واجب شرعى لا فكاك منه.
- وكل ما أوجبه الله ورسوله إنما يتحقق ويبرز بالطاعة، بل لا يتحقق إلا بها وبالاستمرار فيها مهما تكن شاقة على النفس؛ إذ الطاعة استجابة لهذه التكاليف الشرعية ومنهج الإسلام فى الحياة، وإعلاء لشأن هذا المنهج الكامل الشامل فى نفوس الناس.
- وهذا المنهج –الذى ارتضاه الله تعالى للبشرية دينا ونظاما– فى مطالبه الكبرى، لا يخلو

من أن يكون أمرا أو نهيا، أو ندبا أو كراهية أو إباحة، وكل موقف الحياة الإنسانية لن يكون إلا واحدا من هذه الأحكام الخمسة:

الواجب والحرام والمندوب والمكروه والمباح، والاستجابة لهذه الأحكام الشرعية واجب، والالتزام بأدائها هو الطاعة.

د - وأنه بغير هذه الطاعة لله ولرسوله ﷺ باتباع هذه المنهج، تضطرب الحياة الإنسانية على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والأمة والحكومة، ويضيع المعروف بين الناس وينتشر المنكر، ولا يعرف الناس العدل أو الإحسان، فتتقطع الأرحام وتضيع الحقوق، وتُنكَر الواجبات.

هـ - وأن طاعة الله ورسوله فى الالتزام بهذا المنهج إرضاء لله تعالى وحسن استثمار للرحمة التى أهداها الله للبشرية كلها وهى رسوله الخاتم ﷺ الذى جاء بالمنهج الكامل التام الصالح لكل زمان ومكان.

- وإنما كان هذا المنهج على تلك الصورة من الكمال والتمام؛ لأن الله تعالى أقامه على الأسس الصحيحة التى يُبنى عليها المجتمع الإنسانى الراشد، وتلك الأسس هى:

- بناء الإنسان الصالح ليكون مصدرا لخير نفسه، وخير من يعيش معه من إنسان أو حيوان أو نبات،

- وتحقيق العدالة الاجتماعية فى كل مجالاتها،

- وجلب المصالح، ورفع المفاسد عن الناس جميعا.

ولكل أساس من هذه الأسس تفصيل معروف(١)، بحيث تتحقق بتطبيق هذه الأسس والمبادئ الحياة الإنسانية الكريمة.

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون**﴾ ما يلى:

---

(١) انظر فى ذلك:
أ - معظم كتب الفقه الإسلامى،
ب - كتب الأحكام السلطانية، مثل: كتاب أبى يعلى وكتاب الماوردى،
جـ - كتب النظم الإسلامية فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد،
د - كتاب ركن الطاعة للمؤلف من سلسلة: فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

أ - أن كل إخلال بالطاعة فى أى مجال من مجالات العمل من أجل الإسلام ومن أجل سيادته وتمكينه، كل إخلال بشيء من ذلك هو من التولى عن رسول الله ﷺ بعد أن استمع المتولى عنه إلى الحق الذى جاء به ﷺ، وذلك من أكبر الكبائر وأعظم المعاصى.

ب - وأن مفردات الدعوة إلى الله ومراحلها وطبيعة كل مرحلة منها، عمل كثير التفصيلات والتفريعات(١).

● وأن التوقف عن أداء هذه المفردات هو من التولى عن رسول الله ﷺ.

جـ - وأن مفردات الحركة، ومفردات التربية الإسلامية، مما يجب على المسلمين القيام به ما داموا قادرين على ذلك(٢).

● وأن التوقف عن أداء واجب من هذه الواجبات هو من التولى عن رسول الله ﷺ بعد الاستماع إلى الحق الذى جاء به، وبخاصة أن هذا الحق قد سُجل فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

● أن الذين تحدثهم أنفسهم -من الدعاة إلى الله والعاملين من أجل تمكين دين الله فى الأرض- بشيء من التراخى، فضلا عن التوقف عن المضى فى العمل، إنما يصبحون ممن تولوا عن رسول الله بعد أن استمعوا إليه وإلى ما جاء به.

٣ - ويتعلم الدعاة والعاملون من أجل الإسلام من قوله تعالى: «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» ما يلى:

أ - أن بعض الناس قد يصمون آذانهم عن الاستماع إلى الحق، ويعطلون عقولهم عن الفهم والتدبر، فيصبحون بذلك كالدواب أو شر الدواب فى تجاهلهم للحق وتحديهم له.

● ومن أجل ذلك فإن الدعاة إلى الله ليس لهم -وحالة هؤلاء الناس هكذا- أن يجزعوا أو يشقوا على أنفسهم أو أن يتسرب إليهم اليأس من هداية هؤلاء الناس، وإنما عليهم أن

---

(١) انظر للمؤلف: فقه الدعوة إلى الله - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.
(٢) انظر للمؤلف: المرجع السابق.

يصبروا عليهم وأن يعاودوا -الكرّة بعد الكرة- دعوتهم إلى الحق، لأن ذلك واجبهم الذى لا يفارقهم أبدا، ولا ينبغى لهم أن يفارقوه ليشغلوا أنفسهم بسواه.

ب - وليستيقن الدعاة إلى الله والحركيون وسائر العاملين من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، أن هؤلاء الذين أصموا آذانهم وعطلوا عقولهم لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم وجعلهم يهتدون.

● وعليهم أن يستيقنوا كذلك أنه قد سبق فى علم الله أن هؤلاء الذين أصموا آذانهم وعطلوا عقولهم لو أسمعهم الله، فإنهم سوف يتولون معرضين عن رسول الله ﷺ وعـ ' جاءهم به من الحق.

جـ - وأن الدعاة إلى الله والعاملين من أجل الإسلام لابد لهم من مواجهة هؤلاء المتولين المعرضين بما يلائم ظروفهم وأحوالهم، ولا عليهم من أن الله تعالى قد علم أنه سبحانه لو أسمعهم ما كانوا ليهتدوا؛ لأن ذلك فى علم الله تعالى وحده، والدعاة وأمثالهم إنما عليهم المضى فى طريق الدعوة إلى الله؛ لأن هذا واجبهم.

٦ – الآيات من الرابعة والعشرين إلى التاسعة والعشرين

مطالبة المؤمنين بالاستجابة لما يدعوهم إليه الرسول ﷺ ..

وتحذيرهم من الفتنة .. وتذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم ..

ومطالبتهم بتقوى الله ليتحقق لهم الفلاح

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ [الأنفال : ٢٤ – ٢٩].

● تخاطب هذه الآيات الكريمة الذين آمنوا، وتنادى عليهم آمرة لهم، مطالبة إياهم بكثير مما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وذلك حين تطلب منهم بوساطة صيغة الأمر ما يلى :

– الاستجابة لله وللرسول الذى يدعوهم لما يحييهم،

– والعلم بأن الله تعالى يحول بين المرء وشهواته الضارة بما يشرع من منهج، وأن المصير إليه سبحانه؛ ليحاسب على ممارسة الشهوات فى غير ما شرع،

– وأن يتقوا الفتنة – إثارتها والخوض فيها – لأن شرها يعم الناس جميعا، والله تعالى شديد العقاب لمن يثير الفتنة،

– وأن يتذكروا نعم الله عليهم إذ آواهم ونصرهم ورزقهم من الطيبات .

– وينهاهم عن أن يخونوا الله ورسوله، أو يخونوا الأمانة،

– وأن يحذروا الافتتان بالأموال والأولاد، وأن يوقنوا أن الأجر العظيم عند الله تعالى .

– ويطالبهم بتقوى الله تعالى التى تسبب لهم فى النجاح والتوفيق وتكفير السيئات وغفران

الذنوب، وكل ذلك فضل من الله ذى الفضل العظيم.

- وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على ثلاثة نداءات على المؤمنين، وعلى ستة أوامر، وعلى أكثر من نهى، وعلى أكثر من خبر مؤكد حينا وغير مؤكد حينا، وعلى أكثر من أسلوب شرط، مما سوف نوضحه فيما يلى، والله المستعان.

– «يآيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم...» نداء للمؤمنين يأمرهم ويوجب عليهم الاستجابة لله وللرسول ﷺ فى كل ما يدعوهم إليه مما يحييهم به من:

- علم ومعرفة،
- وتعرف على سنن الله تعالى فى التعامل مع خلقه،
- وأحكام شرعية تنظم لهم حياتهم،
- وحكمة تقضى العدل والإحسان،
- وعمل صالح من مارسه صلح له أمر الدين والدنيا معا.

وكل ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ مسجل فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قولا وفعلا وتقريرا؛ لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى.

- وتعبير: «لما يحييكم...» فيه آراء أخرى مفردة إلى بعض العلماء، نذكر منها ما يلى:
- قال السدى: هو الإيمان والإسلام ففيهما الحياة؛ إذ بالإيمان حياة القلب، وفى الكفر موت القلب وضياعه.
- وقال قتادة: ما يحييكم يعنى القرآن الكريم، أى أجيبوا الرسول ﷺ إلى ما فى القرآن، ففيه الحياة والنجاة والعصمة، وإنما سمى القرآن بالحياة؛ لأن القرآن سبب العلم، والعلم حياة، فجاز أن يسمى سبب الحياة بالحياة.
- وقال الأكثرون من العلماء: «لما يحييكم» هو: الجهاد، وفى سبب تسمية الجهاد بالحياة ثلاثة وجوه:

أحدها:

أن وهن أحد العدوين وضعفه حياة للعدو الآخر، ومعنى ذلك أن أمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد ضد الكفار؛ لأنه يضعفهم أو يقضى عليهم.

والثاني:

أن الجهاد سبب لحصول المجاهد على الشهادة، والشهادة توجب الحياة الدائمة، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** (١٦٩) ﴾

[**آل عمران**: ١٦٩].

والوجه الثالث:

أنه قد يفضى إلى القتل، والقتل يفضى إلى الدار الآخرة، والدار الآخرة معدن الحياة، بل هى الحياة الحقة، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (٦٤) ﴾

[**العنكبوت**: ٦٤]، أى الحياة الدائمة.

- وقال بعض المفسرين: «لما يحييكم» أى لكل حق وصواب، وعلى هذا التقدير يدخل فيه القرآن، والإيمان، والجهاد، وكل أعمال البر والطاعة.

- وطاعة رسول الله ﷺ واجبة وجوبا مطلقا من كل قيد فى امتثال ما أمر به، وفى اجتناب ما نهى عنه، فى حياته ﷺ وبعد مماته فيما عُلم أنه دعا إليه، وكل ما دعا إليه ﷺ يحيى المسلمين حياة طيبة فى دنياهم، ويؤمّن لهم السعادة فى أخراهم، بل يحقق ذلك للمسلمين وغير المسلمين من أبناء البشرية جميعا.

– «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون»، والمعنى: أن القلب هنا يقصد به الرغبات والشهوات والهوى، وأن من رحمة الله بالإنسان أنه يحول بينه وبين هذه الأمور التى تميل بصاحبها عن الحق وعن الصراط المستقيم وعن كل ما يصلحه.

- وأن الناس يحشرون إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم، وما زينته لهم قلوبهم من شهوات ورغبات.

وهذا تحبيب فى العمل الصالح وتحذير من الإهمال والكسل، أكثر من أن يكون تهديدا على اتباع الشهوات.

• وقال ابن عباس رضى الله عنهما: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. رواه الحاكم فى مستدركه موقوفا، وقال صحيح ولم يخرجاه.

• والأحاديث النبوية الشريفة تؤيد تلك المعانى التى ذكرناها، فقد روى أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: كان النبى ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» قال أنس: فقلنا يا رسول الله: آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها».

وروى الإمام أحمد بسنده عن عائشة -رضى الله عنها- قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»، قالت: فقلت يا رسول الله: إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء، فقال: «إن قلب الآدمى بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإن شاء أزاغه، وإن شاء أقامه».

وروى النسائى بسنده من حديث حيوة بن شريح المصري عن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك».

- «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة...»، والمعنى: اتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم وحدهم، وإنما تعم فتصيب الصالح والطالح معا.

والفتنة لها أكثر من تعريف:

- قال ابن عباس -رضى الله عنهما-: الفتنة المنكر، نهى الله الناس أن يقروه بين أظهرهم فيعمهم العذاب.

- وقال ابن مسعود -رضى الله عنه-: الفتنة هى: فتنة الأموال والأولاد.

- وقال حذيفة -رضى الله عنه-: هى فتنة الرجل فى جاره وماله وأهله، يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقال الحسن البصرى: هى البلاء الذى يُبتلى به المرء.

• وأما أن الفتنة تعم، فالدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**(١٠٥)﴾ [**المائدة**: ١٠٥]، والمعنى: أن الناس إذا رأوا الظالم، فلم

يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعذاب من عنده، هكذا فسرها الصديق أبو بكر -رضى الله عنه.

- ودليل آخر على عموم الفتنة هو: سؤال أم المؤمنين أم سلمة -رضى الله عنها- للنبى ﷺ قائلة: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

- ودليل ثالث على عموم الفتنة هو قول عمر -رضى الله عنه-: إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عملوا المنكر جهارا استحقوا العقوبة كلهم.

- «واعلموا أن الله شديد العقاب» فى هذا الجزء من الآية حثّ على الاستقامة على صراط الله ومنهجه، وفيه تهديد للمخالفين الذين يثيرون الفتنة أو يسكتون عن مقاومتها.

- «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون»، فى هذه الآية الكريمة يذكر الله المؤمنين بما كانوا عليه من: ضعف، وقلة عدد، وخوف، يوم كانوا بمكة فى بداية الإسلام، إذ كانوا على الحال التى سجلها التاريخ وروتها كتب السيرة النبوية، فقد كانوا ضعافا يستبد بهم المشركون أيما استبداد، فيعذبونهم ويعتدون عليهم، ويضطهدون العبيد منهم والموالى، حتى لقد حاصروهم وحبسوهم فى شِعب بنى هاشم، بل قاطعوهم بوثيقة مكتوبة علقوها فى جوف الكعبة، وأساء إليهم الحصار حتى أكلوا ورق الشجر، ونابذوهم فلا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، وأصلوْهم من الظلم ما لا قبل لغير مؤمن بتحمله، وما صرفهم كل ذلك عن التشبث بالحق والتمسك بالإيمان.

ولقد بلغ من عنت المشركين بالمؤمنين أن هاجر بعض المؤمنين إلى الحبشة مرتين فرارا من العذاب.

- كان هذا حال المؤمنين فأنعم الله عليهم بنعم عديدة:

- أواهم: أى أوجد لهم مأمنا يلجأون إليه وهو المدينة المنورة،

- وأيدهم بنصره: أى شرع لهم الجهاد ولم يكن مشروعا فى مكة، ونصرهم على أعدائهم الذين كانوا يعذبونهم بالأمس - فى معركة بدر الكبرى، أو أيدهم بالأنصار -رضى الله عنهم- وبزيادة عددهم،

- ورزقهم من الطيبات: فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، ووسع فى أرزاقهم، وأحل لهم الغنائم، ولم تكن قد حلّت لغيرهم ممن سبقوهم من أتباع الأنبياء عليهم السلام.

● أحاطهم الله تعالى بكل هذه النعم لعلهم يشتغلون بالشكر والطاعة، وهذه حقيقة ناصعة في تاريخ المسلمين، حيث أصبحت تلك الحقيقة حجة على المسلمين فى كل زمان ومكان، وهى: أنهم إذا تمسكوا بدينهم والتزموا بمنهجه ونظامه، تحولوا بفضل الله من: ضعف إلى قوة، ومن قلة وذلة إلى كثرة وعزة، ومن فقر وحاجة إلى غنى ورزق طيب، وإلى تأييد ونصر على كل عدو.

● هذه الحقيقة ينكرها أعداء الإسلام، ويظاهرهم على إنكارها بعض الغافلين من المسلمين، حتى لقد زعم كثير منهم أن التمسك بالإسلام والالتزام به، رجعية تؤدى إلى الضعف، وغرهم فى ذلك ما يفترون!!

إنها سنة الله فى المؤمنين: يقويهم ويعزهم ويرزقهم من الطيبات؛ إن هم تمسكوا بدينه ومنهجه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

- «يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم».

● قال علماء أسباب النزول: إن الآية نزلت فى أبى لبابة الأنصارى -وكان حليفا لبنى قريظة- عندما أرسله رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة وقد نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ قد خرج إليهم بعد نقضهم العهد وحاصرهم طويلا فعرضوا عليه أن يفك عنهم الحصار، وينزلوا من حصنهم ويقبلوا حكم سعد بن معاذ -رضى الله عنه- فيهم وكان سعد من حلفائهم من قبل أن يغدروا برسول الله ﷺ وينقضوا عهده، فأشار إليهم أبو لبابة ألا يفعلوا وأشار إلى حلقه -بما يعنى أن سعدا سيحكم بذبحهم، فنزلت الآية.

قال أبو لبابة -رضى الله عنه- مازالت قدماى حتى علمتُ أنى خنت الله ورسوله.

● وقال الكلبى: فقال رسول الله ﷺ لامرأة أبى لبابة: أيصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة؟

فقالت: إنه ليصوم ويصلى ويغتسل من الجنابة ويحب الله ورسوله.

● وقد شد أبو لبابة نفسه على سارية من المسجد وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على، فمكث كذلك حتى خر مغشيا عليه، ثم تاب الله عليه.

فقيل له: قد تيب عليك.

فقال: والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى، فجاء رسول الله ﷺ فحله بيده.

- ومعنى ذلك أن هذه الآية الكريمة نزلت بعد غزوة الأحزاب التى خان فيها اليهود ونقضوا عهودهم، ولكنها وضعت فى هذا الموضع من سورة الأنفال.

- ومن المتفق عليه بين العلماء -وقد قررناه كثيرا فيما كتبنا- «أن العبرة فى دلالات القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، فالآية الكريمة تنهى عن كل خيانة لله والرسول.

ففيم يخون المؤمن الله ورسوله؟

- قد تكون الخيانة فى الإيمان كأن يشرك بالله، أى يلبس إيمانه بظلم أو ينكر الملائكة أو الكتب التى أنزلها الله تعالى، أو يكذب الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أو ينكر اليوم الآخر أو القضاء والقدر.

- وقد تكون الخيانة لله تعالى فى إيثار منهج على منهجه أو نظام للحياة غير النظام الذى أقره الله تعالى.

- وخيانة الرسول ﷺ تكون بإنكار ما جاء به من عند الله تعالى أو اعتقاد أن غيره أحسن منه أو يغنى عنه.

- وقد تكون بأن يعتقد أحد المؤمنين أو المسلمين أن ما جاء به محمد ﷺ كان ملائما لزمانه وللمكان الذى بعث فيه؛ لأن الحق أن ما جاء به صالح لكل زمان ومكان.

- وقد تكون خيانة الرسول ﷺ بادعاء أن ما جاء به من أخبار الغيب ليس محلا للتصديق أو من الظلاميات والأوهام! أو أن الأخذ به رجعية وجمود وعجز عن مواكبة المتغيرات فى هذه الحياة الدنيا.

وخيانة الله تعالى ورسوله ﷺ بتعطيل الفرائض وتعدى الحدود وانتهاك المحارم، واتباع الهوى والشهوات.

- «وتخونوا أماناتكم» أى لا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشئون السياسية وغيرها.

ومن الأمانة: المجالس وما يدور فيها، فقد روى أبو داود بسنده عن جابر -رضى الله عنه-

عن رسول الله ﷺ قال: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق».

● والخيانة عموما من الكبائر، وهى من صفات المنافقين، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» ورواه مسلم بسنده عن أبى هريرة أيضا وزاد: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

● وقد تكون الخيانة المذكورة فى الآية الكريمة هى خيانة الغنائم.

● وقد تكون الأمانة فى هذه الآية الكريمة هى كل ما تعبد الله تعالى به عباده، فيدخل فى ذلك الغنائم وغيرها.

وقد ورد فى الأحاديث النبوية إطلاق الأمانة على الطاعة والعبادة، والوديعة، والثقة، والأمان، وغير ذلك من كل ما يجب حفظه، قال الله تعالى: ﴿ **فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ** (٢٨٣) ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** (٥٨) ﴾ [النساء: ٥٨].

- «وأنتم تعلمون» أى وأنتم تعلمون أن ذلك خيانة، أو: وأنتم تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن، ومفاسد الخيانة فى الدنيا والآخرة، فلا عذر لكم بالجهل.

● وكلمة «وأنتم تعلمون» توضح أن من وقع فى الخيانة وهو لا يعلم أن ما قام به خيانة فلا إثم عليه ولا حرج أمام الله، فقد يكون أخطأ أو نسى، وذلك داخل فى رفع الحرج الذى تضمنه الحديث النبوى الشريف: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

- «واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة، وأن الله عنده أجر عظيم».

● والفتنة هى: الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله عند الأمر به، أو بما يشق على النفس تركه عند النهى عنه.

● وتكون الفتنة فى الاعتقاد، أو الأعمال، أو فى الأقوال أو فى السكوت عن قول كلمة الحق، أو فى التخلى عن أداء واجب.

● ويمتحن الله تعالى بالفتنة المؤمنين والكافرين، والمخلصين والمنافقين، ليبلو كلا منهم، ثم يحاسبهم ويجازيهم على ما عملوا أو تركوا، وعلى ما قالوا أو سكتوا عن قوله.

● ومن الفتن:

أ – فتنة الأموال؛ إذ الأموال عليها مدار المعاش، وبها يحقق الإنسان رغائبه، وبها تدفع المكاره والأخطار، وبها يكتسب الإنسان الصديق والولى أو يجتنب العدو.

● ومن أجل ذلك يحاول الإنسان كسب الأموال أو الحصول عليها؛ لأنها من أهم أسباب الحياة، مهما كلفه الحصول عليها من متاعب ومشاق، ومهما ركب فى سبيلها الصعاب، فإن أعجزته الحيل فى الحصول عليها سرقها أو اغتصبها.

● والدين ومنهجه يحتم على الإنسان أن يحصل على الأموال من حلال مما شرع الله وأباح، وأن ينفقها فى وجوهها التى حددها الشرع وبين أصناف المستحقين لها.

● وطالبت الشريعة بالقصد فى إنفاق الأموال ولو كان الإنفاق على النفس أو الأهل أو أصحاب الحقوق، واعتُبر الإسراف فيها حراما كما حرم التقتير فى إنفاقها؛ لأن الإسلام فى جوهره دين الاعتدال فى كل شىء حتى فى الطاعة لله ورسوله.

● ولذلك كانت الفتنة فى الأموال بأن يخالف فيها الإنسان ما أمره به الشرع أو نهاه عنه، وعندئذ يرضى الإنسان ربه أو يغضبه.

ب – وفتنة الأولاد؛ إذ الأولاد –كالأموال– زينة الحياة الدنيا، ولا يعرف مكانة الأولاد فى القلب والعقل والحياة الاجتماعية إلا من حرم منهم فلم يرزق بهم، أو فقدهم بعد أن رزق بهم.

والأولاد –كما قال المعصوم ﷺ، فيما رواه أبو يعلى بسنده عن أبى سعيد الخدرى –رضى الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة»[1].

● والفتنة فى الولد، قد تكون بأن يقترف الوالد من أجل ولده إثما أو يقوم من أجله بعمل لا يحله الله بدعوى تأمين معاشهم أو تأمين مستقبلهم، فيحصل لهم على مال لا يحل له.

● وقد تكون الفتنة فى الأولاد بامتناع والدهم عن أداء واجب الجهاد جبنا وقعودا عن التضحية بالنفس أو بالمال أو بالجهد أو بالوقت، فالولد مجبنة، أى يؤدى حبهم إلى الجبن، والجبن رذيلة نهى عنها الإسلام.

● وقد تكون الفتنة بهم بالامتناع عن إنفاق المال فى وجوهه ومصارفه التى أمر الله تعالى بها، فيكون الولد مبخلة، والبخل رذيلة نهى عنها الإسلام.

---

(١) متن هذا الحديث صحيح، وإن كان بعض علماء السنة تحدثوا فى سنده.

● وقد تكون الفتنة بالأولاد بأن يجزع الوالد، ويفقد الصبر عند فقده ولده، فيخرج بهذا الجزع عن خلق الإسلام وقيمه التى دعا إلى التمسك بها.

● وواجب المؤمن أن يتقى الفتنة فى الأموال والأولاد، بالتزام الشريعة فيما أمرت به، وفيما نهت عنه، فلا يكسب مالا إلا من حلال ولا ينفقه إلا فى حلال، وأن يقى نفسه وأهله كل حرام حتى يتقى بذلك النار التى وقودها الناس والحجارة، وقد أمر القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ... (٦)﴾** [التحريم: ٦].

● وهذه الآية الكريمة: «واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة...» تحذير عن بعض ما وقع فيه عدد من المسلمين فى غزوة أحد، إذ قعد بعضهم ورجع المنافقون؛ حرصا منهم على أموالهم وأولادهم، فحذرتهم هذه الآية من هذا العمل وأمثاله.

– «وأن الله عنده أجر عظيم» أى أن الله تعالى يدخر الأجر العظيم للمؤمن الذى لم يفتنه ماله ولا ولده عن أداء ما أوجب الله عليه، أو الامتناع عما نهاه الله عنه، وهذه الغزوة كغيرها من الغزوات فى سبيل الله تستوجب التضحية بالجهد والوقت والمال والنفس، والقعود عن ذلك قد يكون بسبب الفتنة فى الأموال والأولاد، فمن اتقى ذلك فإن له عند الله أجراً عظيماً.

– «يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم».

● والمعنى: إن تتقوا الله فى كل ما يجب أن يُتَّقى من خلال شرعه ومنهجه، وسنته فى خلقه، يجعل لكم ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل، وتميزون بها بين الخير والشر والنافع والضار. وهذا هو الفرقان بين هذا وذاك؛ أى البصيرة.

● ويحتمل أن يكون هو النصر الذى منحه الله تعالى للمؤمنين فانتصروا على الكافرين فى بدر فكان ذلك فرقانا بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر.

● ويحتمل أن يكون الفرقان هو النور والهدى والتوفيق الذى لا يصل إليه صاحبه إلا بتقوى الله تعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: **﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ (٣٥)﴾** [النور: ٣٥]، ومن قوله تعالى: **﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾** [النور: ٤٠].

● ويحتمل أن يكون الفرقان هو الحكمة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا (٢٦٩)** ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

● والتقوى: الوقاية، أو الخوف، أو تجنب ما يغضب الله تعالى، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتقوه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)** ﴾ [البقرة: ١٩٤][(١)]. كما أمر سبحانه باتقاء النار واتقاء اليوم الآخر واتقاء الفتن واتقاء الفشل والخذلان، واتقاء ظلم النساء، في آيات عديدة من القرآن الكريم.

● وقد حبب الله تعالى التقوى إلى المؤمنين وجعل إرث الأرض للمتقين، فقال تعالى: ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)** ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

● وبين سبحانه أن أعظم الأجر وأدومه يوم القيامة إنما هو للمتقين، فقد قال تعالى: ﴿ **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)** ﴾ [يوسف: ٥٧]، ومن المعروف أن أجر الآخرة دائم لا ينقطع.

● وأوضح الله تعالى أن التقوى هي خير زاد يتزود به الإنسان في حياته؛ ليواجه بها كل ما يثقل أو يشكل في حياته، فقال جل شأنه: ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ... (١٩٧)** ﴾ [البقرة: ١٩٧].

● والخلاصة أن من اتقى الله جعل له فرقانا أي علما أو نورا أو حكمة يهتدي بها في معاشه ومعاده، وتلك أولى ثمرات تقوى الله.

● والثمرة الثانية لتقوى الله هي أن الله تعالى يكفر عنه سيئاته، ومن كُفِّرت عنه سيئاته فقد نجا من عذاب النار، وتكفير الله تعالى السيئات يعني سترها وتغطيتها حتى تصير كأن لم تكن، أي يمحوها عنكم ويمحو العقوبة عليها.

● والثمرة الثالثة والأخيرة للتقوى -في هذه الآية الكريمة- هي أنه سبحانه وتعالى يغفر ذنب

---

(١) وقد تردد هذا الأمر في الآيات: ١٩٦، ٢٠٣، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٧٨، ٢٨٢ من سورة البقرة، وتردد في سور القرآن الكريم بصيغة الأمر أكثر من تسعين مرة.

من اتقاه، والمغفرة من الله تعالى هى أن يصون المؤمن من أن يمسه العذاب، والعذاب جزاء ارتكاب الذنب.

– «والله ذو الفضل العظيم» والفضل العطية التى لا تلزم المعطى، وإنما يتفضل بها، فيقال لهذه العطية فضل، والله تعالى ذو الفضل العظيم أى الكبير الذى لا يقادر قدره؛ لأنه عطية الكريم سبحانه وتعالى.

● ومن عظم فضله سبحانه وتعالى أن جعل جزاء التقوى كل هذا العطاء من فرقان وتكفير للسيئات ومغفرة للذنوب.

● وقد جاء هذا فى صيغة أسلوب الشرط التى يترتب جزاؤه أو جوابه، على تحقيق فعله، وفعل الشرط فى الآية الكريمة هو: «تتقوا»، وجوابه: «يجعل لكم فرقانا . . .» الآية.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة كثيرا من القيم التربوية التى تجعلهم يحيون حياة إنسانية كريمة، مليئة بما ينفع الناس فى دنياهم وأخراهم، خالية من القلق والاضطراب ودواعى الفتن وأسبابها، ترفرف عليها الثقة فى الله وفى تأييده ونصره، منهيا فيها عن الخيانة بكل أنواعها، يباعد فيها بين الإنسان وبين أن يفتتن بنعم الله التى أنعم بها عليه من مال وولد، قيم تدعو إلى تقوى الله المؤدية إلى الهدى ومغفرة الذنوب مما سنوضحه فيما يلى، والله الموفق.

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون** ﴾ ما يلى:

أ – أن الإيمان ليس مجرد اعتقاد خال من العمل والإيجابية، بل لابد فيه من العمل، والعمل فى هذه الآية: استجابة للرسول ﷺ فى كل ما دعا إليه مما أوحاه إليه ربه سبحانه وتعالى، الاستجابة التى يترجم عنها التنفيذ والتطبيق لكل ما جاء به الرسول ﷺ.

ب – وأن ما يدعو إليه الرسول ﷺ من شىء فيما يتصل بأمور الدين أو الدنيا هو حياة كريمة للمسلمين، بل هو الحياة الإنسانية الكريمة فى كل مجال من مجالاتها

العديدة.

- فهو الذى يحيى الإنسان فى عقيدته فتخلو به من الشوائب والضلالات، وتعرف به صفاء الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

- ويحيى به حياة الفكر الصحيح الخالى من الأوهام والذهاب، الحالى بالحق والخير والهدى والنور المبين الذى يبدد كل ظلام يحيط بالعقل الإنسانى.

- ويحيى به الحياة الاجتماعية الراقية التى تقوم على التكافل والتعاون على البر والتقوى -لا على الإثم والعدوان- وعلى المرحمة ورعاية الأرملة واليتيم والضعيف والعاجز عن العمل والإنتاج. الحياة الاجتماعية التى تعتمد على الأسرة فى زواج شرعى طاهر من دنس الزنا والمخالّة والفوضى الجنسية التى توشك أن تعم العالم، بعد أن صدرها إليه الغرب وغلفتها الصهيونية بغلالات مزوقة فى أجهزة الإعلام المقتحمة على الناس بيوتهم، حتى لقد أصبحت عند كثير من الناس حقا يسمى «الحرية الشخصية»!!

- ويحييه حياة سياسية تكفل له كل حقوقه الإنسانية فى الفكر والعمل والانتقال والمعارضة السياسية، والتعبير عن الرأى، وحرية الدين والعقيدة، وسائر الحريات التى تحمى إنسانية الإنسان. إن ما جاء به محمد ﷺ هو الذى يضمن هذه الحياة السياسية الراشدة الآمنة التى هى حق للإنسان وليست منحة من الحاكم، هى حق للإنسان فى كل مكان، وليست حقا للإنسان الغربى وحده، هى حق للإنسان مهما كان دينه وليست تُسلب ممن يدين بالإسلام فيحال بينه وبين التعبير عن دينه حتى فى بعض بلاء المسلمين!

ومهما طنطن الغرب بحرصه على حقوق الإنسان، فحسبه عارا وشنارا أنه يحرم المسلم من حقوقه السياسية بالتآمر مع بعض الحكومات فى بلاد المسلمين؛ ليحول بين المسلمين وبين أن يشكلوا حكومة فإن شكلوها على الرغم من ذلك التضييق حوربوا وشُوهوا وجوعوا وحوصروا، وقيل لهم: هذه حكومة دينية مرفوضة، وحزب إسلامى غير مسموح به، دون حياء أو خجل من واقع يعيشونه فى بلادهم وهو مليء بالأحزاب المسيحية واليهودية والهندوسية والبوذية وغيرها!!

- وما جاء به محمد ﷺ يحيى المسلم حياة اقتصادية سليمة من الاحتكار والاستغلال والربا، وفرض سلعة ومحاربة أخرى، وتسويق يحيط به الإكراه، وديون تتفاقم ربوياتها حتى تعجز بعض الدول عن سداد الفوائد؛ فضلا عن جزء من الدين نفسه!!

حياة اقتصادية خالية من فكرة تقسيم العالم إلى دول غنية وأخرى فقيرة إلى الأبد، وما تمر الأيام إلا ويزداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا، وتعود الإنسانية إلى عهود الإقطاع وعبيد الأرض!!

إن ما جاء به محمد ﷺ يخلى الحياة الاقتصادية من كل هذه العيوب وينادى بحرية العمل وحرية التسويق وألا يكون المال حكرا على الأغنياء وحدهم، ويفرض الزكاة ويندب إلى الصدقة ويحارب الربا والاستغلال والاحتكار.

- كل هذا قد طولب المسلمون بأن يستجيبوا فيه إلى ما يدعوهم إليه خاتم النبيين محمد ﷺ مما يحييهم هذه الحياة الإنسانية الكريمة.

ب – وعلى المسلمين أن يوقنوا بأن الله تعالى –كرما منه وحباً للإنسان– يحول بين الإنسان وبين أن تستغرقه شهواته فيضيع ويخسر دنياه وآخرته، يحول بينه وبين هذا بما سنه من تشريعات ونظم تحكم هذه الرغائب والشهوات، وتسعى بها فى قنواتها الشرعية التى تمكنها من التعبير عن نفسها فى إطار هذه الشرعية المكرمة للإنسان.

جـ – وأن المرجع والمآب إلى الله تعالى يحاسب كلا على ما استجاب لما دعاه إليه الرسول ﷺ أو امتنع عن هذه الاستجابة.

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ ما يلى:

أ – أن واجب المسلمين أن يتقوا كل سبب وكل شيء وكل قول وكل عمل قد يؤدى إلى الفتنة؛ إذ الفتنة شر كلها، وتخريب لكل ما هو صالح فى حياة الإنسان، وهى ضرر على من أثارها وعلى غيره من الناس، لذلك كان اتقاؤها واجبا شرعيا ألزمت به آيات القرآن الكريم.

ب – وأن الذين يثيرون الفتن ظالمون –كما وصفهم الله تعالى– ظالمون لأنفسهم أولا لأنهم ورطوها فى المعصية، وظالمون لغيرهم بعد ذلك، وأنهم أول من يصلى نار الفتنة، ولن يكونوا فى ذلك وحدهم، بل من شأن أضرار الفتنة أن تعم من أثاروها ومن سكتوا عليهم حتى أثاروها.

جـ – وأن الله تعالى شديد العقاب لمن أثار الفتنة ولمن لم يقاوم إثارتها ولم يأخذ على أيدى مثيريها. إن من أروع ما جاء فى السنة عن مسئولية كل أحد عن أخطاء

المخطئ ما رواه البخاري بسنده عن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا».

وما رواه أحمد بسنده عن عدى بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة».

د - وأن الخوض فى الخلافات المذهبية -كما حدث فى فترات من تاريخ المسلمين- يشق وحدتهم ويفرق كلمتهم، ويثير الفتن، ويضعف الأمة ويطمع فيها أعداءها المتربصين بها.

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون**﴾ ما يلى:

أ - أن نعم الله كثيرة على المسلمين، وفى مقدمتها: نعمة الإسلام الذى انتشلهم من القلة والضعف والخوف إلى الكثرة والقوة والأمن، وحمل إليهم البشارات بالعز والنصر والتمكين؛ ما داموا أهلا لما يعدهم الله تعالى به، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)**﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)**﴾ [**محمد**: ٧]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)**﴾ [**غافر**: ٥١]. كما امتن الله على المؤمنين بنصرهم يوم بدر ويوم حنين فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ... (١٢٣)**﴾ [**آل عمران**: ١٢٣]. وفى قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ . وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)**﴾

[**التوبة**: ٢٥، ٢٦].

ب – ومن مظاهر نصر الله تعالى للمؤمنين فى هذه الآية الكريمة ما يلى :

● حفظه لهم فى مكة على الرغم مما كانوا يلقونه من المشركين من عنت وتعذيب،

● وإيواؤهم فى المدينة المنورة وجعلها دار هجرة لهم،

● وتأييدهم بإخوانهم الأنصار الذين ضربوا فى ذلك أروع الأمثال،

● وانتصارهم على عدوهم فى معركة بدر،

● ورزقهم من الطيبات بأن وسع أرزاقهم وأحل لهم الغنائم.

هذه النعم قد ابتلاهم الله تعالى بها لكى يشكروه فيزيدهم، كما وعد بذلك سبحانه وتعالى فى قوله الكريم : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** (٧) ﴾ [**إبراهيم** : ٧].

٤ – ويتعلمون من قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ ما يلى :

أ – أن الخيانة عموما قد حرمها الإسلام ونهى عنها واعتبرها من الكبائر وهى أنواع فى الآية الكريمة.

● خيانة الله تعالى بعبادة غيره، أو ترك عبادته، أو عبادته مع غيره، إذ كل ذلك شرك به سبحانه وتعالى، وقد تكون خيانة الله تعالى بتعطيل فرائضه وهجر منهجه ونظامه.

● وخيانة الرسول ﷺ بتكذيبه أو ترك ما جاء به كله أو بعضه، أو ترك بيانه لكتاب الله تعالى.

● وخيانة الأمانة فيما بينكم، وهى بين الحاكم والمحكوم أمانة السمع والطاعة للمحكوم، وأمانة الرعاية والمسئولية للحاكم، وهى بين كل مسئول ومن يتولى المسئولية عنه، ثم هى الأمانات التى بين المسلمين ومنها المجالس والأموال والودائع ونحوها.

ب – وأن المؤمن لا يخون بحالٍ إلا إذا كان يجهل أن ما يقوم به خيانة، وما يجهل المؤمن ذلك إلا فى أحوال نادرة؛ لأن عليه أن يسأل أهل الذكر عن كل ما لا يعلم، وهو سؤال واجب، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٧) ﴾ [**الأنبياء** : ٧].

وقديما قال أسلافنا من العلماء: «لا جهل بدار الإسلام» أى لا عذر بالجهل ودار الإسلام فيها العلماء الذين يتوجه إليهم الناس بالسؤال.

جـ – وأن المجتمع المسلم لا تقوم له قائمة مع الخيانة بأى نوع من أنواعها الثلاثة التى ذكرتها الآية الكريمة: خيانة الله، وخيانة الرسول، وخيانة الأمانة. فكل مجتمع مسلم فى أى عصر من العصور، وفى أى بقعة من الأرض لابد أن يرتكز على الأمانة بأنواعها الثلاثة، فهى التى تضمن له استقراره واستمراره، وانتشار العدل والإحسان فيه، وذيوع التعاون بين أفراده على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

٥ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾ ما يلى:

أ – أن المتبادر إلى الأذهان عند الناس أن الأموال والأولاد نعمة وذلك صحيح، ولكن الآية الكريمة تعلم المسلمين أن الأموال والأولاد قد تكون فتنة تصرف الناس عن الحق وعن الواجب، وعن كثير مما أمر الله تعالى، وعندئذ تكون فتنة، ولذلك جاء فى الآية: «واعلموا...» أى اعلموا هذه الحقيقة التى قد يغفل عنها كثير من الناس، واحذروا أن تفتنكم أموالكم وأولادكم عما أمركم الله به أو ندبكم إليه.

ب – وأن من فتنة المال أن يكسبه الإنسان من غير وجهه؛ أى من حرام، وأن من فتنة الأولاد أن يشغلوا آباءهم عن أداء واجب، أو أن يحرص على إعطائهم ما لا يستحقون، أو أن يجعلوا آباءهم جبناء أو بخلاء أو جزعين عند فقدهم بالموت أو بغيره.

جـ – وأن من لم يفتتن بأمواله وأولاده، فأدى فى المال حق الله وحق الناس واكتسبه من حلال، ولم تصرفه العناية بأبنائه عن الواجب ولم تصبه بالجبن أو البخل أو الجزع والحزن، من كان كذلك فإن الله تعالى يعوضه وينعم عليه بالأجر العظيم.

- وأن من لم ينعم عليه الله بالأموال ولا بالأولاد، فقد يكون ذلك فى صالحه فى الدنيا والآخرة، ومع ذلك فإن الله تعالى يدخر له فى الآخرة أجرا عظيما.

٦ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم** ﴾ ما يلى:

أ - أن تقوى الله مفتاح كل خير فى الدنيا والآخرة، وأن هذه التقوى شرط أو سبب فى حصول المؤمن على الخير فى الدنيا والآخرة، وهذه التقوى لله مطلب شرعى فى حد ذاته طالبت به آيات القرآن الكريم فى أكثر من موضع، بل هى مطلب لأهل كل دين سبق، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١)** ﴾ [النساء: ١٣١].

وطالبت الآيات الكريمة المؤمنين بتقوى الله فى أكثر من ستين موضعا فى القرآن الكريم.

- بل اعتبر القرآن ترك تقوى الله كفرا به، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)** ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١)** ﴾ [النساء: ١٣١].

ب - وأن لتقوى الله ثمرات ثلاثة - كما دلت على ذلك تلك الآية الكريمة، وهذه الثمرات هى:

- إعطاء المتقى لله فرقانا ونورا وهدى يشق فى ضوئه طريقه فى الحياة، فلا يضل ولا يذل ولا يظلم ولا يظلم،
- وتكفير سيئاته بأن يعتبرها الله تعالى كأن لم تكن،
- ومغفرة الله تعالى لذنوب المتقى مهما كانت باستثناء الشرك بالله.

جـ - وأن هذه الثمرات لا ينالها أحد إلا أن يكون متقيا لله تعالى، فقد جاءت فى الآية فى صيغة الشرط والجزاء أو السبب والمسبب «إن تتقوا... يجعل...».

د - وأن على المسلمين أن يوقنوا أن الله تعالى ذو فضل عظيم على الناس إن هم اتقوه، وأن من اتقى الله، علمه الله وكان معه وجعل له فرقانا وكفر عنه سيئاته وغفر له ذنوبه.

٧ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن الله تعالى نادى على المؤمنين ثلاث مرات فى هذه المجموعة من الآيات الستة:

- نادى عليهم بأن يستجيبوا لله، وللرسول؛ لأنه يدعوهم إلى ما يحييهم فى الدنيا أكرم

حياة إنسانية، وإلى ما يحييهم فى الآخرة أطيب حياة أبدية.

● ونادى عليهم بألا يخونوا الله والرسول والأمانات؛ لأن ذلك إن حدث فقد المجتمع أمنه واستقراره، وضاعت الأمانة فيضيع الناس جميعا.

● ونادى عليهم بأن يتقوا الله حتى يجعل لهم فرقانا فى الحياة الدنيا ويكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية، من أجل التمكين لدين الله فى الأرض، من هذه الآيات الست الكريمة، ما يشبه أن يكون دستورا للعمل من أجل الإسلام، وما لابد منه ولا غنى عنه من القيم التى تنفعهم فى الدنيا والآخرة، وتزودهم بمعرفة الأهداف والسياسات والوسائل فى مجالى الدعوة والحركة والتربية والتنظيم.

● وإن من الأُنس والراحة للدعاة أن يجدوا فى خطاب المؤمنين والنداء عليهم لمطالبتهم بكذا أو نهيهم عن كذا، أن يجدوا فى ذلك خطابا لهم ولمن يدعونهم ويتحركون فيهم ويربونهم من الناس، فكأن الخطاب موجه إليهم، وكأن النداء يملأ قلوبهم وأسماعهم، وفى هذا من الأنس والرضى ما فيه، وما أحوج الدعاة إلى الله إلى هذا الأنس والرضا بما يخاطبهم به الله تعالى.

● وفى تفصيل هذا الدستور لبعض جوانب الدعوة والحركة، نقول سائلين الله تعالى التوفيق والسداد:

١ - يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم كما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنكم إليه تحشرون**﴾ ما يلى:

أ - أنّ ما يدعو إليه الرسول ﷺ وورثته من الدعاة هو الحياة الحقة للناس، وهو ما يحيى الناس من الموات الذى تعيشه قلوبهم غافلة عن الله، وتعيشه عقولهم ذاهلة عن الحق ضالة عن الصراط المستقيم، وتعيشه نظمهم الاجتماعية بعيدة عن منهج الله ونظامه.

- إن مضمون الدعوة إلى الله هو ما يحيي الناس؛ إن هم أخذوا به وتمسكوا بقيمه وأخلاقه، يحييهم الحياة الإنسانية الكريمة التى أرادها الله لهم، وأنه لاحياة كريمة للإنسان إلا إن أخذ بما جاء الرسول ﷺ .

- وإن الدعاة إلى الله عليهم أن يسألوا أنفسهم دائمًا - وهم يمارسون أعمال الدعوة أو الحركة أو التربية أو التنظيم - : هل يتضمن ما يدعون إليه حياة كريمة للناس نابعة من منهج الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ؟

- وإن الدعوة إلى الله بكل مفرداتها، والحركة بكل أبعادها، والتربية بكل أهدافها ووسائلها وسياستها، كل ذلك أصله ومصدره ومرجعه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهم لا يدعون إلى عرقية أو قومية أو إقليمية إلا أن تكون إسلامية.

ب - وعليهم أن يوقنوا بأن منهج الله - الذى يحيى الناس من مواتهم وضياعهم - يتضمن الأسس الركينة لحياة الإنسان حياة كريمة لائقة بتكريم الله له وتفضيله إياه على كثير من خلقه، وتلك الأسس هى :

- العقيدة الصحيحة فى الله تعالى، وفى ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، خيره وشره،

- والعقيدة الصحيحة فى الإنسان ومكانته فى الحياة وتكريم الله تعالى له ، والعقيدة الصحيحة فى الشياطين وقوى الشر من الإنس والجن،

- والعبادة الصحيحة لله تعالى وحده على وفق ما شرع من توحيد وصلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وعدل وإحسان وإقامة لحدود الله وتطبيق لشريعته، ومن التزم بكل ما جاء به محمد ﷺ،

- والمعاملة التى تجرى بين المسلمين وتأخذ شكل عقود أو قيم خلقية وتحكم كل تعاملاتهم فى الزواج والطلاق ونظام الأسرة والميراث والوصية والتجارة والزراعة والصناعة وسائر أنواع التعامل،

- والمعاملة التى تجرى بين المسلمين وحكامهم وولاة أمورهم وآبائهم ومعلميهم وأقاربهم وجيرانهم وأصدقائهم،

- والمعاملة التى تجرى بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى أو غير أهل الأديان، وتخضع لقيم خلقية جاء بها الإسلام، سواء أكان ذلك فى زمن السلم

والأمن أم فى زمن الحرب والعدوان.

جـ - وأن على الدعاة والحركيين والتربويين أن يكون كل عملهم وقولهم، وحركتهم ومناهج تربيتهم للناس، عليهم أن يكون كل ذلك نابعًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. لأن ذلك هو الذى يجمع عليهم الناس، ويباعد بينهم وبين الخلافات والمذهبيات، وهو الذى يحيى الناس حياة كريمة؛ لأن الرسول ﷺ دعا إلى ما يحيى الناس أكرم حياة فى الدنيا والآخرة.

- وعلى كل عامل من أجل الإسلام أن يطرح على نفسه وهو يمارس العمل هذا السؤال ثم يجيب عليه:

هل هذا الذى أدعو إليه فيه حياة للناس ونفع لهم فى دينهم ودنياهم؟ وهل هو مما جاء به محمد ﷺ؟

- فإن كانت الإجابة: نعم.. حمد الله ومضى فى طريقه؛ سائلا الله تعالى العون والتوفيق.

- وإن كانت الإجاب: لا .. عدّل فيما يدعو إليه وغير، حتى يوافق ما جاء به الرسول ﷺ، ذلك الذى يحيى الناس وينفعهم فى دينهم ودنياهم.

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله وإخوانهم من قوله تعالى: ﴿**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون**﴾ ما يلى:

أ - أنّ من شأن الإنسان أن يحركه قلبه - الذى يقال: إنه سمى قلبًا لكثرة تقلبه - يحركه إلى الشهوات والهوى، وأن من رحمة الله بالناس أنه يحول بينهم وبين رغبات تلك القلوب؛ وبخاصة إذا كانت من الرغبات غير المنضبطة.

يحول الله تعالى بين المرء وشهوات قلبه بتوفيقه إلى الانصراف عنها، وبما وضع لها من نظم وضوابط تعبر من خلالها عن نفسها وحاجتها.

- والدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية بشر، قد تحركهم قلوبهم إلى بعض الشهوات في مجال العمل الإسلامي، كالحرص على المنصب والجاه بين إخوانهم، وكالرغبة فى التسيد والتسلط وحب إصدار الأوامر، وتقليد ما يسود فى المجتمع من عادات وتقاليد ألفها الناس والمسئولون، حتى ظنوها حلالا وهى حرام.

• وما أكثر هذه الرغبات فى قلوب بعض الدعاة الذين يحاولون أن يمزجوا بين مصلحة الدعوة مصالحهم الشخصية، ويخيل إليهم أنهم فى ذلك على صواب.

ب - إن على الدعاة أن يذكروا أنفسهم أولاً، ويذكروا من يدعونهم إلى أن الأصل أن تحارب الشهوات والرغبات التى يزينها القلب وهى غير مشروعة.

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة، ونسأل الله العفو والعافية فى الدين والدنيا:

- حب الظهور والرغبة فى الاستعلاء على الناس، هَوَىً،
- وترك الشورى وإهمال الرأى الآخر، من الهوى كذلك،
- وترك التضحية بالجهد والوقت والمال لصالح الدعوة، هوىً،
- والإغراق فى المدح، وكل أنواع الذمّ، هوىً،
- والحديث عن النفس حتى ولو كان حقًا وصدقًا، هوىً،
- والمبالغة فى المظهر أو تعمد إهماله زهداً، من الهوى كذلك،
- وربط المدعو بشخص الداعى أو بأى زعامة شخصية، هوىً لأن الأصل أن يربط المدعو بالعقيدة والمبدأ أى بالعنصر، الثابت الباقى، لا بالشخص المتغير الفانى.
- والتحزب والتعصب، والإقليمية والعرقية، هوىً،
- وتقريب أحد المدعوين دون سواه، هوىً،
- وإهمال البيت والأولاد بزعم الانشغال بالدعوة هوىً، إذ الأصل التوفيق بين هذا وذاك،
- والتواكل وترك الانشراح للعمل وصدق النية فيه، هوىً،
- وإضمار الشىء أو تعمد الإهمال لأحد المعاندين، هوىً.

• كل ذلك من الهوى - وهو فى مجال العمل من أجل الإسلام قليل من كثير- ينبغى أن يتنبه إليه الدعاة وأن يحذروه، وأن يُحذِّروا غيرهم منه، وأن يحمدوا الله على أنه يحول بينهم وبينه ويشكروه على ذلك بالمزيد من العمل ومن العطاء والتضحية.

جـ - وأن على الدعاة أن يذكروا أنفسهم ويذكروا الناس بأن الحشر والمرجع والحساب والعقاب والثواب، إلى الله تعالى، يوم لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً.

● وما دام المرجع إلى الله، فإن الراشد من قدَّم فى الدنيا من العمل الصالح والإخلاص الصادق ما ينفع بين يدى الله تعالى.

٣ – ويتعلم الدعاة وإخوانهم من قوله تعالى: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ ما يلى:

أ – أنّ عليهم أن يفكروا مليًا، ويتدبروا طويلاً، فى كل كلمة يقولونها أو يسكتون عنها، وفى كل عمل يقومون به أو يمتنعون عن القيام به، خشية أن يكون ذلك مؤديًا إلى فتنة أو مثيراً لدواعيها؛ لأن الفتنة يجب أن تُتَقَّى وتتجنب أسبابها فى كل حال وفى كل حين.

ب – وأنواع الفتن التى يتعرض لها الدعاة إلى الله والعاملون من أجل الإسلام كثيرة جداً، نضرب لها بعض الأمثال:

– فقد تكون على مستوى الفرد: يفتن فى نفسه أو ولده أو ماله أو منصبه أو أهله أو عمله أو دعوته،

– وقد تكون على مستوى الجماعة، ومن يشاركونه العمل من أجل الإسلام، فيحال بينهم وبين الدعوة، وتسن لحربهم القوانين الظالمة، وتشن عليهم حملات الإعلام الكاذبة المضللة، أو لقلون فى السجون والمعتقلات، أو تصادر أموالهم وأملاكهم أو ينفوا من الأرض،

– وقد تكون على مستوى العمل نفسه، أنواعه ومراحله وأهدافه وسياساته ووسائله، فيحال بين الدعاة وبينه، ويجرّم العمل من أجل الإسلام، وتشوه صورة العاملين،

– وقد تكون الفتنة على مستوى الوطن الذى يعيش فيه الدعاة، أو على مستوى العالم العربى الذى يتحدث لغة القرآن، أو على مستوى العالم الإسلامى كله،

– وقد تكون على مستوى أعداء الإسلام من صهيونيين وصليبيين ونظام عالمى جديد تقوده الولايات المتحدة الأمريكية وتسانده دول الغرب، وفلول الشيوعية فى الشرق.

● كل تلك فتن منظورة لمن يتابع الأحداث والأيام والحكام والأنظمة المعادية للإسلام والمسلمين، أو غير منظورة ممن ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ [**الأنفال**: ٦٠]، فهؤلاء غير منظورين لا نعلمهم ولكن الله يعلمهم.

جـ - هذه الفتن الكثيرة المحدقة بالمسلمين من كل جانب النابعة منهم أو من غيرهم، يجب أن يتجنبوها ويتجنبوا إثارة أسبابها؛ لأن خطرها قد لا يتوقف على من أثارها، وإنما يتجاوزه إلى غيره من الناس.

● وفي تجنب الفتن والأخذ بأسباب مقاومتها، لا يجدى رأى الرجل الواحد مهما كان على علم ومعرفة ومن أهل السابقة، وإنما الأصل أن تُتبادل في ذلك الآراء وتؤخذ الشورى لتستقر الأمور على تكييف الفتنة وعلى أسلوب تجنبها أو التغلب عليها؛ لأن ذلك هو الأصل في الإسلام.

٤ - ويتعلم الدعاة وإخوانهم من قوله تعالى: ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** ﴾ ما يلي:

أ - أنَّ من سنة الله تعالى في الدعاة إليه أن يرعاهم ويؤيدهم فيبدل حالهم من قلة إلى كثرة، ومن ضعف إلى قوة، ومن خوف إلى أمن وطمأنينة، وينصرهم ويرزقهم من الطيبات، كما تدل على ذلك هذه الآية الكريمة، والآية الأخرى التي يقول فيها: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ...** ﴾ [**النور**: ٥٥].

ب - وأن الدعاة إلى الله مهما يكن بهم من قلة أو ضعف أو خوف فإنهم سوف تجرى عليهم سنة الله في المؤمنين، فيبدلهم مكان القلة كثرة في العَدَد والعُدَد، في الكم والكيف، ويبدلهم مكان الضعف قوة؛ قوة معنوية في الروح والشعور تعقب جرأة وجسارة واستهانة بالموت في سبيل الله، ومكان الخوف، من العدو أمنًا وطمأنينة يعقب جرأة على العدو وإقدامًا وشجاعة.

● كل ذلك يبدله الله تعالى للمؤمنين ما داموا ملتزمين بمنهج الله تعالى، حريصين على أن يكونوا أهلاً للنصر والتأييد .

● ولقد فعل الله ذلك بالمؤمنين الأوائل فى مكة، وفى المدينة إذ أحاطت بهم الأحزاب- وفى حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا، وفعله بهم فى فتح مكة وسائر الفتوح التى منَّ الله بها على المسلمين.

جـ - إن الدعاة إلى الله يجب أن يبلغ بهم ذلك درجة اليقين، وعليهم أن يتناسوا كل محنة وكل كبوة وكل تضييق، وكل تحدّ لهم ولما يدعون إليه، مهما بلغت هذه العداوات، ومهما كان الأعداء أقوياء يملكون من العَدد والعُدة؛ لأنها سنة الله فى المؤمنين وفى الدعاة إلى الله والأنبياء والمرسلين: أن ينصرهم على عدوهم ولن تجد لسنة الله تبديلا .

● وهؤلاء الذين يتصورون - عندما يعتسفون فى التعامل مع الإسلام والمسلمين- أنهم يعطلون سنة الله تعالى عن أن تأخذ مجراها وتبلغ غايتها، إنهم فى ذلك التصور واهمون ضالون، لا يمكن أن يعطلوا سنة الله ولا يردوا قضاءه وقدره، ولتبلغ قوتهم ما تبلغ وليملكوا من الأسباب ما يستطيعون، فإنهم لن يخرجوا ولم يخرجوا أحداً من دائرة ما قضى الله وقدر، وما سَنَّ للصراع بين الحق والباطل من سنن، والله تبارك وتعالى يخاطب هؤلاء، ويخاطب معهم كل مستبد ظالم واهم أنه سوف يعطل السنن بقوله تعالى: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)** ﴾ [**الرحمن**: ٣٣، ٣٤] .

● وليس وراء ذلك اطمئنان إلى نفاذ سنة الله فى الصراع بين المؤمنين والكافرين، تلك السنة التى قررها قوله تعالى: ﴿ **.... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)** ﴾ [**الروم**: ٤٧] ، فلتمتلئ قلوب الدعاة إلى الله يقيناً بهذه الحقيقة التى قررها كتاب الله .

٥ - ويتعلم الدعاة وإخوانهم من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ ما يلى:

أ - أن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانة من أكبر الكبائر وأعظم الآثام؛ لأن أداء الأمانة أمرٌ من الله واجب النفاذ، ومن خان الأمانة فقد خان الله ورسوله .

● والأمانة هى كل ما يؤتمن عليه الإنسان من معنويات أو ماديات، وكلها يجب المحافظة عليها وأداؤها على وجهها الصحيح.

ب - وأن أنواع الأمانة - كما يفهم ذلك من الآية الكريمة، وكما هو مقرر فى الإسلام - ثلاثة:

● **أمانة الإنسان مع نفسه:**

وهى أن يكون أمينًا فى الوفاء بعهده مع الله: أن يعبده لا يشرك به شيئًا، وأن يستجيب لما يدعوه إليه الرسول ﷺ فيختار لنفسه ما يصلح له دينه ودنياه.

ومن أمانته مع نفسه أن يكون مخلصًا صادقًا متبعًا للحق داعيًا إليه؛ لأن تلك هى وظيفة الإنسان.

● **وأمانة الإنسان مع ربه:**

وهى الوفاء بما عهد الله تعالى إليه بحفظه، أى الامتثال لأمر الله تعالى ونهيه، والعمل على التقرب إليه بأداء الفرائض والنوافل وصالح الأعمال، وسائر الطاعات، فضلاً عن عبادته وحده، ورفض بل جحد من يكفره.

● **وأمانة الإنسان مع الناس:**

وهى حفظ ما أمر الله به، وحفظ الودائع والأسرار وحفظ المجالس، وترك الغش والنفاق.

والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، قال الرازى: ويدخل فى هذا النوع من الأمانة: عدل الأمراء مع رعيتهم، وعدل العلماء مع العوام؛ بألا يحملوهم على التعصبات الباطلة، بل يرشدونهم إلى الاعتقادات الصحيحة، والأعمال النافعة فى دنياهم وأخراهم.

جـ - وأن يوقن الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن الأمانة فى أعمال الدعوة والحركة والتربية والتنظيم تقتضى أن يتم العمل فى تلك المجالات وفق ما هو معروف من فقة الدعوة وفقة الحركة وفقه التربية وفقه التنظيم، وكل ذلك معروف ومقرر بين العاملين من أجل الإسلام[1].

---

(١) للتعرف على هذا الفقه فى مجالاته العديدة انظر للمؤلف:

فقه الدعوة إلى الله، وفقه الدعوة الفردية، والمرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله، ومنهج التربية عند الإخوان المسلمين. وكلها من نشر دار الوفاء بمصر، وانظر: فقه الأخوة فى الإسلام، وفقه المسئولية. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة.

● وكل تقصير أو إهمال فى شيء من هذه الأشياء خيانة لأمانة العمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض ومنهجه فى الناس.

٦ – ويتعلم الدعاة إلى الله وإخوانهم من قوله تعالى: ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة، وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾ ما يلى:

أن من الفتنة التى يفتتن بها الناس عموماً، والدعاة على وجه الخصوص، ما ينالهم من أذىً فى الأموال والأولاد والأوطان، فما يجوز لأحد منهم أن يصرفه ذلك الأذى أو تلك الفتن عن الحق يتواصى به ويدعو إليه ويتمسك به ويضحى فى سبيله.

● وقد يُفتن الدعاة فى أنفسهم وفى أعمالهم، وفيمن يدعونهم، وفى صبرهم على المدعوين، وفى وصولهم إلى لنتائج وأخذهم بالأسباب، وفى رؤيتهم من يتَحَدَّوْن الله ورسوله وهم فى أمان وعافية، مما قد يُسَرِّب إلى أنفسهم بعض الفتور.

● وما ينبغى لتلك الفتن أن تصرفهم عن العمل والانشراح لأدائه بل الاستمتاع بهذا الأداء، وأن يربوا المدعويين على هذه المعانى.

● وكذلك الشأن فى الأولاد:

قد يحسن الإنسان تربيتهم ويجيد وصلهم بالله تعالى، ويعودهم التضحية والطاعة لله ولرسوله، فينال بذلك عند الله مكانة وأجراً، وقد لا يفعل ذلك فيؤثر أبناءه على دعوته وعمله من أجل الإسلام وعندئذ يكون الأولاد فتنة لصرفهم إياه عما وجب عليه.

● إن الدعاة عليهم أن ينتبهوا لذلك ويحذّروا منه أنفسهم أولا، والناس بعد ذلك.

ب – وعلى الدعاة إلى الله أن يدركوا أن الأموال والأولاد يجب أن يوظّفا فيما يرضى الله تبارك وتعالى فى مجالات الإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الله، والعمل فى ذلك الموكب الرابح الساعى فى طريق التمكين لدين الله فى الأرض.

● إن من يحرص على ذلك يكون أهلاً لرضا الله تعالى ومستحقًا لأجره وثوابه سبحانه وتعالى، ومن لا يفعل فقد خسر دنياه بخوضه فى الباطل والضلال، وخسر الآخرة بعصيان الله تعالى فيما أمر به، وفيما نهى عنه.

جـ – وأن الأموال والأولاد يجب أن يوضعا مع الدعوة فى مجال التوازن ودقة التنسيق، فلا تفتن الأموال والأولاد عن الدعوة ولا تفتن الدعوة عن الأموال والأولاد.

● وذلك التوازن والتنسيق اختيار غير يسير يشق على كثير من النفوس.

● ومن الملحوظ أن هذا التوازن مفقود. وفى كثير من الأحيان، فإن بعض الدعاة يفضلون الدعوة على أبنائهم وبيوتهم، وبعضهم يؤثرون الأبناء والبيوت على الدعوة، وكل هؤلاء مخطئون يخالفون فقه الأولويات فى العمل من أجل الإسلام، والأصل هو تلك الموازنة والتنسيق بين متطلبات كل.

٧ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم** ﴾ ما يلى:

أ - أن تقوى الله هى مفتاح كل خير دنيوى أو أخروى، وأن من كان تقيًا جعل الله له فرقانًا فى كل أمره، فهداه إلى الخير فى قوله وصمته وعمله وتركه، وهيأ له من أمره رشدا وجعل له مع كل عسر يسرا ومن كل ضيق فرجًا ومخرجًا.

● والدعاة إلى الله أعرف الناس بذلك وأكثرهم إيمانًا به، ولهم فى كل يوم على ذلك أكثر من دليل وبرهان، إذ هم يمارسون عمل الدعوة والحركة والتربية، وهو عمل حافل متشعب يجد الساعى فيه من نور الله وتوفيقه وهدايته الشيء الكثير.

ب - وأن هذه التقوى لله تشمل كل ما يتصل بالإنسان من حواس وجوارح، فالتقوى فيها هى حسن استخدامها فيما فطرها الله عليه، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

● تقوى الله فى استخدام العين، بحيث لا يرى بها إلا ما أحلَّ رؤيته، والعين باب القلب، وفى الحديث النبوى الشريف ما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

● وتقوى الله فى استخدام الأذن بأن يسمع بها ما أحلَّ الله الاستماع إلى، فمن المعروف أن كثيرا من الأصوات يلقى فى القلب ما يشغله أو يلهيه عن الله وعن الحق، ويثير فيه الغرائز والشهوات، فيتحرك إلى الحرام.

● وقد نهى الله تعالى عن الاستماع إلى الذين يكفرون بآيات الله أو يستهزئون بها، وجعل الاستماع إليهم والقعود معهم بمثابة الكفر والاستهزاء بآيات الله، قال الله تعالى: ﴿ **وَقَدْ**

نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء: ١٤٠].

- ولقد أثنى سبحانه وتعالى على عباده الذين يحسنون الاستماع إلى ما هو حسن ومفيد، بل بشرهم بكل خير، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)** ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].
- وتقوى الله فى استخدام اللسان هى ألا يتكلم إلا بما أوجب الله أو أباح له الكلام فيه، وقد قال أسلافنا من العلماء: إن فى اللسان أكثر من عشرين آفة تورط الإنسان، وفيه خصلة واحدة حميدة هى الصدق الذى يستطيع المؤمن أن ينفى به عن نفسه كل آفات اللسان الذميمة.
- واللسان الصادق من النعم الكبرى، فقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه بدعوات منها أن يجعل له لسان صدق، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ....** ﴾ [الشعراء: ٨٣، ٨٤].
- وقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله: أى المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده».
- ورويا بسنديهما عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يضمن لى ما بين لحييه – أى لسانه – وما بين رجليه – أى فرجه – أضمن له الجنة».
- وتقوى الله فى اليد هو استخدامها فى الحق وفى الدفاع عن الحق ورفض استخدامها فى البطش والظلم، وفى اليد معاصٍ كثيرة منها الغصب والسرقة والعدوان وإلحاق الأذى بإنسان أو حيوان أو نبات أو أى شيء، وحجابها الكفُ عن كل ما يجوز.
- وتقوى الله فى استخدام الرجل هى المشى بها فيما أوجب الله أو أحلّ، وكفها عن المشى فى كل ما يغضب الله مما حرمه أو كرَّه فيه.
- تلك هى الجوارح التى يسألنا الله تبارك وتعالى عن كل ما مارسته من عمل، ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦)** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

- وأهم هذه الجوارح القلب، وتقوى الله فى استخدامه هى شحنه دائمًا بخشية الله والخوف منه، ويجب الله والإقبال عليه بالتدبر والتأمل، وتفريقه من الآفات والمعاصى وبخاصة الكبر والغِل والحسد وسائر أنواع الشر.

جـ - وأن تقوى الله تؤدى إلى الخروج من كل مأزق، وتعلم الإنسان كيف يفصل بين الحق والباطل، وذلك هو الفرقان الذى يجعله الله تعالى لمن اتقاه، وهذا الفرقان يخص الله به عباده المؤمنين وهو أنواع منها:

- الهداية والعلم والمعرفة،
- والانشراح والسعادة والرضى،
- والإقبال على الله بالطاعات، ونبذ المعاصى والشرور،
- وتنقية القلب من آفاته، وتنقية العقل من الضلال والوهب والخرافة، وتنقية الجوارح من كل ما يغضب الله،
- والنصر والعزة والتأييد والفتح،
- والتوفيق إلى العمل الصالح الذى يجلب رضا الله تعالى وثواب الدنيا والآخرة.

- كل ذلك داخل فى الفرقان الذى يجعله الله تعالى لمن اتقاه.

د - وأن على الدعاة إلى الله أن يستبشروا بأن تقوى الله تكفر السيئات أى تسترها وتجعلها كأن لم تكن؛ كرمًا من الله وتفضلاً على عباده المتقين.

- والدعاة إلى الله فى مجالات عملهم فى الدعوة والحركة والتربية والتنظيم أكثر تعرضًا للخطأ، وارتكاب الصغائر، فإن كان فى انتظارهم مع تقوى الله تكفير السيئات، فما أسعدهم بذلك وما أرضاهم به!!

- ومع تكفير السيئات يمنُّ الله على عباده المتقين بالمغفرة، والمغفرة من الله هى أن يصون العبدَ من أن يمسه العذاب، وما أحوج الناس عمومًا والدعاة خصوصًا إلى هذه المغفرة التى تزيل عنهم أثر السيئات أو تزيلها نفسها!!!

هـ - كل تلك المعانى مما ينبغى للدعاة أن يعوه، وأن يوعوا الناس به، وأن يجعلوا عملهم فى الدعوة والحركة والتربية والتنظيم خاضعًا له.

٧ - الآيات من الآية الثلاثين إلى الآية الخامسة والثلاثين:

تذكير النبى ﷺ بما كان عليه حاله مع أهل مكة الذين كذبوه وتحدوه، وإخبار من الله بأنه لن يعذب أهل مكة ما دام الرسول فيهم، على الرغم من كفرهم وعنادهم

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) ﴾ [الأنفال: ٣٠ - ٣٥].

- تتحدث هذه الآيات الكريمة عن محاولة الكفار القضاء على الرسول ﷺ قبيل هجرته إلى المدينة المنورة، وتصف أحوالهم وأعمالهم وحماقتهم وخيبتهم فى مكرهم، وزعمهم أن القرآن الكريم أساطير، ودعواهم القدرة على الإتيان بمثله، ويحكى سفاهتهم فى طلبهم العذاب إن كان القرآن حقًا، وإمهال الله لهم فى تعذيبهم مادام الرسول ﷺ مقيمًا فيهم، أو ما داموا يتوبون عن عنادهم وتكذيبهم، ويستغفرون الله تعالى، مع أنهم يستحقون العذاب لصدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام. وكان الأصل فيهم أن يكونوا أولياء هذا المسجد؛ لأنهم فى جوا وفى حرمه وحماه، ولكن كفرهم أفقدهم هذه الولاية؛ لأن أولياءه هم المتقون. أما المشركون فما كان منهم إلا السر والسوء، فقد كانوا يطوفون بالبيت عراة يصفقون ويصفرون، ليشوشوا على النبى ﷺ والمسلمين صلاتهم وقراءتهم استهزاء بهم وسخرية منهم.
- وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد كبير من الأخبار التى جاء بعضها مؤكدًا وبعضها عاريًا عن التأكيد؛ لأنه حقائق مقررة ثابتة، كما اشتملت الآيات على تهديدات

لهم، وعلى أكثر من شرط وجزائه، كما أوضحت كثيراً من صفات المشركين، مما سوف نوضحه فيما يلى والله المستعان.

- ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبوك أو يخرجوك أو يقتلوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾

- قصة مكر المشركين أهل مكة برسول الله ﷺ قبيل الهجرة معروفة، مسرودة مبسوطة فى كتب السيرة النبوية كلها وفى كتب السنة، وموثقة المتن والسند.

- وسوف نذكر هذه القصة نقلاً عن واحد من هذه الكتب وهو: «الدر المنثور» لجلال الدين السيوطى[1] قال: «إن نفراً من قريش، ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، واعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال شيخ من أهل نجد، سمعت بما اجتمعتم له فأردتُ أن أحضركم، ولن يعدمكم منى رأى ونصح.

قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم فقال: انظروا فى شأن هذا الرجل، فوالله ليوشكن أن يُوَاثبكم فى أمركم بأمر.

فقال قائل: احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك، كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والنابغة، فإنما هو كأحدهم.

فقال عدو الله الشيخ النجدى: لا والله ما هذا برأى، والله ليخرجنه ربه من محبسه لأصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوا من بلادكم، فانظروا غير هذا الرأى.

فقال قائل: فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره فى غيركم.

فقال الشيخ النجدى: ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه، وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، لتجتمعن إليه ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، ويقتل أشرافكم.

قالوا: صدق، والله، فانظروا رأياً غير هذا.

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى ٩١١هـ، له عديد من المؤلفات من أشهرها: الإتقان فى علوم القرآن، والمزهر فى علوم اللغة وعشرات غيرها.

فقال: أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأى لا رأى غيره...

قالوا: وما هذا؟

قال: نأخذ من كل قبيلة غلامًا وسطًا شابًا نهداً، ثم يُعْطَى كل غلام منهم سيفًا صارمًا،ثم يضربونه به ضربة رجل واحد، فإذا قتلتموه تفرق دمه فى القبائل كلها، فلا أظن بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم، وأنهم إذا أرادوا ذلك قبلوا العقل (أى الدِّيَة) واسترحنا وقطعنا عنا أذاه.

فقال الشيخ النجدى: هذا والله هو الرأى، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره.

وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له.

فأتى جبريلُ عليه السلام النبىّ ﷺ، فأمره ألا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم.

فلم يبت رسول الله ﷺ فى بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك فى الخروج، وأمرهم بالهجرة، وافترض عليهم القتال، فأنزل الله: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)** ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

فكانت هاتان الآيتان أول ما نزل فى الحرب، وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ..... ﴾ الآية.

﴿ **ليثبتوك** ﴾ ليقيدوك أو يحبسوك.

● وأنزل الله فى قولهم: تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك مَنْ كان قبله من الشعراء: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة للذى اجتمع عليه من الرأى.

● وقال محمد بن إسحق: « ... فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ علىَّ بن أبى طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببُرْدٍ له أخضر، ففعل، ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج

معه بحفنة من تراب فجعل يذرُّها على رءوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ، وهو يقرأ: ﴿ **يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢)** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)** ﴾ [يس: ١ - ٩].

فلما أصبحوا ثاروا إليه، فما رأوا عليًّا - رضى الله عنه - ردّ الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدرى، فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا فى الجبل، فمروا بالغار، .. فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه.

فمكث رسول الله ﷺ فى الغار ثلاث ليال»

● وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير - رضى الله عنهم - فى قوله: ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ أى فمكرت بهم بكيدى المتين حتى خلصتك منهم.

- ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾.

● المعنى: أنه إذا تليت على المشركين آيات القرآن الكريم المنزَّل على رسوله الخاتم ﷺ، الذى يعجز عن الإتيان بمثله الإنس والجن - لما أودع الله فى القرآن الكريم من: علم وحكمة وتشريع وقصص، ووعد ووعيد، ولما للقرآن الكريم من تأثير فى نفوس الناس عمومًا مؤمنهم وكافرهم -.

إذا تليت عليهم آيات هذا القرآن قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

● والقائل هو النضر بن الحارث، وقد صدقوه فيما زعم - وهو كاذب يعلم أنه كاذب.

وللنضر بن الحارث قصة فى تحدى الرسول ﷺ، إذْ كان عدواً عنيداً من المقتسمين - الذين اقتسموا فيما بينهم شعاب مكة يصدون عن رسول الله ﷺ كل راغب فيه أو فى الاستماع إليه - وكان من المقتسمين: الوليد بن المغيرة كذلك. وكان النضر يختلف إلى أرض فارس فيسمع أخبارهم عن: رستم، واسفنديار، وكبار العجم، كما كان يمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل، فكأنه - لعنه الله - يرى أن أخبار القرآن الكريم وقصصه عن الرسل وأقوامهم قد اشتبهت عليه بقصص أولئك الأمم، فزعم أنه يستطيع أن يأتى بمثله، ولعله كان أول من قال ذلك فقلده فيه سواه من الناس.

● ولقد كان المشركون يرون أن القرآن الكريم أساطير من أساطير الأولين فقالوا: «إن هذا إلا أساطير الأولين» وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** (٥) ﴾ [الفرقان: ٥] .

وقد ردَّ الله تعالى على زعمه هذا بقوله بعد تلك الآية: ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً** (٦) ﴾ [الفرقان: ٦] .

● وفي النضر بن الحارث نزل قوله تعالى – كما يقول المفسرون: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** (٦) **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** (٧) ﴾

[لقمان: ٦، ٧] .

● وكان النضر قد اشترى قينة جميلة كانت تغني للناس بأخبار الأمم وقصصها، لتصرف الناس عنك سماع القرآن الكريم.

– ﴿ **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ .

روى البخارى أن هذا القائل هو أبو جهل، قال الحافظ بن حجر فى شرحه للبخارى: الظاهر أنه أبو جهل، وإن كان هذا القول نُسِبَ إلى جماعةٍ فلعل أبا جهل بدأ به، ورضى الباقون بما، فنسب إليهم.

وروى الطبرانى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنّ قائل ذلك هو النضر بن الحارث، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿ **سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ** (١) ﴾ [المعارج: ١] . ولا ينافى ذلك ما فى البخارى؛ لاحتمال أن يكون كل منهما قد قاله، لكن نسبته إلى أبى جهل قد اشتهرت.

وعن قتادة قال: قال ذلك سفهة الأمة وجهلتها.

ورُوى أن النضر بن الحارث – لعنه الله – لما قال: ﴿ **إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾، قال النبى ﷺ: «ويلك إنه كلام الله» فقال هو وأبو جهل: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم».

وإسناد القول إلى الجمع سائغ، لأنه إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم.

● وهذا الكلام منهم دليل على عنادهم وكفرهم وكبريائهم وعتوهم، بل هو دليل على أنهم جهلة وسفهاء.

روى أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة!!

فقال الرجل لمعاوية: أجهل من قومى قومك حين قالوا: ﴿**اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء...**﴾ ولم يقولوا فاهدنا إليه.

● وحكى أن ابن عباس رضى الله عنهما لقيه رجل من اليهود، فقال: اليهودى: ممَّن أنت؟ قال ابن عباس: من قريش، فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿**إن كان هذا هو الحق من عندك...**﴾ الآية، فهلاً عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه؟! إن هؤلاء قوم يجهلون.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: وأنت يا إسرائيلى من القوم الذين لم تجفَّ أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق الله فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه، حتى قالوا: ﴿**اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة**﴾ فقال لهم موسى: ﴿**إنكم قوم تجهلون**﴾.

- ﴿**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم**﴾.

المعنى أنه ليس من سنن الله تعالى ولا من مقتضى حكمته ورحمته أن يعذبهم وأنت يا محمد فيهم، وهو قد أرسلك رحمة للعالمين، بل لم يكن من سننه أن يعذب أمثالهم من مكذبى الرسل، والرسل فيهم، بل كان يخرجهم منهم أولاً.

وقد نسب هذا المعنى إلى ابن عباس رضى الله عنهما.

- ﴿**وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**﴾.

قال الحافظ بن حجر فى شرحه لصحيح البخارى: روى ابن جرير من طريق زيد بن رومان أنهم قالوا ذلك أى: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» فلما أمسوا ندموا فقالوا: غفرانك اللهم، فأنزل الله: ﴿**وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**﴾.

● وروى ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن معنى قوله تعالى: ﴿**وهم يستغفرون**﴾ أى من سبق له من الله أن يؤمن.

● وقيل: المقصود من كان بين أظهرهم حينئذ من المؤمنين، حيث كان بمكة من المسلمين من الذين لم يهاجروا، فقد كانوا يستغفرون، فلما خرج هؤلاء المسلمون من مكة أنزل الله:
﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام....** ﴾ الآية.

وأذن الله فى فتح مكة، فهو العذاب الذى توعدهم الله تعالى به.

● وروى الترمذى بسنده عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله علىّ أمانين لأمتى: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة».

● وروى أحمد والحاكم بسنديهما عن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم، فقال الرب: وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى».

– ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياؤه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾.

العذاب المقصود هو عذاب الاستئصال فى رأى كثير من العلماء.

● والمعنى الذى يفهم من هذه الآية الكريمة هو: ماذا ثبت لهم مما يمنع تعذيبهم بما هو دون عذاب الاستئصال، عند زوال المانعيْن منه بعد، والحال أنهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام، ولو للنسك.

● قيل: المراد به صدهم النبى ﷺ وأصحابه عام الحديبية سنة ستٍّ، والآية نزلت عقب غزوة بدر سنة اثنتين، والمنع كان واقعاً منذ الهجرة، فما كان المسلم يستطيع أن يدخل المسجد الحرام، فإن دخل عذبوه إذا لم يكن له من يجيره بمكة.

● والصدّ عن المسجد الحرام أخذ أشكالاً عديدة منها:

– منع المسلمين من دخول مكة منعاً مطلقًا كما فعلوا يوم الحديبية،

– ومنع المسلمين من أداء العبادات فى المسجد الحرام، مثل ما منعوا أبا بكر رضى الله عنه حتى أقام مسجداً فى بيته كان يقرأ فيه القرآن فمنعوه كذلك،

– وإيذاؤهم من طاف أو صلى من المسلمين،

– ووضعهم فرث جزور على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد.

● كل هذا الصد جعلهم أهلاً لأن يعذبهم الله، بل جعل عدم تعذيبهم هو موضع الدهشة والتعجب.

● وليس لهؤلاء المشركين أن يكونوا أولياء المسجد الحرام حتى يصدوا عنه من شاءوا كما كانوا يقولون: نصد من نشاء وندخل من نشاء، فنفى الله تعالى عنهم هذه الولاية، وأثبتها للمتقين فى قوله تعالى: ﴿**إن أولياؤه إلا المتقون**﴾ والمتقون هم الذين اتقوا الشرك واتقوا الفساد واتقوا صدَّ الناس عن المسجد الحرام.

- ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ أى لا يعلمون أنهم لا حق لهم فى الولاية على هذا البيت، وبخاصة بعد أن أرسل الله خاتم أنبيائه محمداً ﷺ، وآمن به أولياء الله المخلصون الموحدون.

● وجهلهم بهذه الحقيقة قد أسند إلى أكثرهم ولم يسند إلى جميعهم؛ لأنه قد كان فيهم من يعلم بسوء حالهم وضلالهم، وأن الله لا يرضى عنهم بسبب شركهم، وكان فيهم من يكتم إيمانه خوفًا من الفتنة.

- ﴿**وما كان صلاتهم عن البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾.

● روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر - وهو المكاء - وتصفق - وهو التصدية.

- وروى عنه أن النساء والرجال منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون.

- والمعنى أن صلاتهم وطوافهم كان من قبيل اللهو واللعب ، سواء عارضوا بذلك رسول الله ﷺ فى طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته أم لم يعارضوه.

- فقال الله تعالى: ﴿**فذقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾.

● والعذاب فى هذه الآية - كما فسّره العلماء - هو ما حدث لهم فى معركة بدر من قتل وأسر وهزيمة.

● وفى الآية إشارة إلى قولهم: ﴿**ائتنا بعذاب أليم**﴾ أى ذوقوا العذاب الذى طلبتموه وما كان لكم أن تستعجلوه.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة كثيراً من القيم التى تربيهم وتعلمهم كيف يمارسون الحياة على أكرم صورها وأليقها بالإنسان، وذلك من خلال الحديث عن الكفار والمشركين وما يكيدون به للإسلام والمسلمين، ودعواهم أن ما جاء به محمد ﷺ أساطير وزعمهم القدرة على الإتيان بمثله، وسفاهتهم فى طلبهم العذاب إن كان ما جاء به الرسول ﷺ حقًا وإمهال الله تعالى لهم...

مما سنوضحه فيما يلى والله المستعان:

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾ ما يلى:

أ – أن الإنسان محاط بنعم الله التى لا تحصى، وأنه يجب أن يتذكر هذه النعم، فيشكر الله عليها بالمزيد من العمل الصالح والتعاون مع غيره على البر والتقوى، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وإذ يمكر بك...**﴾ أى اذكر ذلك وكيف نجاك الله منهم واشكر ربك على ذلك.

ب – وأن المشركين والكفار وأعداء الإسلام من كل نوع يدبرون دائمًا لكى يوقعوا بالمسلمين أذاهم بالحبس أو بالقتل أو بالطرد من البلاد، وأن لهم فى ذلك مكرًا وحيلاً، وأنهم حين يعجزهم المكر ويخيب يلجؤون إلى البطش والتنكيل.

جـ – وأن الله تعالى لا يتخلى عن المؤمنين وإنما يمكر لهم أى يخيب مكر أعدائهم، ويحمى المؤمنين منهم ومن مكرهم وبطشهم، ﴿**والله خير الماكرين**﴾، وتلك سنة من سنن الله فى الدفاع عن الذين آمنوا فى الدنيا، وإكرام مثواهم فى الآخرة.

د – وأن ما كان يدبره مشركو مكة لمحمد ﷺ، يدبر مثله أو أشد منه أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان، وأنهم فى هذا العصر الذى نعيشه يمعنون فى أذى المسلمين وتحدى الإسلام نظامًا ومنهجًا ودينًا ومعتقداً، وأن الله تعالى سوف يدافع عن المؤمنين ويحميهم من هؤلاء الأعداء المتجبرين الذين سيطروا على البلاد والعباد، وأقاموا ما عرف بالنظام العالمى الجديد الذى يتحالف فيه عالم الصليبيين واليهود

ومن مالأهم من غافلي المسلمين على الإسلام ودعاته والمتمسكين به.

٢ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾ ما يلي:

أ - أن بعض المعاندين من أعداء الإسلام عندما يستمعون إلى القرآن الكريم حجة الله البالغة على ابن آدم، يقولون مستهزئين: لو نشاء لقلنا مثل هذا؛ استخفافاً بمحتوى القرآن وبيانه، وهم أعجز عن ذلك بكثير، فقد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله فعجزوا عن ذلك عجزاً واضحاً سجله عليهم تاريخهم.

وبعض المحدثين من المعاندين يزعمون هذا أو قريباً منه عندما يقولون: «إن النص القرآني يجب مراجعته»!!! وأن القرآن الكريم كتاب محلي أو إقليمي أو هو من تأليف محمد ﷺ؛ إذ هو أساطير من أساطير الأولين!

ب - وأن تلك الدعاوى والمزاعم ما ينبغي أن تزعزع شيئاً من يقين المؤمنين بأن القرآن الكريم كتاب الله المعجز في لفظه ومعناه وتنظيمه ومنهجه وهداه، وأن التمسك به هو النجاة من كل شر والسبب في كل خير، وأن القول به صدق، والحكم به عدل، وأنه هو الصراط المستقيم.

جـ - وأن تلك الدعاوى والمزاعم لن تنال من الحق شيئاً، ولن تضر القرآن الكريم في شيء، ولكن بكل تأكيد تضر قائليها ومصدقيها أو الساكتين عن ردها ورفضها.

● وأن النضر بن الحارث وإن عاش في الجاهلية حتى قتل في أعقاب معركة بدر، إلا أن أمثاله يعيشون في كل عصر، وأنهم ينتظرهم مصيره، ولو بعد حين!!!

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾ ما يلي:

أ - أن المشركين في كل عصر ومصر تعميهم عداوتهم للحق عن معرفة ما ينفعهم أو يضرهم، حتى لقد يصل بهم الأمر إلى أن يلغوا عقولهم فيختاروا ما يضرهم، قائلين في غفله وغباء: ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾. وكان مقتضى العقل والفطرة الإنسانية السوية أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

● على المسلمين أن يتأملوا ذلك ويتعلموا منه كيف يعرفون الناس، ويعرفون الأعداء، وما يقولون.

ب – وأن تعطيل العقل، حقداً ونفوراً من الحق يجلب لصاحبه كل شر ويلحقه بغير العقلاء من مخلوقات الله تعالى، وفى هذا مزيد من الإحساس بنعمة العقل الذى يهدى صاحبه إلى الحق ولا يحول بينه وبين ما ينفعه فى دنياه وآخرته.

جـ – وأن الذى يلغى عقله حقداً وكراهية للحق يؤذى نفسه حين تختلط عليه الحقائق وتغيم فى عينيه الرؤى، فيطلب من الله تعالى ما يضره ولا ينفعه. ومعنى ذلك أن تكذيب الحق والاستمرار فى العناد له، يورط صاحبه ويورده موارد الهلاك فى الدنيا، فضلاً عن الإثم والعقاب فى الآخرة.

● وإذا كان الله تعالى قد أنعم على الإنسان بالعقل لكى يهتدى به إلى ما يصلح دينه ودنياه، فإن من الخلل ومن الفجور ومن كفران نعم الله أن يُلغَى هذا العقل فلا يهتدى إلى الحق وإلى الهدى.

٤ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**﴾ ما يلى:

أ – أن وجود الرسول ﷺ بين الناس رحمة بهم، وحائل بينهم وبين أن يقع عليهم عذاب من الله، فالرسول ﷺ رحمة مهداة ورحمة للعالمين، وما أشد خسارة من عانده أو عصاه أو خرج عن هديه وسنته، حتى أولئك الذين تحدوه وحاولوا الإضرار به أو قتله لم يعجل الله عقوبتهم؛ لأن الرسول ﷺ فيهم.

ب – وأن من دواعى تأجيل عذاب الله أو عقابه الدنيوى أن يستغفره المذنبون، أو يتوب إليه العصاة الآثمون، أو يؤمن به الكافرون، وتلك رحمة من الله بعبادة وإمهال ما ينبغى أن يغر العقلاء، ولا أن يجعلهم يستمرون فى العناد والتكذيب والمعاصى.

جـ – وأن الاستغفار باب من أبواب رحمة الله وتسامحه مع عباده، وهو فى حد ذاته مطلب شرعى دعت إليه آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ ..... **فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ** (٦) ﴾ [فصلت: ٦]، وقال جل شأنه: ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٢٠) ﴾ [المزمل: ٢٠].

● وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يحكيه عن ربه عز وجل، قال: «قال الله تعالى: أذنب عبدى ذنبًا فقال: اللهم فاغفر لى ذنبى، فقال الله تعالى: أذنب عبدى ذنبًا فعلم أن له ربًا يغفر الذَّنْبَ ويأخذ به، ثم عاد فأذنب فقال: أى رب اغفر لى ذنبى، فقال الله تعالى: عبدى أذنب فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به، ثم عاد فأذنب فقال: أى رب اغفر لى ذنبى، فقال الله تعالى: أذنب عبدى فعلم أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، فقال الله تعالى: اعمل ما شئت فقد غفرت لك».

د – وأن موت رسول الله ﷺ لا يعنى انقطاع أنه رحمة للناس وللعالمين؛ لأن ما جاء به من هدى فى الكتاب والسنة باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ إذ تكفل الله تعالى بحفظه بنفسه سبحانه وتعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)**﴾ [الحجر: ٩]. والذكر هو كتاب الله والسنة هى شارحة الكتاب ومفصلة ومكملة ما سكت عنه؛ إذ هى وحى يوحى.

٥ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون، وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ ما يلى:

أ – أن الذين يصدون الناس عن المسجد الحرام أو عن الحق والهدى أى عن دين الإسلام ومنهجه ونظامه، جديرون بأن يعذبهم الله تعالى، وذلك أن من يصدُّ عن الله وعن المسجد الحرام يتحدى الله ورسوله وكل مؤمن، ويتحدى الحق، وينتكس بإنسانيته ويلتوى بفطرته عما فطره الله عليه من الإيمان والخير، فيكون أهلاً للعذاب بل العذاب الشديد.

ب – وأن بعض الذين يصدون عن المسجد الحرام، قد يتوهمون أنهم أولياء الله أو أولياء الحق أو أولياء المسجد الحرام أو أى مسجد، ولكنهم واهمون كافرون فلن يكونوا بهذه الصفات أولياءه، بل هم أعداء له سبحانه وتعالى، وأعداء للحق الذى جاء من عنده.

● وليست ولاية الله تعالى أو ولاية الحق بالادعاء، وإنما هى بالعمل الصالح والالتزام بمنهج الله تعالى وطاعته وطاعة رسوله ﷺ.

جـ – وأن أولياء الله حقًا وأولياء دينه وشرعه ونظامه ومسجده الحرام، وكل بيت من بيوته هم المتقون وحدهم دون سواهم، فهم بتقواهم أهل لتلك الولاية وأجدر بها.

● أما الأدعياء الزاعمون ولاية الله وبيته الحرام بغير أهلية ولا استحقاق، فهؤلاء أكثرهم لا يعلمون حقيقة هذه الولاية، وإن كانت القلة منهم تعلم ذلك وتكابر وتعاند.

د – وأن هؤلاء الصادين عن الله تعالى وعن بيته الحرام قد يأتون أعمالاً تشبه الصلاة، أو هي صلاة في الظاهر، وهي في الحق ليست بصلاة، وإنما هي لعب ولهو وأصوات لا صلة لها بالصلاة، أليست لو كانت صلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر؟ وأليس أفحش الفُحش وأنكر المنكر الكفر بالله ورفض ما جاء به رسوله ﷺ؟

هـ – وأن جزاء هؤلاء الكفار المعاندين الصادين عن الله وعن الحق وعن بيوت الله هو العذاب في الدنيا بانكسارهم وانحسارهم، مهما تطاولت أيامهم وعظمت دعاواهم وأقلامهم، وكثرت أسلحتهم وأعدادهم، ذلك وعيد من الله تعالى لهم في كتابه الكريم: ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنت تكفرون** ﴾ ومن أصدق من الله حديثًا، وتلك سنة الله تعالى في الماضي والحاضر وفي المستقبل كذلك، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

المواقف التربوية العامة في مجالي الدعوة والحركة

يتعلم الدعاة إلى الله من هذه الآيات الكريمة أسلوبًا من أساليب الصراع بين الحق والباطل، وتعلمهم الآيات الكريمة كيف يتعاملون مع عدو يعرفونه ويعرفون عنه الكثير؛ إذ الكفر كذ ،الكافرون جميعهم في كل عصر يتصرفون ويمارسون نفس العمل، ويضمرون ذات العداء، وسوف نفصل ذلك بما ينفع الدعاة فيما يلي بعون من الله وتوفيقه:

١ – يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ ما يلي:

أ – أن الصراع بين الكفار –أعداء الله– والمؤمنين، صراع مستمر أبدًا، طالما بقي الكفار على كفرهم، والمؤمنون على إيمانهم.

● وهذا الصراع يأخذ صوراً شَتَّى آخرها: إبادة المؤمنين نهائيًا، ومنها:

- تقييد حرية المؤمنين والتضييق عليهم،
- وتشويه صورتهم بشن الحملات الإعلامية من خلال الأقلام المأجورة ووسائل الإعلام الموالية للباطل والهوى لكى تنفر الناس منهم ومن إيمانهم وتقواهم،
- وحملهم على الهجرة من بلادهم، ومصادرة أموالهم وأملاكهم،
- وتعذيبهم بعد حبسهم وإهدار حقوقهم،
- وتشريد أسرهم وذويهم،
- وإغراء الصليبيين والصهيونيين بهم فى كل مهجر من مهاجرهم.
- كل تلك الصور حاولها بل مارسها مشركو مكة مع الرسول ﷺ وصحابته، ويمارسها أعداء الإسلام اليوم وسوف يظلون يمارسونها إلى أن يشاء الله.

ب - وأن أعداء الإسلام اليوم أشد ضراوة فى عدائهم للحق من أعداء الأمس من أهل الجاهلية.

- فهم قد ابتكروا من وسائل التضييق، وخنق حرية الرأى ما لم يكن معروفًا فى الماضى، ولا خطر على قلب أبى جهل وأعوانه فى الجاهلية.
- وإنهم يسنون القوانين فى مجالسهم التشريعية ومجالس هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن لمنع المسلمين من التعبير عن آرائهم وطرح خطتهم فى العمل والإصلاح كغيرهم من الناس!!
- وإنهم يطاردون الفارين بدينهم فى كل مكان، وقد أصبح العالم أمامهم كقرية صغيرة؛ إذ تسيطر عليه أجهزة الرصد والتخابر سيطرة كاملة!!!
- وإنهم ليحسبون على المؤمنين كلماتهم فى مجالسهم الخاصة وينصتون إلى كل ما يقال بأحدث الأجهزة العلمية، ليحاسبوا على كل كلمة وكل نأمة، وما يعجزهم أن يصدروا قانونًا يجرم الكلام بل الفكر وتوافق عليه فوراً المجالس التشريعية وهيئة الأمم ومجلس الأمن، والنظام العالمى الجديد!!!
- وإن كل منهج فى العمل السياسى مقبول لديهم ومنهج الإسلام مرفوض محظور مُجَرَّم كأنه آفة أو طاعون!!!

جـ - وأن العداوة اليوم موجهة إلى الإسلام نفسه، فضلاً عن الدعاة إليه وعموم

المسلمين، وأعجب العجب أن يُمنع الناس من الصلاة فى بعض الأجهزة الحكومية فى بلاد مسلمة!!!

● أما عقاب الناس على تمسكهم بإسلامهم فقد أصبح السمة الغالبة فى معظم البلدان الإسلامية، وفى جميع بلدان الغرب حتى حرم على بعض التلميذات ارتداء حجاب يستر ما أمر الله بستره فى بلد يدعى الحرية والمساواة والإخاء!!!

د – ومع كل ذلك العداء الذى يوجه للإسلام والمسلمين، والكيد والمكر الذى يمكر به الأعداء، فإن الله تعالى لن يتخلى عن المؤمنين بل يمكر لهم ويفسد مكر أعدائهم، والله خير الماكرين، وما لأحد من المسلمين أن يستبطئ هذا النصر؛ فإن الله تعالى أعلم حيث يعطى نصره ولمن يعطيه.

● وعلى الدعاة إلى الله أن يَطمَئنوا إلى ذلك وأن يُطمْئنوا عليه الناس.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ ما يلى:

أ – أن مِنَ الناس مَنْ يمارون فى الحق وإن كان بيِّنًا، ويدَّعون القدرة على التحدى، وإن كانوا يعلمون أنهم يكذبون، حتى ولو كان ذلك الذين يتحدون غير قابل للتحدى؛ لأنه من صنع الله تعالى،ويستحيل على البشرية قديمًا وحديثًا أن تتحدى ما قال الله تعالى.

● ولقد تمثل هذا المراء وتلك الدعاوى فيما زعمه النضر بن الحارث والمشركون لما سمعوا القرآن الكريم: ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا...** ﴾.

● واليوم يقول أمثال النضر عن منهج الله الذى اختاره سبحانه لينظم به حياة الناس فى معاشهم ومعادهم، يقولون: لقد صنعنا منهجًا للناس أفضل مما صنع الله!!! ولا يكتفون كأخيهم النضر بأن يقولوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا...

● وهؤلاء الممارون فى الحق هم أكثر الناس علمًا بأنهم مضلّلون كذبة يمارسون الدعاوى الجوفاء والمزاعم الكاذبة.

● وعلى سبيل المثال فيما زعموا قولهم: إن العلمانية منهج للحياة يستطيع أن يحقق للناس حياة إنسانية تغنى عن منهج الله!!!

● يزعمون ذلك مع أن العلمانية أثبتت فشلها الذريع وعادت على أصحابها بالويل والحرب والعداوة وسوء استغلال الإنسان، فضلاً عن إنكار العلمانية لله تعالى ولكثير من القيم الخلقية الفاضلة، حيث جلبت على الناس – كما هو مشاهد – الجريمة، بل الجريمة المنظمة والإرهاب والعنف، والزنى وشرب الخمر والشذوذ الجنسي والأخلاقي، وعديداً من الأمراض النفسية والعصبية، والصخب والتمرد... إلى آخر ما تمتلئ به هذه المجتمعات الآخذة بالعلمانية، ولكنهم يكابرون!!!

● ويزعمون فيما يزعمون أن الاشتراكية أو الشيوعية، يمكن أن تكون بديلاً عن منهج الله!!!

● ولقد كان هؤلاء الزاعمون الاشتراكيون أو الشيوعيون ينكلون بمن لم يقل بقولهم، ويقبل دعاواهم، وكان اتباع منهج الله يعارضون ذلك فليقون من العنت والعذاب والتشريد من الأوطان أو السجن والقتل –فضلا عن اتهامهم بالتخلف والرجعية والظلامية ما يلقون...

● ثم أثبتت الاشتراكية والشيوعية كلتاهما أنهما من أفسد المناهج وأبعدها عن إنسانية الإنسان، وأعلن دعاتهما ودهاقينهما فشلهما وهدموا معبدهما، وانتهى ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي!!!

● وأصبح الآخذون بهذا المنهج –أو ذاك– والمنادون به في مزجر الكلب – كما يقول المثل العربي القديم – وأصبحوا بحاجة إلى أن يعيشوا حياة نقية نظيفة من هذه الأفكار ومن تلك الفلسفة التي كانت غارقة في العفن الاجتماعي، وبيع النساء والأطفال والقضاء على الأسرة، والهجرة إلى المجهول!!!

ب – وأنَّ مِنَ الناس مَنْ يرون الحق أبلج، ويلمسون عليه الأدلة المنطقية والواقعية والتاريخية، ومع ذلك يزعمون أن هذا الحق أساطير الأولين – أي أحاديث لا نظام لها– اكتتبها وجمعها من كتب الأولين محمد ﷺ الذي ما كان يحسن يقرأ أو يكتب! ولقد صور القرآن الكريم تلك الدعاوى الكاذبة في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥)** ﴾ [الفرقان: ٤، ٥].

● إن الدعاة إلى الله إذا علموا أن هذا الصنف من الناس موجود في كل عصر، سهل عليهم أن يتعرفوا عليهم، وأن يعرفوا أبعادهم وأعماقهم وما يضمرون، فيتيسَّر لهم أن يتعاملوا

معهم بالأسلوب الذى يصرفهم عن الباطل، ويعود بهم إلى الحق، وتلك مهمة الدعاة وصميم وظيفتهم.

جـ - وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية يعلمون علم اليقين أن آيات الله تعالى حق لا مرية فيها إلا عند الضالين، وأن آيات الله تشمل كلماته: القرآن الكريم، وتشمل كل دليل يهتدى إلى العقل السليم الذى يتدبر فى آيات الله وعظيم صدقه وجليل مخلوقاته ودقيقها، وحسب الإنسان أن يتفكر فى نفسه، ليعلم كم ينبغى أن يتعمق إيمانه.

● إن رسالة الدعاة إلى الله أن يوصلوا هذا الفقه إلى الناس وأن يأخذوا بأيديهم نحو الحق، ويحولوا بينهم وبين الباطل ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم**﴾ ما يلى:

أ - أن من الناس ناسًا يُلْغون عقولهم إلغاءً من أجل أن يعاندوا ويعارضوا، فيورطوا أنفسهم فيما يطلبون من الله تعالى - والعجيب أنهم كفرة ويطلبون من الله تعالى!!! - إذ يطلبون منه أن يمطر عليهم حجارة من السماء أو يعجل لهم بعذاب أليم إن كان ما نزل على محمد ﷺ هو الحق!!!

● وتلك حماقة وسفاهة بدأها أبو جهل واستمر عليها أحفاده وأشباهه إلى يومنا هذا، ولو كانوا عقلاء لكان عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه!!!

● إن على الدعاة أن يتأملوا فى ظروف هذا الصنف من الناس، وأن يفكروا فيما دعاهم إلى تلك السفاهة وهذه الحماقة، لعلهم يستطيعون نقلهم من هذا الغباء المطبق والعناد المردى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وإلى نور العقل والهدى.

ب - وأنّ المعاندين للحق ولمنهج الله كثيراً ما يصل بهم العناد إلى حد الإضرار بأنفسهم فى الحال أو فى الاستقبال.

● والدعاة من خلال ذلك يعرفون أن كل معاند يضر نفسه أولاً ومن حوله من الناس والأشياء بعد ذلك، وأن على الدعاة إلى الله واجبًا نحو هؤلاء المعاندين، هو التلطف فى نقلهم من العناد إلى الطاعة والرشاد، وذلك بالحوار الهادئ والكلمة الحكيمة الحانية، والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

جـ - وأن جزاء الدعاة إلى الله على ذلك هو أحسن الجزاء، فقد روى أبو داود بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «والله لأن يُهْدى بهداك واحدٌ خير لك من حمر النعم».

وهذا أكبر ما يسعد الإنسان، فضلا عن الدعاة والحركيين المتعلقين دائمًا بثواب الله ورضاه.

٤ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**﴾ ما يلى:

أ - أن من رحمة الله تعالى بعباده، ولطفه فى معاملتهم ألا يعذبهم على الرغم من عنادهم - فى حالتين:

إحداهما: وجود الرسول ﷺ فيهم،

والأخرى: استغفارهم الله تعالى من ذنوبهم وتوبتهم وعنادهم سواء أكانوا كافرين فآمنوا أم مؤمنين عصاة فتركوا المعصية إلى الطاعة.

- وتلك فرصة للدعاة يوضحون فيما قيمة الاستغفار فى حياة الناس، وأن هذا الاستغفار مطلوب فى ذاته؛ لأن كل إنسان معرض للخطأ والذنب، ولا يجبر الذنب ويذهب الإثم مثل الاستغفار.

ب - وللاستغفار ثمرة نافعة نفهمها من قوله تعالى على لسان محمد ﷺ وهو يخاطب قومه: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)**﴾

[**هود**: ٣].

- والمتاع الحسن هو سعة الرزق ورغد العيش.

- وقيل هو: التعمير فى الأرض،

- وقيل: هو ترك الخلق والإقبال على الحق،

- وقيل: هو القناعة بالموجود وترك الحزن على المفقود.

● كل هذه المعاني للمتاع الحسن يجب أن يستوعبها الدعاة إلى الله، وأن يعملوا على أن تتمثل فيهم أولاً، وفيمن يدعونهم ويتحركون فيهم بعد ذلك.

● وللاستغفار ثمرة نستطيع أن نعرفها من قول الله تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام وهو يخاطب قومه: ﴿ **وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)** ﴾ [هود: ٥٢].

● كما يعرف نفع أن للاستغفار، نفعًا يجعله علاجًا لكل مشكلة من قوله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام وهو يخاطب قومه أيضًا: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)** ﴾ [نوح: ١٠ – ١٢].

● ولأسلافنا من العلماء كلمات في الاستغفار أذكر بها الدعاة إلى الله – وهم يعرفونها ولكنها التذكرة – ومنها:

– قال ابن صبيح:

شكا رجل إلى الحسن الجدوبة، فقال له: استغفر الله،

وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله،

وشكا إليه ثالث الفقر، فقال له: استغفر الله،

وشكا إليه رجل فقال له: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله،

قال ابن صبيح: فقلنا في ذلك فقال: ما قلت من عندي شيئًا، إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿ **استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾.

● إن الحسن رحمه الله كان داعية إلى الله مفطوراً على الرغبة في التقرب إلى الله بصالح الأعمال، حريصًا على أن تصل كلمة الحق لكل من يجب أن يسمعها.

● وعلى الدعاة أن يقرأوا عنه ويعرفوا من سيرته ما ينتفعون به في الدعوة إلى الله.

ب – وأن الدعاة إلى الله إذا فقهوا تلك المعاني للاستغفار، وعرفوا نفعه وفائدته في كل مشكل، وعلموا الناس ذلك، عاشوا أمانًا عامًا من كل خوف يحيط بهم، وما أكثر المخاوف التي تحيط بالدعاة في كل مكان يمارسون فيه الدعوة والحركة: المخاوف المادية

والمعنوية، وعلاجها جميعًا استغفار الله تعالى من الذنوب.

- ويستطيع الدعاة إلى الله -ومن يدعونهم من الناس بهذا الاستغفار- أن يعيشوا متمتعين بالدنيا متاعًا حسنًا، بكل معنى من معانى المتاع الحسن التى ذكرناها آنفًا.

- غير أن الاستغفار ليس مجرد تلفظ باللسان، وإنما حقيقته أن يمنع الإصرار، ويجلب التوبة والندم، ويطمئن القلب على معيَّة الله تبارك وتعالى.

- وقد قال بعض السابقين من العلماء: إن من قال بلسانه أستغفر الله، وقلبه مصر على المعصية، فاستغفاره يحتاج إلى استغفار، وصغيرته ملحقة بالكبائر.

- روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ، قال: «ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من ذا الذى يدعونى فأستجيب له، من ذا الذى يسألنى فأعطيه، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر».

- والدعاة إلى الله أعرف الناس باللفظ المأثور فى الاستغفار ولكنى أذكرهم به، فقد روى البخارى بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قال: «ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات مِنْ يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقنٌ بها فمات من ليلته قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة».

- وفى لفظ آخر: رواه سعيد بن جبير عن أبى الصهباء البكرى عن على بن أبى طالب رضى الله أن رسول الله ﷺ أخذ بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه ثم قال: «ألا أعلمك كلمات تقولهن لو كانت ذنوبك كمدَبّ النَّمل - أو كمدبّ الذر - لغفرها الله لك - على أنه مغفور لك-(١): اللهم لا إله إلا أنت، عملتُ سيئًا وظلمتُ نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

جـ - وأن المشركين الصادين عن المسجد الحرام هم أهل لأن يعذبهم الله تعالى فى الدنيا والآخرة، وأن دعاواهم الباطلة فى أنهم أولى بالمسجد الحرام وأنهم أولياؤه مرفوضة؛

(١) لعل ذلك إشارة إلى أن على بن أبى طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة، فهو مغفور له رضى الله عنه.

لأن الأولياء على المسجد الحرام أو على أى بيت من بيوت الله يجب أن يكونوا من المتقين، ولكن المشركين لا يعلمون هذه الحقيقة.

- ومثل هؤلاء المدعين الكاذبين كل من يدعى أنه ولىّ الله مع خروجه عن منهج الله وخلق الإسلام فى أى شىء؛ لأن الله تعالى لا يواليه إلا المتقون، وهيهات أن يكون من المتقين من يعطل منهج الله أو لا يلتزم به!!!

- ومثل هؤلاء وأولئك أولئك الذين يرفضون منهج الله أو يزعمون أن فى سواه غنى عنه، فضلاً عن أولئك الأشرار الأوغاد الذين يتحدون الله ورسوله والمؤمنين!!!

٨ - الآيات من الآية السادسة والثلاثين إلى الآية الأربعين:
بيان لحال الكفار وتوضيح لجهودهم فى الصد عن سبيل الله وتحديد لمصيرهم، وإخبارهم بأنهم لو انتهوا عن معاداة الله ورسوله غفر الله لهم ما قد سلف، وتهديد لهم لو استمروا على العناد والكفر، ومطالبة المؤمنين بقتال الكفار لو استمروا على كفرهم ووعد المؤمنين بالنصر

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) ﴾ [الأنفال: ٣٦ - ٤٠].

● تتحدث هذه الآيات الكريمة عن الكفار الذين بلغت بهم كراهية الإيمان حد إنفاق أموالهم وبذل جهودهم للصد عن سبيل الله، وتوضح لهم خيبتهم فى مسعاهم وحسرتهم على ما أنفقوا، وسوء ما يصيرون إليه عند الله تعالى؛ إذ جهنم فى انتظارهم.

وتوضح الآيات أن الله تعالى جعل لهؤلاء الكفار هذا المصير، فى حين جعل النصر والغلب لعباده المؤمنين، ليميز الخبيث من الطيب، ويحدد للخبيث مصيره وهو جهنم.

وتخبر الآيات الكريمة - على لسان النبى ﷺ - بأن الكفار إذا انتهوا عن كفرهم وعنادهم غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وعنادهم، وإن يعودوا إلى هذا الكفر فقد أصبح من جزائهم أن تجرى عليهم سنة الله فى الذين خلوا من قبلهم وهى هزيمة الدنيا وعذاب الآخرة.

وتطالب الآيات المؤمنين بقتال هؤلاء المعاندين المكذبين للرسل؛ حتى تنقطع الفتنة التى يسببها كفرهم وتزول آثارها، حيث كانوا يفتنون المؤمنين عن إيمانهم، ويغرونهم أو

يجبرونهم على الكفر إن استطاعوا،

وإنما كان ذلك كذلك ليكون الدين كله لله، فلا يكره أحد على دين ولا يُفتن عنه، وإنما تطلق حرية التدين لكل الناس، والله تعالى سوف يجعل العاقبة للمؤمنين فينصرهم ويواليهم.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على عدد من الأخبار المؤكدة بأداة التوكيد إنَّ، وعلى أكثر من أمر، وعلى أكثر من أسلوب شرط، كما تضمنت بشارة للمؤمنين بالنصر والتأييد، ووعيد للكافرين بالهزيمة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، مما سنوضحه إذا شاء الله فيما يلى، والله المستعان:

– ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ .

- والمعنى العام للآية الكريمة: أن الله تعالى يخبر عن الكافرين –خبراً مؤكداً بإنَّ– واستعدادهم المادى والمعنوى وحشدهم لمعركة بدر، وفى الآية الكريمة إشارة إلى ما سوف يكون من الكافرين من إعداد واستعداد لحرب النبى ﷺ فى المعارك التالية لبدر، وذلك ينبى بما سوف يكون عليه حال الكفار وأعداء الله فى كل زمن، وما سوف يبذلون من جهد ومال لتحدى منهج الله ونظامه والدعاة إليه فى كل مكان.

- قال علماء التفسير: نزلت هذه الآية الكريمة فى أبى سفيان بن حرب، وما كان يقوم به من إنفاق على المشركين فى بدر وإعانته لهم، إذ روى أنه لما نجا بالعير أو ساحل بها – أى مشى بها فى طريق الساحل من البحر – تاركًا الطريق المعتاد، مشى إلى المشركين مِمّن كان منهم له تجارة معه، ومعه نفر من أعداء الله يستنفرون الناس للقتال، فاستجابوا له حين قال لهم: إن محمداً قد وَتَركم وقتل رجالكم فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأراً، ففعلوا.

- وقيل إن أبا سفيان أنفق فى حرب رسول الله ﷺ أربعين أوقية من ذهب يوم أحد –على ما كان فيه من بخل– كما قالت زوجته هند يوم بايعت رسول الله ﷺ.

- وأخبر سبحانه بأن إنفاقهم للصد عن سبيل الله سوف يكون حسرة عليهم وندمًا؛ لأنهم لن يحققوا به أهدافهم، وأنهم على الرغم من ذلك سوف يغلبون المرة بعد المرة – كما حدث فى بدر وغيرها – وليس جزاؤهم هذا إلا فى الدنيا، أما فى الآخرة فإنهم يحشرون

إلى نار جهنم.

– ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾.

● أي يميز أهل السعادة من أهل الشقاء – كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال السدّي ليميز المؤمن من الكافر.

ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، حيث الجزاء.

ويحتمل أن يكون في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وما يقدرهم عليه من إنفاق ليميز من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، ومن يعصيه بالنكول عن ذلك.

● والمعنى: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك؛ ليميز الله الخبيث من الطيب أي الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين، فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا في جهنم.

● وقيل المعنى: أن المراد بالخبيث نفقة الكافر في عداوته لله ولرسوله، وبالطيب نفقة المؤمن في جهاد الكفار والدفاع عن دين الله ومنهجه ونظامه.

– ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ إشارة إلى الكفار، وقد خسروا الدنيا بالهزيمة وخسروا الآخرة بالعذاب.

– ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين** ﴾.

● وهذا أَمْرٌ من الله تعالى لمحمد ﷺ بأن يخبر الكفار بأنهم إن انتهوا عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ودخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر الله تعالى لهم ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم، رحمة منه تعالى وتسامحًا.

وقد ثبت ذلك في السنة النبوية المطهرة:

روى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخذ بالأول والآخر».

وروى ابن سعد في الطبقات بسنده عن الزبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله » وروى ابن ماجة بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

– ﴿ **وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين** ﴾ أى : إن يستمروا على كفرهم وعنادهم وما هم فيه من تكذيب لنبى الله ﷺ فقد مضت وعرفت سنتنا فى الأولين : أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة، كما حدث فى المشركين يوم بدر، وكما حدث فى غيرهم من الماضين الذين كذبوا أنبياء الله تعالى قبل محمد ﷺ .

● وسنة الله فى الأولين تفهم من قوله تعالى : ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** (٢١) ﴾ [**المجادلة** : ٢١] وقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)** ﴾ [**الصافات** : ١٧١ – ١٧٣]. وقوله جل شأنه : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)** ﴾ [**الأنبياء** : ١٠٥] .

– ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ .

● أمر الله المؤمنين بقتال الكفار إذا أصروا على كفرهم من أجل أن تزول فتنة المسلمين عن الإسلام ويصبح الدين كله لله .

● قال عروة بن الزبير رضى الله عنهما : كان المؤمنون في مبدأ الدعوة يُفتنون عن دين الله، فافتتن من المسلمين بعضهم، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة، وفتنة ثانية وهى : أنه لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ بيعة العقبة، تآمرتْ قريش أن يفتنوا المؤمنين بمكة عن دينهم، فأصاب المؤمنين جهد شديد – فهذا هو المراد من الفتنة – فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة .

● وقال فخر الدين الرازى : إن مبالغة الناس فى حبهم أديانهم أشد من مبالغتهم فى حبهم أرواحهم، فالكافر أبداً يسعى بأعظم وجوه السعى فى إيذاء المؤمنين وفى إلقاء الشبهات فى قلوبهم وفى إلقائهم فى وجوه المحنة والمشقة، وإذا وقعت المقاتلة زال الكفر والمشقة وخلص الإسلام وزالت تلك الفتن بالكلية .

● وحدَّث أحمد بن يونس بسنده عن سعيد بن جبير قال : خرج علينا ابن عمر رضى الله عنهما، فقلنا : كيف ترى فى قتال الفتنة؟[١] .

---

(١) هى فتنة اقتتال المسلمين بعد خلافة على رضى الله عنه، وما ثار بينهم من حروب، وكانت تلك من أشد الفتن على المسلمين، إذ قاتل بعضهم بعضاً .

فقال: وهل تدرى ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك.

وقال عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟

قال: يمنعني أن الله حرم عليّ دم أخي المسلم.

قالوا: أولم يقل الله: ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾؟

قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تقاتلون حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

● وقد أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين أن يقاتلوا الذين كفروا قتالاً يستمر حتى تزول الفتنة فى الدين بالتعذيب والتنكيل من أجل صرف الناس عن دينهم، كما فعل الكفار فى كل عصر قبل عصر الرسول ﷺ، وكما فعلوا معه، وكما يفعلون فى كل عصر، وبخاصة فى العصر الذى نعيشه اليوم حيث استشرى سُلطان الذين كفروا وفتنوا المسلمين عن دينهم، فشجعوا بعضهم على الردة وشجعوا بعضهم على الكتابة ضد الدين.

● ومما يجب أن يلحظ أنه ليس معنى هذه الآية: ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ..... ﴾ أن المسلمين يكرهون أحداً على الدخول فى الدين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ..... ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

● قال علماء التفسير: إن هذه الآية نزلت بسبب أن بعض الأنصار كان لهم أولاد تهودوا أو تنصروا منذ الصغر، فأرادوا إكراههم على الإسلام فنزلت هذه الآية، فأمرهم النبى ﷺ بتخييرهم.

● ﴿ **ويكون الدين كله لله** ..... ﴾.

«قال محمد بن إسحق: ويكون التوحيد خالصًا لله ليس له فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أى لا يكون مع دينكم كفر، ويشهد لهذا ما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا

الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل»[1].

- ولا ينافى فى هذه قوله تعالى: «لا إكراه فى الدين»؛ لأن قتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله إنما يكون بعد الدعوة والشرح والإقناع، فمن أبى ذلك على الرغم من وضوح الدليل وتعنت وقاتل المسلمين قوتل، فإن فاء إلى رشده كفّ المسلمون عن قتاله؛ بدليل هذه الآية ﴿ **فإن انتهوا** ﴾ عن الكفر وقتالكم فكفوا عنهم.

- ولو كان إكراه على الدخول فى الدين لما شرع الإسلام الجزية، ولما كانت بين المسلمين وغيرهم عهود ومواثيق، ومعايشة سلمية!!! وكل ذلك كان على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد خلفائه الراشدين رضى الله عنهم وفى عهود كثير من حكام المسلمين الملتزمين.

- ﴿ **فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** ﴾ أى انتهوا عن الكفر وعن قتالكم فإن الله تعالى يعلم ما يعملون ويجازيهم به وهو أعلم بهم وبصير بكل أمرهم.

- ﴿ **وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير** ﴾ .

المعنى: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم فاستمروا فى قتالهم، وثقوا فى أن الله تعالى ناصركم عليهم ومولاكم وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

حفلت هذه الآيات الكريمة بعديد من المواقف التى يتعلم منها المسلمون كيف يعيشون حياتهم الإنسانية الكريمة فى هدى هذه الآيات وغيرها من آيات القرآن الكريم، وكيف يتعاملون مع الكفار الذين يحشدون جموعهم وأموالهم وجميع إمكاناتهم لحرب الإسلام والمسلمين، ويتعلمون من هذه الآيات كثيراً من القيم الإسلامية التى لا تستقيم الحياة الإنسانية إلا بها، مما سنوضحه فيما يلى:

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٠٩ ط الحلبى – القاهرة: ١٣٦٧هـ – ١٩٤٨م.

مايلى :

أ - أن الكافرين دائمًا أعداء الله وأعداء الدين والحق، وأنهم فى هذا العداء ينفقون أموالهم ويبذلون جهودهم للصد عن سبيل الله وعن الدين والحق، وفى هذا الصد فتنة للناس بصرفهم عن الدين والتديّن لله رب العالمين.

ذلك درس تعلمه المسلمون ليعرفوا منه طبيعة الكافرين، فيكون التعامل معهم على هذا الأساس.

ب - وأن هؤلاء الكافرين مهما بذلوا من جهد ووقت ومال للصد عن سبيل الله، فإن الله تعالى - فى الوقت الذى يراه والمكان الذى يراه - سوف يحبط أعمالهم، ويفسد كيدهم ويبدد جهودهم ويقضى على أموالهم، ويجعل نتيجة أعمالهم تلك حسرة وندامة، وخسرانًا وهزيمة فى الدنيا، وعذابًا شديدًا فى الآخرة.

جـ - ويتعلم المسلمون أن كل من يتحدى الله ورسوله ويحارب دينه وينكل بالمتدينين، إنما يمارس صداً عن سبيل الله، وأنه إلى خسران وضياع فى الدنيا والآخرة، حتى لو كان من المسلمين، فالقضية العامة فى هذا المجال هى أن الذين يصدون عن سبيل الله سوف يصابون بالحسرة ثم يغلبون وإلى جهنم يحشرون.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾ ما يلى :

أ - أن الله تعالى قد يعطى الكافرين أموالاً وإمكانات لينفقوها فى الصد عن سبيل الله، ويقدرهم على ذلك ليميز الخبيث من الطيب، ويفصل بين مَنْ يعادى الله ويصد عن سبيله ومن يقاتل هذا المعادى الصاد عن سبيل الله، فيجازى كلا بما عمل.

ب - وأن الله تعالى قد يبتلى المسلمين بالكفار يقاتلونهم ويضيقون عليهم ويصدون عن سبيل الله، ليميز بذلك الخبيث من الطيب، ولكى يعرف الناس مَنْ الخبيث ومَنْ الطيب؟

جـ - وأن الله تعالى بهذه الابتلاءات وتلك الحكم البالغة يعلم المسلمين ألا يطمئنوا إلى كافر، وأن لا يثقوا فى كلمة يقولها، فضلاً عن وعد يعده، وألا يوالوه فضلاً عن أن يكونوا معه ضد المسلمين!!!

إذ كيف يطمئنون أو يثقون أو يوالون من جعل الله تعالى مصيره إلى جهنم ووصفه بأنه

خاسر وحكم عليه بهذا مهما حشد ومهما جمع ومهما كان ذا مال وعتاد؟!

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين**﴾ ما يلي:

أ – أن باب التوبة مفتوح أمام كل الناس حتى الكافر منهم، وأن الرجوع عن الباطل بل الكفر متاح لكل مبطل وكل كافر، ومن باب أولى أهل المعصية، كل ذلك رحمة من الله تعالى بعبادة بإتاحة هذه الفرص أمامهم لمغفرة ذنوبهم والتسامح معهم.

ب – وأن من لم ينته عن كفره أو باطله أو معصيته فإن الله تعالى سوف يجرى عليه سنتة فى الأولين حيث يخزى الكافرين ويهزمهم فى الدنيا ويعذبهم فى الآخرة، وينصر المسلمين ويجزيهم أحسن الجزاء يوم القيامة – تلك هى سنة الله فى الأولين.

جـ – وأن على المسلمين أن يثقوا فى وعد الله للمؤمنين ووعيده للكافرين فقد جعل سبحانه نصر المؤمنين حقًا عليه وجعل أيضا هزيمة الكافرين، وخسرانهم فى الدنيا والآخرة حقًا عليه كذلك، فقد قال تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)**﴾ [**الروم**: ٤٧] وقال جل شأنه: ﴿**...وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)**﴾ [**الأنفال**: ٣٦].

٤ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله....**﴾ ما يلى:

أ – أن قتال الكافرين الصادين عن سبيل الله واجب شرعى، وأنه واجب مستمر ماض إلى يوم القيامة، وتسميه الشريعة جهاداً فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا أى ليكون الدين كله لله، وأن التخلى عن هذا الواجب إثم ومعصية، فقد جاء بصيغة الأمر: ﴿**وقاتلوهم**﴾.

ب – وأن كل مسلم يجب أن يعد نفسه وبدنه وعتاده وسلاحه لينفذ هذا الواجب الشرعى المستمر إلى يوم القيامة.

- وأن هدف هذا الجهاد هو قطع الفتنة، وحماية المسلمين من أن يصرفهم ظالم عن دينهم، وأن يصبح الدين كله لله، وكلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

جـ – وعليهم أن يدركوا أن كلمة: ﴿**ويكون الدين كله لله**﴾ تعنى سيادة منهج الله

ونظامه على كل منهج أو نظام، منهج الله كله بما فيه من عقيدة صحيحة وعبادة سليمة وأخلاق فاضلة، وأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر، وجهاد فى سبيل الله، وتعاون على البر والتقوى، ونبذ لأى تعاون على الإثم والعدوان، وبما فى هذا المنهج من عدل وشورى وإحسان وتكريم للإنسان.

٥ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ . . . **فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير** ﴾ ما يلى:

أ – أن انتهاء الكفار عن الكفر وعن قتال المسلمين يكفى ظاهر أمورهم، فعلى المسلمين أن يكتفوا بهذا الظاهر مهما تكن بواطنهم مضمرة لشر أو كيد للمسلمين، فنحن المسلمين لنا الظاهر والله تعالى يتولى السرائر ويحاسب الناس على ما يعلم منهم.

ب – وأن الكفار إذا لم يستجيبوا لنداء السلامة من الكفر ومغفرة الذنوب، فإن على المسلمين أن يستمروا فى التصدى لهم موقنين بأن الله تبارك وتعالى مولاهم وولى أمرهم كلهم وناصرهم على الكافرين مهما أوتوا من عَدَد وعُدَد، لأن تلك – كما أسلفنا – سنة الله فى أوليائه وأعدائه.

جـ – وأن على المسلمين أن يحسنوا التوكل على الله والاعتماد عليه بعد الأخذ بالأسباب، لأنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير، ومن الأخذ بالأسباب الالتزام بمنهج الله فى كل شعبة من شعب الحياة، فذلك الذى يحقق الإيمان ويستجلب نصر الله للمؤمنين الذى جعله سبحانه – تفضلاً منه – حقًّا عليه.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

فى هذه الآيات الكريمة – كغيرها من الآيات – دلالات تربوية فى مجال الدعوة إلى الله والحركة الإسلامية من أجل التمكين لدين الله، تكشف للدعاة والحركيين عن كثير من المعارف، وتزودهم بكثير من القيم التى لا غنى عنها لكل من يعمل من أجل الإسلام.

ومن تلك المواقف ما نذكره فيما يلى:

١ – يتعلم الدعاة والحركيون والتربويون من قوله تعالى: ﴿ **إن الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسنفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذى كفروا إلى جهنم**

يحشرون ﴾ ما يلى :

أ - أن الكفار - على الرغم من تبنيهم الباطل والضلال والفساد - ينفقون فى سبيل الكفر والصد عن سبيل الله أموالهم، ومن هان عليه ماله - وهو عزيز على كل نفس - هان عليه بذل جهده ووقته وما دون ذلك فى سبيل الغاية التى يسعى إليها .

● فإذا كان الكفار كذلك، أفلا ينفق المؤمنون فى سبيل الله مثل ما ينفق الكفار فى سبيل الصد عن الله؟!

● ذاك أول ما يتعلمه الدعاة إلى الله، ومَنْ يدعونهم من هذه الآية .

● إن الأموال والجهود والأوقات، بل النفوس يجب أن يبذلها الإسلاميون فى سبيل الله؛ ليحق بذلك الحق ويبطل الباطل .

ب - وأن ما ينفقه أهل الكفر من أجل الصد عن سبيل الله ضائع مضيع عند الله تبارك وتعالى ليس وراءه إلا الحسرة والهزيمة فى الدنيا ثم الحشر إلى جهنم فى الآخرة .

● فماذا ينتظر المؤمنين دعاة ومدعويين إن هم أنفقوا أموالهم فى سبيل الله لإعلاء منهجه ونظامه؟

● إن الذى ينتظرهم هو السعادة والرضى والنصر والتأييد فى الدنيا، وأكرم الجزاء وأوفاه فى الجنة يوم القيامة .

● فماذا ينتظر أولئك المؤمنون؟ ولماذا لا يسارعون ببذل المال والجهد والوقت والنفس لينالوا هذا الأجر؟ أذكرهم بأن الله تعالى اشترى منهم ذلك بالجنة فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ . . .** ﴾ [التوبة : ١١١] . وطالبهم بالاستبشار بهذا البيع ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به . . .** ﴾ نفس الآية، ولقد قال الأنصار رضوان الله عليهم عندما أخبرهم رسول الله ﷺ ليلة العقبة أنهم إذا بذلوا أموالهم وأنفسهم فى حماية الرسول ﷺ فإن لهم الجنة، لقد قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل .

● وقال الحسن البصرى : اسمعوا والله بيعة رابحة وكفة راجحة، بايع الله بها كل مؤمن، والله ما على الأرض مؤمن إلا وقد دخل فى هذه البيعة .

● وقال بعض الصالحين الفاهمين لكتاب الله فى التعليق على هذه الآية : ما أعجبها صفقة،

أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها ثم يعطينا بها الجنة!!

جـ - وأن الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية يجب أن يوقنوا بأن مصير الكافرين هو الهزيمة فى الدنيا بنصر الله تعالى للمؤمنين عليهم إن عاجلاً وإن آجلاً.

● وليس للدعاة أن يهولهم ما عليه أهل الكفر من مال وجاه وإمكانات، فيلقى ذلك فى قلوبهم الرعب أو الوهن، فضلا عن يأس بعضهم من نصر على عدو متكامل العَدد والعُدَد، لأن الله تعالى قال عن الكافرين وأموالهم الموظفة فى الصد عن سبيل الله: ﴿ . . . **فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون** ﴾.

● نعم: ثم يغلبون، ولكن على الدعاة أن ينتظروا حتى تتحقق دلالة «ثم» التى تفيد مرور فترة من الزمان، لكن الهزيمة لاحقة بهم بكل تأكيد.

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **ليميز الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله فى جهنم، أولئك هم الخاسرون** ﴾ ما يلى:

أ - أن الله تعالى يجرى الأحداث ويقدر الأقدار ويبتلى بالشر والخير، ليميز الخبيث من الناس عن الطيب منهم - وهو سبحانه عليم بما كان وما سوف يكون - ولكن ليلزم الخبيث الحجة ويشهده على خبثه وفساده؛ ليعلم الخبيث أنه أهل للهزيمة والندامة وعذاب الآخرة.

● وليعلم الطيب الملتزم بمنهج الله تعالى أن له من الله تعالى التأييد والنصر فى الدنيا وحسن الثواب فى الآخرة، فيزداد حبًا فى العمل فى سبيل الله، ويتشجع على الاستمرار فى العطاء والبذل والتضحية، لينال على ذلك أحسن الجزاء.

ب - وأن هؤلاء الخبثاء الذين يصدون عن سبيل الله من آمَن هم أعداء الله، وأن لهم فى هذه العداوة أشباهاً وأقراناً، وأنهم يعضد بعضهم بعضًا، وعلى الرغم من ذلك كله فإن الله تعالى يجمعهم بعضهم على بعض مثل كَمّ مهمل متراكم لا يؤبه به ثم يرميهم فى جهنم، وهذا هو الخسران المبين الذى ليس بعده خسران.

جـ - وأن على الدعاة إلى الله أن ينظروا إلى هؤلاء الخبثاء نظرة لا ترفع من شأنهم أبداً، ولا تعطيهم أكثر مما يستحقون؛ إذ كيف يفعل الدعاة إلى الله ذلك بأقوام وصفهم الله تعالى بالخبث، وجمع بعضهم على بعض ثم ألقاهم فى جهنم؟

٣ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، وإن**

يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ ما يلى :

أ – أن الله رحيم بعباده، وأنه واسع المغفرة وأنه أصبر على الأذى، وليس مثل الكفر أذى، ومن رحمته بعباده أن جعل باب التوبة مفتوحا حتى للكافرين الذين يتحدون الله ورسوله؛ إن انتهوا عما هم فيه من كفر، فالله ﷻ سبحانه يغفر لهم ما قد سلف منهم من ذنبٍ أعظمُه الكفر.

ب – وعلى الدعاة فى مجال هذه الآية الكريمة أن يذكروا أنفسهم ويذكروا الناس بتعليق الإمام ابن العربى على تلك الآية حيث قال: «وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم، ويرتكبون المعاصى ويرتكبون المآثم، فلو كان ذلك يوجب مؤاخذتهم لما استدركوا أبداً توبة، ولا نالتهم مغفرة فيسَّر الله عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم، ليكون ذلك أقرب إلى دخولهم فى الدين، وأدعى إلى قبولهم كلمة الإسلام، تأليفًا على الملة وترغيبًا فى الشريعة، فإنهم لو علموا أنهم يؤاخذون لما أنابوا ولا أسلموا، فقد روى مسلم أن رجلاً كان فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفساً، سأل: هل له من توبة؟

فجاء عابداً فسأله فقال: لا توبة لك، فقتله وكمَّل به مائة، ثم جاء عالمًا آخر فسأله؛ فقال: ومن يسدُّ عليك باب التوبة؟ ائْتِ الأرض المقدسة، فمشى إليها، فحضره الأجل فى الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله أن قيسوا إلى أى أرض هو أقرب: أرضه التى خرج منها أم الأرض المقدسة؟

فألفوْه أقرب إلى الأرض المقدسة بشبْرٍ، فقبضته ملائكة الرحمة»[1].

● إن فى كلام ابن العربى عن هذه الآية ما يرق قلوب القساة الظالمين لو عقلوا، وما يطمئن الدعاة والحركيين إلى أن باب التوبة أمامهم – وقد يخطئون – وأمام من يدعونهم مفتوح، إلى أن تبلغ الروح الحلقوم.

جـ – وأن على الدعاة أن يفقهوا الناس فى التوبة من الذنوب وشروطها من استغفار وإقلاع عن الذنب وعزم على عدم العود إلى الذنب؛ حتى تصبح توبة نصوحًا تجب ما قبلها من ذنوب.

(١) الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى: أحكام القرآن: ٢/ ٨٥٢ – ٨٥٣، ط دار الفكر دون تاريخ.

وعليهم أن يذكروهم بأن القاعدة العامة التى تحكم مغفرة الذنوب والتنازل بالتوبة عن الحقوق، هى : أن ما كان من حقوق الله تعالى قبل الإقلاع عن الذنب أو الكفر فإنه يسقط عن التائب رحمة من الله وفضلاً، وأن ما كان من حقوق العباد، فإنه يلزمه –مهما تاب– إلا أن يسامحه صاحب الحق.

● وهذا الجبر للذنب أو الكفر بالتوبة دليله ما رواه ابن سعد بسنده عن الزبير رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «الإسلام يُجب ما كان قبله».

وفى الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما كان قبلها»(١).

د – وأن الذين كفروا إن لم ينتهوا عن كفرهم، فسوف تجرى فيهم سنّة الله فى الكافرين الذين سبقوهم، وفى هذا مزيد من الطمأنينة للدعاة ولكل العاملين من أجل الإسلام؛ نظراً لما يواجههم به أعداؤهم من تحدٍ وتضييق وتعذيب وتنكيل.

٤ – ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير** ﴾ ما يلى :

أ – أن قتال أعداء الله الكفار الذين يصدون عن سبيل الله واجب شرعى مستمر أبداً؛ حتى لا تكون منهم فتنة لأحد من المسلمين، أو حتى قيام الساعة، وذلك هو الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

● وذلك أن الأرض لن تخلو من الكافرين والظالمين الذين يتحدون الله ورسوله ويعادون المؤمنين فى كل عصر وفى كل مكان؛ لأن تلك سنة الله فى الصراع بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان، وليس يحسم شر الكفر والباطل والضلال إلا بالجهاد فى سبيل الله ليكون الدين كله لله ولتنقطع فتنة المسلمين عن الإسلام.

ب – وعلى الدعاة إلى الله أن يبصروا الناس بمعنى ﴿ **يكون الدين كله لله** ﴾ ومعنى : ﴿ **لتكون كلمة الله هى العليا** . . . ﴾ فإن فقه هذه المعانى ضرورى وموجه لأعمال المسلمين نحو ما يرضى الله تبارك وتعالى.

---

(١) ابن كثير القرشى : تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٣٠٨ والذى وجدته فى مسند أحمد : «الإسلام يجب ما قبله والهجرة تجب ما كان قبلها» وابن كثير أوسع علماً فلعله رآه فى كتاب لم أره.

● ومعنى: ﴿ يكون الدين كله لله ﴾ أى يسود دين الإسلام دين الحق، ولا ينازعه دين أو نظام أو منهج، فضلاً عن أن يحل محله أو يدعى أنه يغنى عنه أو أحسن منه.

● ولا يصل الأمر إلى ذلك إلا وتنقطع الفتنة ويأمن المسلمون على دينهم، فلا يصرفهم عنه ظالم ولا يتحداهم في تمسكهم بدينهم، وانتمائهم إليه واعتزازهم به أحد الطغاة فرداً كان أو نظاماً محلياً أو عالمياً.

● إن العجيب فى أمر هذا الزمان الذى نعيشه أن الملحد آمنٌ وأن الكافر آمن، وأن الفاحش البذىء آمِنٌ، وأن المتهجم على كتاب الله ومنهجه آمِنٌ، وأن المستهزئ برسل الله عليهم الصلاة والسلام آمِنٌ، وأن الزناة والفساق وشاربى الخمر، وآكلى الربا آمنون!!! وأن المؤمِنَ بالله المتمسك بدينه غير آمِن على نفسه أو عرضه أو ماله أو وطنه أو حركته وعمله!!!

● ومعنى ذلك أن المعركة بين الكفر والإيمان أشد ضراوة وأفدح تكلفة، ولكنها معركة مصير لابد من خوضها لكى تنحسم فتنة المسلمين عن إسلامهم بصرفهم عنه وتحديهم فيه، ومهما تكن تكاليف تلك المعركة فإن ثمنها أغلى ثمن وهو الجنة التى أعدت للمتقين.

● وإذا كانت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فمعنى ذلك أن يسود شرع الله وكلامه ومنهجه ونظامه، وإذا ساد شرع الله فقد انحسم الشر وانقطعت الفتنة وأمن المسلمون على أنفسهم وأعراضهم، وأموالهم وحاضرهم كله؛ لأن شرع الله لا يسمح لأحد أن يروع أحداً ولا أن يظلمه أو يحول بينه وبين حق من حقوقه الإنسانية العامة، فضلاً عن حقوقه الشخصية.

● هذا ما يجب أن يفقه الدعاة الناس إليه وأن يعلموهم التمسك به على الدوام.

جـ - وأن الكافرين قد يظهرون الانتهاء عن كفرهم - وإن أبطنوا خلافه- وعندئذ فإنهم يعاملون كمسلمين، لأن أحداً لا يستطيع أن يعلم سرائرهم أو يحاسبهم عليها -إلا الله، وقد روى ابن ماجة بسنده عن عمران بن حصين، رضى الله عنه قال: أتى نافع بن الأزرق[1] وأصحابه فقالوا: هلكتَ يا عمران.

---

(١) هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفى توفى ٦٥ هـ رأس الأزارقة وإليه ينسبون، كان أمير قومه وفقيههم وهو من أهل البصرة، صحب فى أول أمره عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وكان من أنصار الثورة على عثمان بن عفان رضى الله عنه ومن أنصار على رضى الله عنه، فلما كان التحكيم بين على ومعاوية رضى الله عنهما، نادى بالخروج على علىَ، ولذلك عرف وأمثاله بالخوارج وساند عبد الله بن الزبير فى حربه ليزيد بن معاوية ثم تركه لما لم ير رأيه فى عثمان رضى الله عنه.

قال: ما هلكتُ؟

قالوا: بلى.

قال: ما الذى أهلكنى؟

قالوا: قال الله: قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

قال: قد قاتلناهم حتى نفيناهم، فكان الدين كله لله، إن شئتم حدثتكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ.

قالوا: وأنت سمعته من رسول الله ﷺ؟

قال: نعم. شهدتُ رسول الله ﷺ وقد بعث جيشًا من المسلمين إلى المشركين، فلما لقوهم قاتلوهم قتالاً شديداً فمنحوهم أكتافهم، فحمل رجل من لحمتى على رجل من المشركين بالرمح، فلما غشيه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، إنى مسلم، فطعنه فقتله.

فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكتُ، قال: وما الذى صنعتَ؟ مرةَ أو مرتين.

فأخبره بالذى صنع.

فقال له رسول الله ﷺ: فهلا شققت عن باطنه فعلمتَ ما فى قلبه؟!

قال: يا رسول الله، لو شققت قلبه لكنت أعلم ما فى قلبه؟

قال: فلا أنت قبلت ما تكلم به، ولا أنت تعلم ما فى قلبه!!!

قال: فسكت عنه رسول الله ﷺ.

فلم يلبث يسيراً حتى مات فدفناه فأصبح على ظهر الأرض، فقالوا: لعل عدواً نبشه، فدفناه ثم أمرنا غلماننا يحرسونه، فأصبح على ظهر الأرض، فقلنا لعل الغلمان نعسوا، فدفناه ثم حرسناه بأنفسنا، فأصبح على ظهر الأرض فألقيناه فى بعض تلك الشعاب».

وفى رواية أخرى عن عمران بن حصين ذكر الحديث وزاد فيه، فنبذته الأرض، فأُخبِر النبى ﷺ فقال: «إن الأرض لتقبل من هو شر منه، ولكنّ الله أحب أن يريكم حرمة

لا إله إلا الله » .

د – وأن هؤلاء الكافرين إن لم يقبلوا هذه الفرصة المتاحة لهم بالانتهاء عن الكفر والتوبة، فإن المعركة قائمة لاشك بينهم وبين المؤمنين، وأن المؤمنين فى هذه المعركة لابد منصورون. لأن الله تعالى سوف يكون مولاهم ومؤيدهم، وناصرهم ﴿ **وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير** ﴾ .

● وإن على الدعاة إلى الله أن يعلموا الناس أن الله تعالى مولى الذين آمنوا ومؤيدهم وناصرهم، وأن الإيمان ليس كلمات يرددها اللسان ولا شعارات ترفع فى الرايات والأعلام، وإنما هو تحرير للقلب من الهوى والباطل، وتحرير للعقل من الضلال، وتوحيد لله وإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، مع ترجمة ذلك على الجوارح إلى عمل صالح يشمل كل خير يعود على الإنسان أو على غيره من الناس.

● هؤلاء هم المؤمنون الذين يواليهم الله تعالى ويؤيدهم، وينصرهم على أعدائهم كائنين من يكونون قوة وعَدَداً وعُدداً، وأن تلك المعارك فى سبيل الله تستهدف قطع الفتنة والشر وأن تكون كلمة الله هى العليا.

٩ - الآيات من الآية الحادية والأربعين إلى الرابعة والأربعين

حكم الغنائم، وحديث عن معركة بدر الكبرى

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤٤) ﴾ [الأنفال: ٤١ - ٤٤].

● تحدثت هذه الآيات الكريمة عن موضوعين:

أحدهما: توضيح الحكم الشرعي في تقسيم الغنائم.

والآخر: التذكير بما كان عليه المسلمون من حال في معركة بدر الكبرى، وبما حقق الله تعالى لهم من نصر وما أحاط به سبحانه هذا النصر من أسباب بعضها مادي ملموس، وبعضها معنوي محسوس، كل ذلك لكي ينتصر الحق على الباطل والمؤمنون على المشركين.

● وقد اشتملت الآيات الكريمة على أمر وأكثر من شرط، وعلى عدد من الأخبار المؤكدة، أو الخالية من التوكيد؛ لكونها حقائق مقررة. كما اشتملت على تعليل لعدد من الأحداث أجراها الله تعالى في هذه المعركة، مما سوف نوضحه فيما يلي والله المستعان:

- **﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، إن كنت آمنتم بالله وما أنزل على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾.**

● وفي هذه الآية الكريمة تعليم للمسلمين بحكم الغنائم، عن طريق الأمر: **﴿ واعلموا أنما غنمتم.... ﴾** بالانقياد لهذا الحكم.

- والغنيمة هى : ما أخذ من الكفار عُنوة من الأموال المنقولة .
- والفىء : أعم من الغنيمة؛ إذ هو : كل ما صار إلى المسلمين من الأموال بقهر لهم أو بغير قهر .
- وقد حكم الله تعالى فى الغنيمة بحكمه – بعد أن تساءل المسلمون عنها – فجعل خمسها لمن سماهم فى الآية والأربعة الأخماس لمن غنموها من المشاركين فى المعركة .
- وهذا الخمس يقسم – كما ذكر فى الآية على النحو التالى :

سهم لله ولرسوله – وهو واحد – قال أبو العالية الرياحى : كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة : يكون أربعة أخماسها لمن شهدها .

ثم يأخذ الخمس، فيضرب بيده، فيأخذ منه الذى قبض كفه، فيجعله للكعبة، وهو سهم الله تعالى – والله تعالى له ملك السموات وما فيهن ومن فيهن – ثم يقسم ما بقى على خمسة أسهم :

- سهم رسول الله ﷺ وليس له منه شىء يخصه وإنما هو مردود على المسلمين، فقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « ما لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم » .

وقيل هذا الخُمس : للخليفة من بعد الرسول ﷺ ،

وقيل : هو للسلاح والخيل ونحو ذلك ،

وقيل : هو فى مصالح المسلمين العامة ،

وقيل : يلحق هذا السهم بالأسهم الأربعة .

- وسهم ذوى القرى وهم : قريش، وقيل بنو هاشم وبنو المطلب ،

وقيل : ذهب ذلك بموت النبى ،

وقيل : هو لقرابة الإمام من بعد الرسول ﷺ ،

وقيل : هو للإمام يضعه حيث يشاء .

- وسهم اليتامى، وهو لليتيم الذى مات أبوه ولم يبلغ الحلم وكان مسلمًا أصلاً، أو مسلمًا تبعًا لأحد أبويه، وكان محتاجًا إلى العطاء .

• وسهم المساكين: وهو للمسكين أى المحتاج الفقير، أو من ليس عنده ما يكفى عياله، أو الضعيف الذليل.

• وسهم ابن السبيل: وابن السبيل هو الذى ينقطع به الطريق محتاجًا، وإن كان غنيًا فى بلده.

• وأجمع الآراء أن سهم الله ورسوله هو ما كان فى سبيل الله.

• وأما الأربعة الأخماس فهى ملك للغانمين من غير خلاف بين العلماء، والغانمون تقسم بينهم الغنيمة للفارس سهمان، ويأخذ الراجل سهمًا واحدًا.

ولا حظ للعبد والصبى؛ لأن العبد مستغرق بدنه بحقوق سيده، والصبى لم يبلغ حد التكليف، فليس من أهل الجهاد، إلا أن يكون مطيقًا للجهاد والقتال.

والنساء يعطَين من الغنيمة دون أن يكون لهن سهم؛ لأنهم لم يطالبن بالقتال، فإن قاتلن وكان قتالهن واجبًا دخلن فى أهل الغنائم.

– ﴿ **وإن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . .** ﴾.

أى إن كنتم مؤمنين بالله تعالى وبما أنزل على محمد ﷺ يوم الفرقان؛ أى يوم بدر يوم التقى الجمعان، فانقادوا، وسلِّموا لأمر الله تعالى فيما أعلمكم به من أحكام قسمة الغنائم.

روى الإمام أحمد بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه فقال: «إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم: الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلُّوا فإن الغلول عار ونار على أصحابه فى الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس فى الله القريب والبعيد ولا تبالوا فى الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله فى السفر والحضر، وجاهدوا فى الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجى الله به من الهم والغم».

• وإكمالاً للفائدة فى قسمة الغنائم نذكّر بأن للرسول ﷺ – غير سهمه المردود على المسلمين – الصفىّ وهو شىء يصطفيه من الغنائم لنفسه، فقد روى النسائى بسنده عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله ﷺ إلى بنى زهير بن أقيش: إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأديتم الخمس من المغنم وسهم النبى ﷺ، وسهم

الصفيّ أنتم آمنون بأمان الله ورسوله».

– ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ أي يقدر على نصركم وأنتم قليلون ذليلون، ويغنمكم ما يشاء من الغنائم، وينصر الحق على الباطل ويعلي شأن دينه ورسوله والمؤمنين.

– ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة وإن الله لسميع عليم** ﴾.

- عدوة الوادي: جانبه.
- والدنيا أي: القريبة مما يلي المدينة المنورة،
- والقصوى أي: البعيدة مما على جانب مكة، وكان الماء في العدوة التي نزل بها المشركون.
- والركب أسفل منكم: أي العير التي فيها أبو سفيان؛ حيث كانت في موضع مما يلي ساحل البحر، حيث عدل بها عن الطريق المعتاد.
- ولو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضًا لقلتكم وكثرتهم واستعدادهم وعدم استعدادكم.
- وقد سبق أن أشرنا إلى أن عسكر رسول الله ﷺ نزلوا بعيدين عن الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها رملية تغوص فيها الأقدام، وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العدد والعدة، ولقربهم من الماء وصلاحية أرضهم للمشي، ولكون العِير خلفهم، وكانوا يتوقعون منها المدد.
- ولكن الله تعالى قلب كل المعايير، وجعل النصر للمسلمين على الكافرين، وجعل من أسباب ذلك:

– أن أنزل المطر فثبت به الأقدام،

– وثبت القلوب، وأوعز إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا،

– وجعل المؤمنين يرون الكافرين قليلاً على كثرتهم ليتشجعوا على قتالهم،

– وجعل الكافرين يرون المؤمنين قليلا ليقاتلوهم ويطمعوا فيهم.

- جعل الله تعالى كل تلك الأسباب ليقضى أمرًا كان مفعولاً وهو نصر المؤمنين على الكافرين.

● وما كان هذا النصر إلا: ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىّ عن بينة** ﴾؛ أى ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.

● قال ابن إسحق فى تفسير هذه الآية الكريمة: يقول الله تعالى ما مجمله: إنما جمعكم سبحانه وتعالى مع عدوكم فى مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل؛ ليصير الأمر ظاهراً والحجة قاطعة والبراهين ساطعة ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك عن بينة: أى يستمر فى الكفر مَن استمر فيه على بصيرة من أمره إنه مبطل لقيام الحجة عليه، ويحيى من حىّ عن بينة: أى يؤمن من آمن عن بينة أى حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب»(١).

- ﴿ **وإذ يريكهم الله فى منامك قليلا، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور** ﴾.

● يمتن الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين بأنه سبحانه أرى رسول الله ﷺ أعداءه فى المنام قليلاً، حتى لا يهابهم المسلمون، فيتنازعوا فى وجوب حربهم، ويفشلوا فى لقائهم والانتصار عليهم، ويمتن سبحانه وتعالى على المؤمنين بأنه سلمهم من هذا الفشل وذلك التنازع.

● ويمتن سبحانه وتعالى على المؤمنين حين التقوا بالعدو أن أراهم العدو قليلاً -على الرغم من كثرته- وأرى العدوَّ المؤمنين قليلاً حتى يغريه بهم فتنشب المعركة، فلا يتراجع المؤمنون عن قتال الكثرة من الكافرين، ولا يتراجع الكفار عن قتال هذه القلة من المؤمنين.

وإنما كان ذلك ليقضى الله أمراً كان مفعولا وهو نصر المؤمنين وإعزاز الدين وإتمام النعمة على أهل الإيمان.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: قلت لإنسان كان بجانبى يوم بدر: أتراهم سبعين، فقال: هم نحو المائة، فأسرنا رجلاً فقلنا له: كم كنتم؟ فقال: كنا ألفًا.

(١) ابن كثير القرشى: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣١٥ مرجع سابق.

وهذا تفسير لقوله تعالى : ﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم** ﴾ وكان هذا فى ابتداء القتال، حتى قال أبو جهل فى ذلك اليوم : إنما هم أكلة جزور – أى قليلون يشبعهم لحم ناقة واحدة – خذوهم أخذاً واربطوهم بالحبال، فلما أخذوا فى القتال عظم المسلمون فى أعينهم فكثروا.

والمعنى – كما قال المفسرون – ليلقى بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر وقلله فى عينه ليطمع فيه وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعيفاً.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة كثيراً من القيم والأحكام التى إذا أخذوا بها كانوا مؤمنين مسلمين جديرين بنصر الله لهم فى كل معركة يخوضونها، مما سنوضحه فيما يلى :

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما غنتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير** ﴾ ما يلى :

أ – أن الله تعالى أَحَلَّ الغنائم للمسلمين ولم يحلها لأحد قبلهم – كما قال بذلك الرسول ﷺ – وهذا من فضل الله تبارك وتعالى على المؤمنين، وهى حلال لهم إلى يوم القيامة؛ ما داموا فى حرب مع الكافرين أعداء الله.

ب – وأن قسمة الغنائم بين مستحقيها لها نظام فى الإسلام تكفل الله تعالى ببيانه، فجعل أربعة أخماسها للمقاتلين وخمسها لله ورسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

جـ – وأن هذه القسمة يلتزم بها من كان مؤمناً بالله وبما أنزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ يوم بد : ريوم الآيات والدلائل التى أدت إلى نصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة وإنما كان ذلك؛ لأن الله تعالى على كل شيء قدير، وقد أراد ذلك وقدره فكان كما أراد.

د – وأن سهم رسول الله ﷺ المردود على المسلمين يصلح لكل حاكم مسلم من بعده؛ على أن ينفقه فى مصالح المسلمين، وليس فى مصلحته الشخصية ولا مصالح أهله وبنيه وذوى قرابته.

٢ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم**﴾ ما يلى:

أ – أن نعم الله على المسلمين المخلصين كثيرة، وأنها نعم لا تزال تحيط بهم إلى يوم الدين؛ ما داموا مخصلين يتقون الله عز وجل، ومن أجل أن يحيطهم الله تعالى بهذه النعم قد يغير لهم ما تعارف عليه الناس من معايير.

وعلى سبيل المثال فقد كان المسلمون فى بدر بالعدوة الدنيا بعيدين عن الماء، وكان المشركون بالعدوة القصوى قريبين من الماء، ومع ذلك أنعم الله على المسلمين بالنصر على عدوهم المتفوق عدداً وعدة!!!

ب – وأن تدابير الله تعالى تسبق تدابير الناس وتلغيها أحياناً مهما أحاطوها بالأسباب المؤيدة لها، وذلك معناه أن الله تعالى إذا أراد شيئًا كان، وقد أراد سبحانه أن يشتبك المؤمنون والمشركون فى معركة بدر؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىّ عن بينة، فكان ما أراد، ولو تواعد عليه المؤمنون والكافرون ما تم على هذا النحو.

جـ – وأن المسلمين يجب أن يكون من بين وسائلهم توضيح الحجج والبراهين والتدبر فيها والتأمل فى حكمتها، حتى يكونوا على علم بل يقين مما يعملون، ويكون ذلك شأنهم فى التعامل مع الناس؛ حتى يستريح كل إلى ما عمل ويتحمل نتيجته عن اقتناع وإيمان، والله تبارك وتعالى سميع لكل ما يقول الناس من كلمة عليم بكل ما يقولون وما يعملون بل ما يضمرون.

٣ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور**﴾ الآيات ... إلى قوله تعالى: ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ ما يلى:

أ – أن الله تعالى قد أنعم على المسلمين بأن أرى النبى ﷺ فى المنام أعداءه قليلى العدد

- قبل خوض المعركة - حتى لا يختلف المسلمون أو يتنازعوا فى أمر الاشتباك معهم فى قتال؛ نظراً لما كان عليه الكفار من كثرة فى العدد والعدد، فيحدث من ذلك الاختلاف التنازع والفشل، فكان من نعمة الله سبحانه أن سلَّم المسلمين من هذا الفشل فالتقوا بالمشركين فكان نصر الإيمان على الكفر!!!

ب - ومن نعم الله فى أثناء المعركة وبعد نشوب القتال أن أرى المسلمين أعداءهم قلة حتى يغريهم بقتالهم؛ إذ لو رأوهم كثرة لربما هابوهم فلم يقاتلوهم، فلم يحدث هذا النصر العظيم للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة.

جـ - وأن من نعمة الله على المؤمنين أن جعل المشركين يرونهم قلة فأغراهم ذلك بقتالهم، فكانت المعركة، فكان النصر، وذلك النصر هو الأمر المفعول المحقق الذى تشير إليه الآية الكريمة ﴿ **وليقضى الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور** ﴾.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

فى الآيات الكريمة كثير من القيم التربوية فى مجالى الدعوة والحركة والعمل من أجل الإسلام.

وأؤكد - أكثر من مرة - أن الدعاة والحركيين ما لم يستمدوا قيم العمل الذى يقومون به من آيات القرآن الكريم ومن سنة النبى ﷺ، فلا ينتظر من أعمالهم تلك أن تحقق كامل أهدافها، ولا أن تبلغ غايتها فى التمكين لدين الله فى الأرض.

ومن هذه القيم ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه، وللرسول ولذى القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير** ﴾ ما يلى:

أ - أن هذا الدين العظيم -الذى يدعون إليه ويعملون على أن يسود منهجه فى الناس- دين شامل كامل نظم كل شىء يتصل بحياة الإنسان فى سلمه وحربه وما يعقب هذه الحرب من نتائج كالغنائم والأسرى وغير ذلك.

فهم يدعون إلى أكمل دين وأتم نظام، ذلك الدين الذى أراد الله تبارك وتعالى أن

يكون دين الفطرة السليمة التى فطر عليها الإنسان.

ب - وأن الالتزام بكل حكم من الأحكام التى جاء بها الإسلام وبكل قيمة من قيمه هو سبب النجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة، وهو دليل على الإيمان بالله تعالى وبما أنزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ، وأنه لا إيمان بغير ذلك.

● ومعنى ذلك أنه لا يقبل من المسلم مجرد الكلام وإطلاق الشعار، وإنما يترجم ذلك الإيمان الأخذ والالتزام بأحكام الإسلام فى كل شيء.

● وأهم أعمال الدعاة إلى الله أن يكونوا أكثر الناس تمسكًا بأحكام الإسلام، وأن يعلموا الناس هذا التمسك وذلك الالتزام؛ حتى يثبت بذلك الإيمان ويتأكد الالتزام، فيتحقق وعد الله للمؤمنين بالنصر على أعدائهم فى كل معركة.

جـ - وعلى الدعاة إلى الله أن يشيدوا دائمًا بما كان فى معركة بدر من نعم إلهية على المؤمنين وما كان من المؤمنين من مواقف إيمانية وتضحيات؛ لأن معركة بدر أول معركة بين الإيمان والكفر تنتصر فيها القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وحسبها أن سماها الله تعالى «يوم الفرقان»؛ أى اليوم الذى يفرق فيه بين الحق والباطل، والحجة والشبهة، وقد كان ذلك يوم بدر إذ هلك من هلك عن بينة وحيّ مَنْ حيّ عن بينة.

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالدعوة القصوى ....**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وإن الله لسميع عليم**﴾ ما يلى:

أ - أن معركة بدر دليل على أن كل شيء فيها دبره الله، وإلا لم يلتق المتحاربون، فقد قضى الله تعالى بذلك أمرًا كان مفعولا وهو الفرق بين الحق والباطل؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيّ عن بينة.

ب - وأن الحق مهما كان واضحًا وحجته قوية فإنه يحتاج إلى قوة تؤيده وتعبر عنه وتدفع عنه أعداءه والمتحدين له، وتحدث التضحية والبذل من أجله.

● ولقد حققت القوة فى بدر مكاسب ضخمة، وقمعت البغى وأهله، ووضعت حدًا للباطل، وأعطت للحق وأهله أحسن الفرص لكى يعبر عن نفسه ويستعلى على الباطل، ويصل صوته قويًا واضحًا إلى الناس.

جـ - وأن الدعاة إلى الله يجب أن يزيد يقينهم بقدرة الله تعالى على كل شيء، ومن ذلك نصر القليل على الكثير والضعيف ماديًا على القوى الذى استجمع كل

أسباب القوة؛ لأن لله تعالى أسبابًا يراها الناس، وأخرى غير منظورة ولكنها فاعلة بإذن الله تعالى.

● وأن نصر الله للمؤمنين حقيقة مؤكدة وقريبة ما دام المؤمنون ملتزمين بما أمر الله ومنهجه ونظامه.

د – وأن رعاية الله تعالى للمؤمنين لا يحدها حدٌّ، ولا يقف أمامها عائق، فقد أعان الله جيش المسلمين فى بدر بما عوضهم عن عدم ملاءمة الموقع الذى كانوا به، وعوضهم عن قلة العَدَد والعُدَد، وأجرى على أيديهم النصر.

ب – وأن من رعاية الله تعالى للمؤمنين أن أغراهم بقتال الكفار وأغرى الكفار بقتالهم: لتكون معركة الفرقان، ولولا ذلك ما كان إلا الفشل والتنازع، ولكن الله سلم وكفل للمسلمين النصر على أعدائهم.

● وللدعاة فى هذا درس عظيم؛ فقد يغرى بهم عدوا أو ظالما جبارا فتكون منهم ضحايا، ويكون منهم سجناء ومعذبون ومشردون، ولكن سيكون النصر إن صبروا واحتسبوا ما يلقون عند الله، بعد أخذهم بالأسباب، إذ المسلم به أن كل ضربة توجه إلى الإسلام والمسلمين هى جزء من رصيد النصر سريعا ما يزيد بل يتراكم حتى يكون النصر؛ إذ المسلّم به أن النصر مع الصبر.

جـ – وأن النصر الذى يتكفل به الله تعالى للمؤمنين الصابرين ليس ضروريا أن تتساوى فيه قوى الإيمان والكفر، قوى العَدد أو العُدد؛ وإنما القلة قد تغلب الكثرة، والفقر قد يغلب الوفرة، والعصا قد تغلب السيف؛ إذا أراد الله هذا وقضاه.

● وليس معنى ذلك أن يظل المسلمون أقل عددا أو أضعف ناصرا، أو أقل استعدادا فى انتظار النصر من الله، ولكن عليهم الأخذ بالأسباب لتكثير العدد، وتطوير العدد، والبحث عن الأنصار والمؤيدين، والتطبيق العملى لقوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...» ثم يأتى نصر الله لهؤلاء المؤمنين الذين أخذوا بالأسباب، وأعدوا واستعدوا.

د – وأن من رحمة الله بالمؤمنين أن يزيل عنهم أسباب الفشل والتنازع؛ لو أنهم اتقوه والتزموا بمنهجه.

● وليس معنى ذلك أنه إذا حدث فشل أو تنازع بين المؤمنين يُعتزل العملُ من أجل الإسلام إيثارا للسلامة وبعدا عن مواطن النزاع - كما يقول بذلك عدد لا بأس به ممن يعتزلون العمل فى الصف المؤمن ويبررون لأنفسهم ما يفعلون - لأن فقه الدين وفقه الدعوة يعلمان المسلم أنه لا يعتزل إلا فى الفتنة - والفتنة معروفة مفهوم ما يحيط بها فى مختلف الظروف والملابسات - وليس منها بكل تأكيد أن يدب خلاف على سياسة فى العمل أو على مرحلة من مراحله، أو على قيادة من قياداته !!!

● إن الله تعالى يسلّم المؤمنين من أسباب التنازع والفشل ما داموا معه ومع منهجه، فتظل صدورهم سليمة نحو إخوانهم، وتظل رابطة العقيدة هى أوثق الروابط بينهم، وتظل الثوابت فى هذا الدين وفى العمل من أجله هى التى تجمع بينهم وتزيل ما قد ينشب من خلاف.

هـ - ويتعلم الدعاة والحركيون وكل العاملين من أجل الإسلام ومن أجل تمكين منهجه أن الصوارف عن العمل كثيرة وأن العقبات فى الطريق ليست قليلة، وأن الأعداء يكيدون ويستعملون البطش والقوة، وكل أنواع الضغوط على الدعاة محليا وعالميا.

● وعلى الرغم من ذلك كله فقد جرت سنة الله فى الأولين ولا تزال تجرى فى الآخرين وهى متمثلة فى آية كريمة هى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)** ﴾ [الروم : ٤٧].

إن هذه السنة الإلهية تتضمن أمرين لا مناص من حدوثهما :

أولهما :

أن الله تعالى ينتقم من الذين أجرموا - وليس هناك إجرام يوازى حرب الله ومنهجه ودعاته - وأن هذا الانتقام يأخذ عددا من الأشكال منها الهزيمة أو إبطال الكيد أو تفريق الكلمة، أو ما شاء الله تعالى من انتقام من المجرمين.

والآخر :

أن الله تعالى جعل حقا عليه أو واجبا أوجبه سبحانه على نفسه أن ينصر المؤمنين، وأن يأخذ هذا النصر عددا من الأشكال أيضا، منها النصر على العدو فى معركة أو معارك، أو تكثير عدد الملتزمين بالإسلام، أو توسعة للرزق لتنفق الأموال فى الإعداد والاستعداد، أو

ضرب الكافرين بعضهم ببعض، أو ما شاء الله من دواعى نصره للمؤمنين.

- تلك حقيقة يؤمن بها الدعاة ويعرفونها فى ماضى دعوتهم وحاضرها، ومستقبلها، لا يخالجهم فيها شك.

و - ويتعلم الدعاة من هذه الآيات الكريمة أنهم موضع رعاية الله تعالى ما داموا أولياءه، ومن رعايته لهم أن يؤهلهم لحمل أعباء الدعوة، وأن يمكنهم من تحمل مشقات الجهاد فى سبيله، وأن يُحَبِبُ إليهم البذل والتضحية فى سبيله تعالى.

- وعلى الدعاة إلى الله أن يحسنوا الظن بالله، وأن يدعوه ويتضرعوا إليه سائلين إياه النصر والتأييد مستعيذين به من كل شر، مستغفرين بالأسحار، مؤمنين بأنهم إن ينصرهم الله فلا غالب لهم، تصديقا لقوله تعالى: ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** (١٦٠) ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

١٠ - الآيات الكريمة من الآية
الخامسة والأربعين إلى الرابعة والخمسين:

نداء إلى المسلمين بالثبات في لقاء العدو، ومطالبة لهم بطاعة الله ورسوله وترك التنازع، وتحذيرهم من صفات المشركين والمنافقين، وحديث عما دار في معركة بدر.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾

[الأنفال: ٤٥ - ٥٤].

- هذه الآيات الكريمة نداء على المسلمين يتضمن مطالب عديدة، ومعاني جليلة نذكر منها ما يلي:
- الثبات أمام العدو طلبا للفلاح عند الله،
- وذكر الله كثيرا طالبا للفلاح أيضا،
- وطاعة الله ورسوله؛ في الأمر والنهي،

- وترك التنازع ودواعيه؛ لأنه يعقب الفشل وضياع الوحدة،
- والصبر على كل مكروه،
- والتحذير من صفات المشركين، وأوضحها فى هذه الآيات:

أنهم أهل بطر ورياء،

وأنهم يصدون عن سبيل الله،

وأن الشيطان يزين لهم أعمالهم ويغريهم بالشر والفساد،

- والتحذير من صفات المنافقين،
- ودعوتهم إلى التوكل على الله،
- وتعريفهم بمصير الكافرين فى الدنيا والآخرة، الذين انتهوا كما انتهى آل فرعون والذين من قبلهم الذين كفروا بآيات الله أو كذبوا بها.
- وفى الآيات الكريمة نداء موجه للمؤمنين، وأكثر من أمر، وأكثر من شرط، وعديد من الأخبار المؤكدة، وتشبيه للكافرين بآل فرعون ممن كفروا بآيات الله أو كذبوا بها، مما سنوضحه فيما يلى والله المستعان:

﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾.

- ينادى الله تعالى المؤمنين مطالبا إياهم بالثبات إذا حاربوا أى فئة من الناس، وهذا الثبات قوة معنوية تؤدى إلى زعزعة العدو، ثم إلى تحقيق النصر.

ويأمرهم سبحانه وتعالى بالإكثار من ذكر الله وسط هذه الشدائد والقتال.

وذكر الله ليس مجرد نطق باللسان ولكنه يجب أن يعمر القلب أولا، ثم تتحرك به الشفتان بعد ذلك، والذكر فى هذه الشدة يقوى العزم ويقوى الإيمان والثقة فيه سبحانه وتعالى.

وفى الثبات أمام العدو وذكر الله تعالى نجاح وفلاح وفوز على الأعداء كما تدل على ذلك السنة النبوية المطهرة.

- روى البخارى بسنده عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «يأيها الناس لا

تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قام النبي ﷺ وقال: « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم ».

وفي ذكر الله عند القتال والزحف روى الطبراني بسنده عن زيد ابن أرقم رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال قال الله تعالى: « إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه » أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي.

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾.

في هذه الآية الكريمة أمر بطاعة الله ورسوله، طاعة مطلقة في كل حين وكل حال. الطاعة لله ورسوله في كل أمر، والطاعة لله ولرسوله في كل نهي، طاعة في السلم وفي الحرب، في الأمن وفي الخوف فيما يحب الإنسان وفيما يكره.

- وتدخل في طاعة الله ورسوله طاعة الحاكم المسلم وطاعة القائد في المعركة وطاعة ولي الأمر.

وترك هذه الطاعة يؤدي إلى التنازع والاختلاف، وهذا بدوره يؤدي إلى الفشل، والفشل يؤدي إلى تبدد القوة وذهاب الوحدة ثم إلى الهزيمة في أي معركة.

- وتطالب الآية الكريمة المؤمنين بالصبر؛ الصبر عموما والصبر في القتال، وتطمئنهم إلى أن الله تعالى مع الصابرين، وحسب المؤمن هذه المعيَّة وما يصاحبها من توفيق وتأييد ونصر.

- يقول ابن كثير في التعليق على هذه الآية الكريمة: « وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك، والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهَّاب »(١).

---

(١) ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم: ٢/٣١٦. مرجع سابق.

- «ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط، وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس، وإنى جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله، والله شديد العقاب، إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم».

- يحذر الله تعالى المؤمنين وينهاهم عن التشبه بالمشركين فى خروجهم إلى بدر لقتال رسول الله ﷺ بطرا وحربا للحق وأهله؛ حيث كان المشركون قد خرجوا تصحبهم القيان والدفوف...

- يحذر الله المؤمنين من صفات المشركين، وأبرز هذه الصفات كما تدل عليها تلك الآية الكريمة:

- البطر: وهو دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها، والتصرف فيها على غير وجهها،

ومن البطر: إظهار الفخر والاستعلاء بالقوة والرياسة،

ومظاهر البطر: الحركات المتكلفة، والكلمات الرديئة.

- والرياء: وهو إظهار ما هو حسن من الصفات، وإخفاء ما هو قبيح من أجل الحصول على ثناء الناس وإعجابهم.

والمعنى: لا تكونوا أيها المؤمنون كأعدائكم المشركين الذين خرجوا إليكم فى بدر بطرين بما أوتوا من قوة ومال وشجاعة، يراءون الناس ليثنوا عليهم.

- ومن صفاتهم التى حذر الله منها: الصد عن سبيل الله، وذلك أنهم كانوا يحملون الناس على عداوة رسول الله ﷺ وتحدى ما يدعوهم إليه من حق، وإيذاء من آمنوا معه واضطهادهم.

- قال البغوى: نزلت الآية فى المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغى وفخر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم، فنصرك الذى وعدتنى».

- وكان أبو جهل ورهطه مجبولين على البطر والمفاخرة والعجب. وأما صدهم عن سبيل الله

فإنما حصل فى الزمان الذى جاءهم فيه محمد ﷺ بالإسلام فى مكة.

● والمعنى - والله أعلم -أن الله تعالى أمر المؤمنين عند لقاء العدو بالثبات والاشتغال بذكر الله والصبر، ومنعهم من أن يكون ثباتهم وصبرهم قد حملهم عليه مثل ما اعتاد المشركون من البطر والرياء، وإنما أوجب عليهم أن يكون الحامل على ذلك هو الإيمان وطاعة الله ورسوله.

- «والله بما يعملون محيط» أى عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء هزيمة وقتلا وأسرا.

- «وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال........» الآية.

تتحدث هذه الآية عن وسوسة الشيطان للمشركين بما ألقى في هواجسهم من أنهم لا غالب لهم اليوم لكثرة جموعهم ولكون الشيطان جارا لهم ومعنيا لهم، حتى لقد أصيب المشركون بالغرور.

وروى محمد بن إسحق عن عباس رضى الله عنهما: أن إبليس خرج مع قريش فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فلما حضر القتال ورأى الملائكة نكص على عقبيه وقال: إنى برىء منكم، فتشبث به الحارث بن هشام فنخر فى وجهه فخر صعقا، فقيل له: ويلك يا سراقة، على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا؟ فقال: إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب.

● وكان من مقولات إبليس: «إنى أخاف الله» وهى من مغالطاته وكذبه ليضل الناس عن الحق.

● وعندما رأى المنافقون والشاكون ما لدى المسلمين من قوة محدودة العدد، وعتاد قليل لمواجهة الكفار الذين حشدوا جموعا كبيرة وأعدوا آلة عسكرية ضخمة قالوا: لقد اغتر محمد وأصحابه بهذا الدين بل تصوروا أنهم ينتصرون به مع قلة عددهم وضعف عتادهم!!!

● ولقد ذهل هؤلاء القائلون عن عدد من الحقائق منها:

- أن المسلمين يقاتلون إعلاء لكلمة الله ودفاعا عن الحق،

- وأنهم يعتمدون على الله ويتوكلون عليه مع أخذهم بما أتيح لهم من أسباب،

– وأنهم يلحون في طلب النصر من الله تعالى،

– وأنهم بهذا كله لا يغلبهم غالب، لأن الله وعدهم بالنصر.

وما كان للكفار ولا للمنافقين أن يدركوا هذه الحقائق إلا أن يتحولوا عن الكفر والنفاق.

«إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينهم...».

- والمنافقون في هذه الآية الكريمة قصد بهم قوم من الأوس والخزرج رددوا هذا الكلام.
- والذين في قلوبهم مرض، هم قوم من قريش أسلموا وما قوى إسلامهم في قلوبهم حتى يهاجروا، فبقوا في مكة مخالفين الأمر بالهجرة.
- ثم إن قريشا لما خرجوا لحرب رسول الله ﷺ، قال أولئك الذين في قلوبهم مرض –ممن تركوا الهجرة:– نخرج مع قومنا، فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه، وإن كان في قلة أقمنا في قومنا.
- قال محمد بن أسحق: ثم قتل هؤلاء جميعا مع من قتل من المشركين يوم بدر.
- ومعنى: غر هؤلاء دينهم –كما قال ابن عباس رضى الله عنهما – أن النبي ﷺ خرج في ثلاثمائة وبضعة عشره يقاتلون ألف رجل، وما ذلك إلا لأنهم اعتمدوا على دينهم.

– «ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم» أي: من يُسلم أمره إلى الله ويثق بتفضله ويعول على إحسانه، فإن الله حافظه وناصره؛ لأنه سبحانه عزيز لا يغلبه شيء وحكيم يوصل العذاب إلى أعدائه والتوفيق والنصر إلى أوليائه.

– «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد».

- في الآية الكريمة الأولى من هاتين الآيتين بيان لحال الذين كفروا يوم القيامة، حيث تضرب الملائكة وجوههم وأقفيتهم –وقد تكون أدبارهم بمعنى أستاههم – ويقال لهم حينئذ ذوقوا عذاب الحريق.

والمعنى: لو رأيت أيها المخاطب ذلك لرأيت أمرا عظيما ونهاية مؤسفة لهم، كان من شأنها –لو علموا– أن تردهم عن الكفر إلى الإيمان، وكل ذلك يحدث في الآخرة.

- ويروى أن هذا الضرب كان في معركة بدر، ولكنها رواية ضعيفة استندت إلى حديث مرسل عن الحسن البصري، ومراسيل الحسن رحمه الله ليس لها وزن يذكر عند المحدثين.

وسياق الآية وإن كان فى معركة بدر إلا أنه عام فى كل كافر، وقد جاء مثل هذه الآية فى المعنى دون الإشارة إلى معركة بدر فى قوله تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧)** ﴾ [**محمد**: ٢٧].

- « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد »؛ أى أن هذا الجزاء من ضرب الوجوه والأدبار بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة التى كان على رأسها الكفر، وقد جازاكم الله بها وهو العادل الذى لا يظلم أحدا من خلقه، وقد قال تعالى فى تحريم الظلم على نفسه وعلى خلقه، فيما رواه مسلم بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: « إن الله تعالى يقول: يا عبادى إنى حرمتُ الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا.. »، ثم يقول الله تعالى فى آخر هذا الحديث القدسى العظيم: « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ».

- « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب ».

● أى فعل الله بمشركى العرب وكفارهم مثل ما فعل بآل فرعون والذين من قبلهم لما كفروا بآيات الله؛ أخذهم الله بذنوبهم، فكان الأخذ بالإغراق والإهلاك جزاءً عادلا على الكفر والجحود بالله العظيم، وتلك سنة الله فى الذين كفروا دائما، سنة لا تتخلف فى زمان أو مكان.

● ولا ينبغى أن يغتر كافر أو ظالم بأن الله أمهله فلم يأخذه فى الدنيا بما فعل، فإن إمهاله لا يعنى تركه دون أخذ وعذاب وإنما هى فرصة يتيحها له لعله يرجع عن كفره وفساده، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى موسى رضى الله عن رسول الله ﷺ قال: « إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ».

● ومع كفرهم وعنادهم فإن الله لم يحرمهم عددا من النعم الدنيوية كالحياة والمال والجاه، والأسرة والنسل؛ تفضلا منه وحلما عليهم وصبرا على سيئ أعمالهم.

● ولكنه سبحانه وتعالى لا يغير هذه النعم على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

- « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ».

تلك سنة من سنن الله تعالى، لا يغير نعمة أنعمها على قوم نقمةً عليهم؛ إلا إذا عملوا شرا فاستحقوا العقاب، فقد أخذ الله قريشا فى بدر بعد أن أنعم عليهم بنعمة الكثيرة التى على رأسها بعثه خاتم النبيين ﷺ منهم، ولكنهم كفروا وعاندوا فغيروا ما بأنفسهم من الأحوال فاستحقوا عقاب الله؛ لأنه تعالى «سميع» لأقوالهم، «عليم» بأحوالهم وأعمالهم وكفرهم بما أنعم الله عليهم.

– «كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون، وكل كانوا ظالمين».

- هذا تأكيد لجريان سنة الله تعالى فى خلقه: أن يأخذ من كذبوا بآياته فيهلكهم بالغرق أو نحوه، كما كان الحال مع آل فرعون؛ إذ كذبوا فأغرقهم ونجى موسى عليه السلام ومن معه.

وهذا نوع من العذاب يختلف عن عذاب الاستئصال؛ لأن عذاب الاستئصال خاص بمن طلبوا من رسلهم الآيات فأنذرهم الرسل عليهم السلام بالاستئصال لو كفروا بهذه الآيات، فكفروا بها فاستؤصلوا كثمود قوم صالح عليه السلام؛ إذ كذبوا بالناقة وعقروها وعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الرجفة[1].

- وكلمة «كدأب آل فرعون» تكررت فى هذه السورة الكريمة مرة مع كفرهم ومرة مع تكذيبهم.

والكفر يعنى إنكار الدلائل الإلهية،

والتكذيب يعنى إنكار دلائل التربية والإحسان إليهم مع كثرتها وتواليها عليهم، فكان الأثر اللازم من الكفر هو الأخذ، والأثر اللازم من التكذيب هو الإهلاك والإغراق.

- والأخذ فى الآية الكريمة معناه: حوز الشىء وتحصيله بالقهر، وقد قهرهم الله تعالى بالعذاب والإهلاك على نحو ما أوضحت هاتان الآيتان الكريمتان.

– «وكل كانوا ظالمين» أى كل من كفار قريش وكفار آل فرعون كانوا ظالمين؛ أى ظالمين لأنفسهم بالكفر والتكذيب واستحقاق العقاب، وظالمين لغيرهم من الناس بسبب الإيذاء والصرف عن الدين، وبسبب الإفحاش، والتعذيب والتنكيل من أجل ترك الدين، فكفار

---

(١) جاء الحديث عن الناقة وعقرها فى سور: الأعراف وهود والإسراء والشعراء والقمر، والشمس.

قريش فتنوا المؤمنين وعذبوهم ليعودوا إلى الكفر، وفرعون وآله صلبوا المؤمنين فى جذوع النخل.

● وللإمام فخر الدين الرازى فى تفسير هذا قول حيث يقول: «وأقول فى هذا المقام: اللهم أهلك الظالمين وطهر وجه الأرض منهم، فقد عظمت فتنتهم وكثر شرهم، ولا يقدر أحد على دفعهم إلا أنت، فادفع يا قهار يا جبار يا منتقم»(١).

وكان الرازى يعيش فى زمن الحروب الصليبية، فقد ولد سنة ٥٤٤ هـ، وتوفى ٦٠٤هـ، وكانت الحروب الصليبية من سنة ٤٩٢ هـ إلى سنة ٦٩١ هـ.

● ونحن اليوم نقول قوله بل أكثر منه؛ لأننا نعيش زمن قهرنا بحروب يهودية تؤيدها صليبية غاشمة عمياء، لا نقدر اليوم على دفعها، فاللهم ادفع عنا الصهيونية والصليبية والنظام العالمى الجديد، والولايات المتحدة الأمريكية، فإنهم جميعا أعداء ألداء للإسلام والمسلمين، ولا يحتاج أحد ممن يعاصروننا فى هذه الحقبة من الزمان (العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى، والعقد الثانى من القرن الخامس عشر الهجرى) إلى كثير كلام لإثبات عداوة كل هؤلاء لنا.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

هذه الآيات الكريمة تحفل بالمعانى التربوية التى لابد منها لكى يمارس الناس حياتهم على نحو إنسانى راشد قادر على بث الخير والهدى بين الناس، مما سنوضحه بإذن الله فيما يلى:

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون» ما يلى:

أ - إن المؤمنين فى حياتهم يواجهون صراعا وأعداء ليسوا بالقليلين وأنهم قد يشتبكون معهم فى معارك، وأن هؤلاء الأعداء فئات وشكول، وذلك قدر المؤمنين فى كل زمان ومكان؛ إذ لابد من صراع بين الإيمان والكفر، وإلا ما تميز الخبيث من الطيب، ولما عُرف الصادقون فى جهادهم من الكاذبين.

---

(١) الإمام فخر الدين الرازى: الفتح الكبير: ١٥/ ١٤٥. مرجع سابق.

● ولا عجب فى استمرارية هذا الصراع بين الإيمان والكفر ولكن العجب من توقفه.

● وعلى كل مؤمن أن يستوعب أبعاد هذه القضية ويفكر جيدا فى أسباب هذا الصراع، وأن يحد لنفسه مكانا فيه، وأن يستعد لخوضه بما أوتى من قوة مادية ومعنوية.

ب - وأن هذا الصراع أو تلك الحرب لها أحكام وشروط وآداب، وأن على كل مسلم أن يلتزم بهذه الأحكام ويحقق تلك الشروط ويتحلى بهذه الآداب.

● ومن أبرز أحكام هذه الحرب: الثبات فيها أمام العدو فقد جاء الثبات بصيغة الأمر، واعتبر الفرار أو التولى من أكبر الكبائر؛ إذ هو مما يجلب غضب الله تعالى: ﴿ **وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** (١٦) ﴾ [**الأنفال**: ١٦].

جـ - وأن ذكر الله تعالى فى كل حين وفى كل حال مطلب شرعى وأنه يؤدى إلى النجاح والفلاح أى الفوز والنصر.

● وذكر الله تعالى عبادة وتقرب إليه سبحانه، وسبب فى غرس الطمأنينة فى القلوب: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** (٢٨) ﴾ [**الرعد**: ٢٨].

● وطمأنة القلب التى يجلبها الذكر تطرد الخوف والقلق. وليس أحوج إلى طرد الخوف والقلق من المقاتل فى المعركة، ومن هنا كانت المطالبة بذكر الله كثيرا طلبا للفلاح فى المقاصد وتحقيق الأهداف.

٢ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: «وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين» ما يلى:

أ - أن طاعة الله ورسوله أوجب الواجبات على المسلم، الطاعة لكل أمر والطاعة لكل نهى، والطاعة على كل حال، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى بل هى طاعة الله تعالى؛ لأن الله تعالى لم يأمرنا ولم ينهنا إلا من خلال ما بلغنا به محمد ﷺ عن ربه سبحانه وتعالى.

ب - وأن التنازع بين المسلمين من الكبائر المنهى عنها «ولا تنازعوا...»، والتنازع غير اختلاف الرأى ووجهات النظر، فهو تشاجر وتضارب وتعارك يؤدى إلى تخاصم وتقاطع وتدابر، وكل ذلك منهى عنه؛ إذ لا يجوز أن يكون بين المسلمين.

● والتنازع يؤدى إلى الفشل، ويؤدى إلى تبديد القوى وضياع الهيبة أمام الأعداء، والأصل في المسلمين أن يكونوا قوة موحدة وأن تكون لهم هيبة فى نفوس أعدائهم.

جـ - وأن الصبر عموما والصبر فى مواطن الحرب مطلب رئيس أمر الله تعالى به أمراً صريحاً «واصبروا...»، إذ الصبر من أنبل الأخلاق وأرفعها مقاما، الصبر بكل أنواعه الصبر مع الحق والصبر على محاربة الشيطان وشهوات النفس، والصبر فى الحرب على البذل والتضحية، وجزاء الصبر عند الله أكرم جزاء وأحسنه وأوفاه ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)**﴾ [الزمر: ١٠].

● ولا عجب فى أن يكون الصبر له أحسن الجزاء وأكبره، فإن الصبر هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، والصبر دائما يضفى على صاحبه مزيدا من احترام الآخرين وحسن تقديرهم، بالإضافة إلى ما فيه من مرضاة الله تعالى.

د - وحسب الصابر فخرا وعزا أن الله تعالى معه، ومعية الله تعالى أمان من كل شر، وضمان لكل خير «إن الله مع الصابرين» ومن كان الله معه فإن النصر معه فى كل معركة يخوضها فى حياته.

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: «ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط، وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم....» إلى قوله تعالى: «... والله شديد العقاب» ما يلى:

أ - إن هناك صفات يجب أن يتخلى عنها المسلمون؛ إذ هى من صفات الكفار والمنافقين، وتلك الصفات الواردة فى الآية هى:

- البطر وهو سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها، وصرفها إلى غير وجهها.

- والرياء وهو القيام بعمل لطلب ثناء الناس واستحسانهم وهو من النفاق.

- والصد عن سبيل الله، أى صرف الناس عن الحق وفتنتهم فى دينهم، وتحدى منهج الله ونظامه.

وقد كان كفار قريش وهم خارجون إلى بدر متصفين بكل هذه الصفات وهى صفات تردى من اتصف بها، ولا يجوز لمسلم أن يتصف بها.

ب - وعلى المسلمين أن يحذروا وساوس الشيطان وتزيينه للباطل والهوى والشر، وللشيطان وسوسته وهمزه ولمزه وإغواؤه.

● وقد ركب الشيطان كفار قريش وزين لهم أعمالهم وخدعهم عن أنفسهم وزعم أنه جار لهم ومعين، وأنه لا غالب لهم من الناس!!!

● والشيطان دائما يوسوس بما يغضب الله ويغرى بانتهاك محارمه سبحانه وتعالى، ولذلك كان اتخاذ الشيطان عدوا مطلبًا قرآنيًا، لأن عداءه للإنسان أصيل: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** (٦) ﴾ [فاطر: ٦].

جـ – وأن هذا الشيطان سريعا ما ينكص على عقبيه، ويتبرأ ممن كان قد أغواهم، ويزعم العلم والمعرفة، بل يزعم أنه يخاف الله، يفعل ذلك عندما يعاين شيئا من آيات الله وعلامات نصره وتأييده لعباده المؤمنين.

● تلك صفات الشيطان وهذه أعماله، وهو العدو الأول لكل مؤمن، وإن كل صفة مذمومة عند الشرع وعند العقل إنما هى من صفات الشيطان، وما ينبغى لمؤمن أو لعاقل أن يتصف بها.

● ومن أبرز صفات الشيطان الكذب؛ إذ يزعم فى هذه الآية الكريمة أنه يخاف الله، ولو كان صادقا لأطاع الله عندما طلب منه السجود لآدم، ولما أغرى كفار قريش بقتال المسلمين!!!

د – وأن الله تعالى شديد العقاب لكل من خالف أمره أو نهيه أو وسوس بشر أو أغرى به غيره، وشديد العقاب لكل من حاربه وعادى دينه ومنهجه وحاد أولياءه.

● والله شديد العقاب لكل من عصاه وخالف شرعه ومنهجه، ومعنى ذلك أن يطمئن المؤمنون إلى عدل الله تعالى وإنصافه وانتقامه من أعدائه.

٤ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: «إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم» ما يلى:

أ – إن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض فى كل عصر هم هم بكل صفاتهم، يتصورون أن المؤمنين مغرورون بدينهم وبما وعدهم الله تعالى من تأييد ونصر.

● وقد أرجف المنافقون والذين فى قلوبهم مرض، متمنين الشر للمسلمين ولا يفترون عن هذا العمل، ولا يتوانون فى إطلاق التهم وشن الهجمات الإعلامية على الحق وأهله. إذ أشاعوا – بعد ما رأوا إقدام المسلمين على خوض معركة بدر، مع قلة عددهم وعتادهم، وكثرة عدد الكفار وعدتهم –أشاعوا أن المسلمين قد غُرّوا بدينهم وتصوروا أنهم ينتصرون على المشركين!!!

ب – ويدخل فى المنافقين والذين فى قلوبهم مرض اليهود، فهم أهل هذه الصفات على طول تاريخهم وتعاملهم مع الناس عموما ومع النبى ﷺ والمسلمين فى المدينة المنورة.

- والمنافقون والذين فى قلوبهم مرض واليهود هم دائما أعداء الحق، وأعداء الله وأعداء كل مؤمن، ذلك شأنهم وتلك طبيعتهم التى طبعوا عليها، وعلى المسلمين أن يعوا ذلك، ويعملوا ما وسعهم على إفساد خططهم وتدبيراتهم، وألا يأمنوا لهم جانبا وألا يصدقوا لهم كلمة أو وعدا.

جـ – ويتعلم المسلمون أن التوكل على الله صفة المؤمنين، ومن توكل على الله فى أمر كفاه الله مئونة الأمر وأيده بروح منه، فمن توكل على الله منحه الله العزة فلا يغلبه أحد، ومنحه القوة وهيأ له الدواعى والأسباب.

- ومن توكل على الله بعد أخذه بالأسباب فقد استفاد من حكمة الله البالغة التى تقصر عن إدراكها العقول، وتحقق له ما يريده الله لعباده المؤمنين.

وقد روى ابن ماجة بسنده عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « .... ومن توكل على الله كفاه».

وروى الترمذى بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصا وتروح بطانا».

ه – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد» ما يلى:

أ – أن يد الله وبطشه لا يفوتهما أخذ الظالمين فى الدنيا – والكافرون ظالمون – كما قال تعالى ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٢٥٤) ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. يأخذ الظالمين فى الدنيا بإيقاع الهزائم بهم، وفى الآخرة بأن ينزل بهم أشد العقاب.

- وفى هذا ما يطمئن المسلمين على مصيرهم، ومآل الظالمين، فهو سبحانه مع المؤمنين وضد الكافرين.

ب – وأن هؤلاء الكافرين تضربهم الملائكة فى وجوههم وأقفيتهم أو أستاههم ضرب

إيجاع ومذلة ومهانة، قائلين لهم: ذوقوا عذاب الحريق، وهذا القول يوم القيامة حيث يدخلون جهنم لا يخرجون منها أبدا.

● والكفار الذين يحدث لهم هذا العذاب، إنما يستحقونه بما قدمت أيديهم، وبما كسبت جوارحهم من إثم وشر.

● وتلك هى العدالة الإلهية حيث لا يعاقب الله أحدا إلا بما قدمت يداه، فهو سبحانه ليس بظلام للعبيد، فلينظر كل مسلم ما قدمت يداه فإنه سوف يجازى عليه.

جـ – وأن ما أصاب المشركين فى بدر من هزيمة، وما سوف ينتظرهم يوم القيامة من عقاب إنما هو من سنة الله تعالى التى أجراها على الكافرين المكذبين لرسله عليهم السلام، والكافرين الذين يعادون الحق وأهله إلى يوم القيامة.

٦ – ويتعلمون من قوله تعالى: « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . . » إلى قوله تعالى: « وكل كانوا ظالمين » ما يلى:

أ – أن ما جرى على الكفار فى بدر من هزيمة هو من سنة الله التى أجراها على كل كافر كآل فرعون الذين كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم أى بكفرهم فى الدنيا، كما ينتظرهم عذاب الحريق فى الآخرة.

● وهذا من شأنه أن يؤكد للمسلمين سوء مصير الكافرين فى الدنيا والآخرة.

ب – وأن آل فرعون الذين كانوا فى ﴿ **جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧)** ﴾ [**الدخان** : ٢٥ – ٢٧].

قد أخذوا بما كانوا يكفرون بآيات الله تعالى، وتلك سنة الله فى الذين خلوا من قبل.

جـ – وأن هؤلاء الفراعنة الذين كانوا فى نعمة من الله ورزق وخير وجنات وعيون، قد غير الله عليهم هذه النعمة وحولها إلى نقمة، لأنهم غيروا ما بأنفسهم، من فطرة فطرهم الله عليها كانت تقتضى منهم الإيمان بالله، فلم يؤمنوا، ولكن كفروا بآيات الله وكذبوا رسله.

د – وأن هؤلاء الفراعنة – كالذين من قبلهم – كذبوا بآيات الله فأهلكهم بذنوبهم، وأغرق آل فرعون بمعجزة شق البحر بعصى موسى لينجو ومن معه ويغرق فرعون وجنوده، وذلك جزاء الظالمين للحق ولأنفسهم.

● فليكن المسلمون على حذر من أن يغيروا ما بأنفسهم من سلامة الفطرة التى فطر الله الناس عليها، حتى لا يغير الله ما بهم من نعمة.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

وهى مواقف كثيرة تضيىء الطريق أمام الدعاة إلى الله، وتهدى الحركيين فى خطواتهم نحو التمكين لدين الله فى الأرض، وتزود التربويين بخير زاد فى عملهم التربوى المستمر من أجل تكوين المجتمع المسلم القادر على تطبيق شريعة الله فى نظمه وقوانينه، مما سوف نذكر بعضه فيما يلى، والله الموفق.

١ - يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ ما يلى:

أ - وجوب الثبات والصبر والاحتمال عند لقاء فئة من أعداء الله أعداء الحق وأهله، وأعداء منهج الله ونظامه ودعاته.

● وهذا الثبات الواجب بهذه الآية وبغيرها من الآيات له مجالات يجب أن يتأكد فيها، وليس مجرد الثبات فى أرض المعركة وحدها، وإنما هو الثبات فى مواجهة كل عدو، والثبات فى كل موقع من مواقع العمل من أجل الإسلام على نحو ما نبين فيما يلى:

- الثبات فى مجال الدعوة إلى الله عند مواجهة أعدائها الذين يحولون بين الدعاة وبين ممارسة الدعوة، بل يجبرون الدعاة ويقهرونهم على ترك الدعوة إلى الله.

● الثبات أمام هؤلاء بالاستمرار فى الدعوة إلى الله دون تراجع أو نكوص أو خوف مما يقوم به الأعداء.

● والثبات أمام من يحظرون الدعوة إلى الله زاعمين أنها تسييس للدين، وعمل دينى سياسى محظور، تتكاتف على حظره الصهيونية والصليبية والنظام العالمى الجديد.

● الثبات فى مجالات الدعوة كلها: الدعوة الفردية والدعوة فى إطار مجموعة من الأفراد، والدعوة العامة.

● وذلك أن الدعوة إلى الله هى الدعوة إلى تبنى منهجه ونظامه والتقيد بأحكامه وآدابه

والالتزام بأخلاق الإسلام فى كل حال، وليس هذا بتسييس للدين مهما زعموا ومهما حظروا، ولكنه دعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وجدال بالتى هى أحسن؛ حتى يستقيم الناس على الصراط المستقيم - صراط الله، وحتى يحل الأمن والوئام والأخوة فى الإسلام بين المسلمين.

- والثبات فى مجال الحركة من أجل هذا الدين، مهما زادت الصوارف عن العمل فى الحركة الإسلامية، الثبات بمعنى الإصرار على الاستمرار فى جمع الناس على الحق والخير والهدى، وفى تقديم الخير والنفع لهم وفى تحبيبهم فى فعل الخير، وفى التعرف على طاقاتهم وإمكاناتهم وحسن توظيفها فيما يرضى الله وفيما يعود عليهم وعلى دينهم ودنياهم بالخير والفائدة.

● الثبات والاستمرار فى التنسيق بين جهود الأفراد والمجموعات، بحيث يحدث فيما بينهم تكامل لمتطلبات العمل من أجل الإسلام، فتسد كل ثغرة فى العمل لوجود من يقدر على سدها والقيام بأعبائها.

● ومن المسلم به أن مفردات العمل من أجل الإسلام كثيرة، بل متشعبة تتناول كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية، بحيث يصبح هذا الجانب إسلاميا أى خاضعا لمنهج الإسلام وقيمه وقادرا على تحقيق أهدافه.

● وهذه الجوانب الكثيرة المتشعبة تضم الفرد والأسرة والجماعة والمجتمع كله نظامه وفيمه وسياسته واقتصاده، وفكره وثقافته، كل تلك الجوانب وغيرها يجب التحرك فيها وفى أهلها لكى تصطبغ بصبغة الإسلام وتستهدى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لتستقيم مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

● يجب الثبات أمام الفئة أو الفئات التى تحول بين الدعاة والحركيين وبين القيام بواجبات الحركة، يجب هذا الثبات؛ لأن الله تعالى يقول: «إذا لقيتم فئة فاثبتوا» ما دام المؤمنون على الحق فيجب عليهم أن يثبتوا عليه أو يموتوا دونه، فتلك من أبرز صفات المؤمنين الذين يعملون الصالحات: التواصى بالحق والتواصى بالصبر على التمسك بهذا الحق مهما بلغت التضحيات.

- والثبات فى مجال التربية، تربية الناس صغارا وكبارا تربية إسلامية نابعة من منهج الإسلام فى الحياة، والفئة التى تقاوم هذه التربية من أقوى الفئات وأضراها وأكثرها قدرة على

التحدى، ومن وهنا كان الثبات أمام هذه الفئة من أهم أنواع الثبات.

- والتربية الإسلامية هى الشغل الشاغل للدعوة والحركة، وهى وحدها تحتاج إلى عديد من أنواع الجهد العلمى والفنى والعملى والخلقى والاجتماعى والثقافى والسياسى والاقتصادى.

- وليست التربية الإسلامية كلمات تُلقن، ولا عبارات تُحفظ وتردد، ولكنها عمل ضخم ذو مفردات يخضع لترتيب بعينه وتحكمه قيم، وتسيطر عليه أولويات بعينها، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن التربية تحتاج إلى:

تخطيط،

وتوجيه،

وتوظيف،

وتنظيم،

وتنسيق

وتدريب،

وتوريث،

وتقويم،

وترشيح،

وكل مفردة من هذه المفردات تخضع لمنهجها العملى النابع من قيم الإسلام المودعة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة[1].

ب - ويتعلم الدعاة والحركيون والتربويون أن الثبات على الحق فى مواجهة الباطل

---

(١) لنا فى ذلك دراسات عديدة فى عديد من مؤلفاتنا، وانظر على سبيل المثال:

- تربية الناشئ المسلم،
- منهج التربية عند الإخوان المسلمين
- فقه الدعوة الفردية،
- التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة،
- وسائل التربية عند الإخوان المسلمين،
- فقه الأخوة فى الإسلام،
- فقه الدعوة إلى الله،
- المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله،
- فقه المسئولية،
- ما صدر من سلسلة مفردات التربية الإسلامية.

مطلب إيمانى لا يكمل الإيمان إلا به؛ لأنه جاء فى هذه الآية بصيغة الأمر «فاثبتوا»، ومخالفة الأمر قد تكون كفرا أو معصية وفسوقا، وهى على كل حال إثم ومخالفة لأمر الله تعالى لا يجوز أن تكون من صفات المؤمن.

● والدعاة إلى الله ينتصرون فى كثير من معاركهم مع الباطل إذا كان الثبات لهم خلقا وطبعا مهما قل عددهم وعدتهم، ولو أصبح الثبات صفة ثابتة فيهم وعرف ذلك أعداؤهم لكفوا عن خوض كثير من المعارك ضدهم.

جـ – وأن ذكر الله تعالى يجب أن يكون دائما وكثيرا، وأن يصحب كل عمل وكل حركة، فضلا عن كل حرب وكل قتال، وذكر الله دعاء له وابتهال إليه، ويكون الدعاء أجدر بالإجابة فى أمرين حددهما الحديث النبوى الشريف، فقد روى الحاكم بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا يُردان: الدعاء عند النداء[1] وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا».

وقال قتادة –رحمه الله– قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون» افترض الله تعالى ذكره عند أشغل ما تكونون: عند الضراب بالسيوف».

د – وعلى الدعاة إلى الله أن يدركوا أنه لا فلاح لهم ولا فلاح لأى مؤمن إلا بأمرين ذكرتهما هذه الآية الكريمة:

● الثبات أمام أى عدو،

● وذكر الله كثيرا.

● والذكر له مكانة كبيرة عند الله تعالى فهو عبادة، بل هو من أيسر العبادات على المؤمن إذا استحضر قلبه وشغل فكره ولسانه، فما ينبغى أن تخلو ساعة من حياة المؤمن من ذكر، وليستعن الدعاة بهذا الذكر على كل المشكلات التى تعترضهم، مع أخذهم بباقى الأسباب.

٢ – ويتعلم الدعاة من قوله تعالى: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾ ما يلى:

---

(١) النداء: هو الأذان.

أ - إن طاعة الله تعالى فيما شرع، وطاعة رسوله ﷺ فيما بلغ عن ربه وفيما أرشد إليه من خير، كل تلك الطاعة واجبة على المؤمنين جميعا، والدعاة إلى الله على وجه الخصوص؛ إذ هم ورثة الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.

ب - وأن ترك التنازع أصل فى خلق المؤمن؛ لأن الله تعالى نهى عنه؛ لأن التنازع تخاصم وتقاطع وتدابر وعراك وكل ذلك حرام بين المسلمين يأثم من يحركه، فضلا عن أن يحرض عليه.

- وأن النتيجة المحتومة للتنازع هى الفشل.

والفشل هو الضعف عن جهاد العدو والثبات أمامه، مما يؤدى إلى الانكسار للأعداء والانهزام أمامهم.

- ومن المعروف أن العمل من أجل الإسلام ملىء بدواعى التنازع المؤدى إلى الفشل؛ بسبب ما يحيط بهذا العمل من أعداء يتربصون، وأولياء غافلين أو جاهلين.

ومن أجل هذا كان على الدعاة إلى الله أن يتجنبوا كل أسباب التنازع والتخاصم والتقاطع؛ تجنبا للفشل وخيبة المسعى، فإنه ما من تنازع وتخاصم بين المسلمين إلا ومعه فشل.

- وإن الدعاة إلى الله مطالبون بالتعامل مع الأعداء وبالثبات أمامهم، فكيف يكون ذلك وهم متنازعون؟.

بل إن التعامل مع الأولياء يحتاج إلى ترك التنازع والبعد عن أسبابه.

- وحسب العاملين من أجل الإسلام اليوم تأكيدا لترك التنازع أن عدوهم اليوم أكبر وأقوى من عدوهم بالأمس؛ إذ كان العدو فى الماضى متمثلا فى قوتين كبيرتين هما: دولة فارس ودولة الروم.

أما اليوم فإن العدو صهيونية عالمية منتشرة فى معظم البلاد، وصليبية حديثة تدين بها شعوب تبلغ نصف سكان العالم، واتحاد لدول أوربا، والولايات المتحدة الأمريكية، والنظام العالمى الجديد، والتحالف الشرير - الحاقد على كل ما هو إسلامى - بين اليهود والولايات المتحدة الأمريكية.

- هذا العدو يصر اليوم على أن العالم الإسلامى هو العدو البديل لما كان يعرف بالاتحاد

السوفيتى!!!

- وحسب العاملين من أجل الإسلام لترك التنازع، ما يوجهه إليهم عدوهم من تهم ومفتريات يكيلها جزافا ويصر على إلصاقها بالمسلمين، تعينه على ذلك أجهزة الإعلام ووسائله التى يسيطر عليها وينشرها فى العالم كله، ويبث فيها كثيرا مما يفسد العقيدة وينحرف بالسلوك عن الجادة.

هذه التهم وتلك المفتريات توظف لتشويه الإسلام أولا، ولإضعاف المسلمين، ويرددونها فى وسائل الإعلام حتى لتكاد تلتصق بالمسلمين من أمثال:

الأصولية، والتعصب، والرجعية، والغيبيات، والظلاميات، والتطرف، والعنف، وغير ذلك من الأوصاف الظالمة الكاذبة العارية عن أى مصداقية.

- وحسب العمل من أجل داعية لترك التنازع والفشل أن ينتسب إليه بالباطل من يروعون الناس ويقتلون الآمنين والأبرياء نكاية فى خصم سياسى يرونه عقبة فى طريقهم!!!

- إن الإسلام برىء من كل هذه الأعمال؛ لأن حرمة النفس فى الإسلام أعظم من حرمة الكعبة المشرفة ذاتها، فقد روى ابن ماجة بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ -عندما نظر إلى الكعبة- : «ما أطيبك وأطيب ريحك! ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمتك، ماله ودمه وأن يُظن به إلا خيرا».

وروى الطبرانى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، وحرمة ماله كحرمة دمه».

- ألا يوجب ذلك كله على الدعاة والحركيين أن يتجنبوا أسباب التنازع والفشل؛ حتى لا يكونوا -إذا لم يتجنبوها- عوناً لأعدائهم على أنفسهم!!!

جـ- وأن الصبر خلق المؤمنين عموما وخلق الدعاة على وجه الخصوص، وقد وعد الله تعالى فى الآية الكريمة الصابر بمعية الله تبارك وتعالى «واصبروا إن الله مع الصابرين».

- وليس كالصبر صفة أنفع وألزم للدعاة فى كل مجالات أعمالهم من دعوة وحركة وتربية وجهاد لأعداء الله.

- فهم فى الدعوة مطالبون بالصبر على المدعوين حتى يستوعبوا ويلتزموا ويحسنوا الانتماء إلى الإسلام بأعمالهم وسلوكهم. فمن لم يصبر على مدعوه لم ينجح فى الوصول به إلى الالتزام.

● والصبر فى الدعوة من صفات الأنبياء جميعا، ومن صفات أولى العزم منهم على وجه الخصوص، فقد طولبوا بالصبر على المدعوين وترك اليأس من استجابتهم، فضلا عن الدعاء عليهم وطلب العقاب لهم من الله تعالى، فقد قال الله تعالى مخاطبا خاتم رسله عليه السلام: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ..... (٣٥)** ﴾

[**الأحقاف**: ٣٥].

● والصبر فى مجال الحركة على مستوى الدعوة الفردية وعلى مستوى المجموعة والجماعة والمجتمع، فكيف تكون حركة دون صبر؟.

● والصبر فى مجال التربية، إذ كيف تكون تربية دون صبر من المربى على من يربيه؟.

● ولقد جاء الصبر فى بعض آيات القرآن الكريم التى نعدها دستورا للدعاة إلى الله يوضح لهم وسائل الدعوة إلى الله، تلك الآيات الكريمة هى قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)** ﴾ [**النحل**: ١٢٥ - ١٢٨].

تلك الآيات الكريمة قد تضمنت -إلى جانب كونها دستوراً للدعاة يوضح لهم وسائل الدعوة - صفات أساسية فى كل داعية إلى الله هى:

- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة،
- والجدال بالتى هى أحسن،
- والعدل والإنصاف: «... بمثل ما عوقبتم به»،
- والصبر بكل أنواعه على نحو ما سنفصله بعد قليل،
- وعدم اليأس من استجابة المدعو «ولا تحزن عليهم»،

- وعدم الضيق بمكر المدعوين.

ومن جمع هذه الصفات فقد كان من الأتقياء المحسنين.

● والصبر في هذه الآيات الكريمة، طولب به الدعاة على كل درجة من درجاته وفي كل مجال من مجالاته، لتنفعه دائما وفي كل مجال.

وعلى سبيل المثال:

- فالدعاة مطالبون بالصبر على ما يصيبهم من مصائب في سبيل الدعوة، ولابد لهم أن يصابوا، وما يقبل منهم جزع -أي ترك الصبر- لأن الله تعالى يقول: ﴿ ..... **وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ** ..... (٣٥) ﴾ [الحج: ٣٥].

- والدعاة مطالبون بالصبر في المعارك، الصبر الذي يعني الشجاعة، ولا يقبل منهم جبن في مواجهة عدو، لأن الله تعالى قال: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ** .... (١٧٧) ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- ومطالبون بالصبر بمعنى رحابة الصدر واحتمال أذى المدعوين، ولا يقبل منهم ضجر أو ضيق بما يأتي به بعض المدعوين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** (١٢٧) ﴾ [النحل: ١٢٧].

- وهم مطالبون بالصبر بمعنى إمساك الكلام وكتمانه عند الحاجة إليه، ولا يقبل منهم خفة ولا شهوة كلام ولا إفشاء أسرار؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** (٦٠) ﴾ [الروم: ٦٠].

- وهم مطالبون بالصبر على الطاعة والعبادة، ومجاهدة النفس، ولا يقبل منهم أي إخلال بشيء من العبادة أو زهد في النوافل أو إقلال منها، كما لا يقبل منهم اتباع هوى النفس بالإقبال الزائد على متع الحياة الدنيا؛ فالله تعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٢٠٠) ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

- وهم مطالبون بالصبر بمعنى الاستعانة به على كل أمر، ولا يقبل منهم فتور أو كسل أو تواكل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (١٥٣) ﴾ [البقرة: ١٥٣].

- والدعاة إلى الله مطالبون بالصبر الجميل، وهو الصبر الذى لا يبوح صاحبه بالشكوى، بل يفوض أمره إلى الله ويسترجع، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

وروى ابن ماجة بسنده عن الحسين بن علىّ رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصيب بمصيبة فأحدث استرجاعا -وإن تقادم عهدها -أى المصيبة- كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب».

وروى البخارى ومسلم وأحمد بأسانيدهم عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه».

وروى أحمد بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «. . . ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر».

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط**﴾ ما يلى:

أ - أن البطر والأشر والإدلال على الناس بنعم الله والفخر بها، وازدراء من لم ينعم الله عليه، من الصفات التى حذر الله تعالى من الاتصاف بها؛ إذ هى صفات الكافرين المعاندين المكذبين لله ورسوله.

- ويستبعد أن يتصف الدعاة إلى الله -وهم ورثة الأنبياء -بشىء من هذه الصفات، لكن عليهم أن يعلموا المدعوين التخلص من هذه الصفات وأمثالها؛ لأنها صفات الكافرين.

ب - وأن الرياء وطلب الثناء من الناس، من صفات السوء، وهذه الصفة من أوسع الصفات انتشارا فى الناس، حتى لا يخلو منها بعض الدعاة أحيانا ممن أوتوا موهبة فى جذب الناس والتأثير فيهم وإقناعهم وضمهم إلى صفوف الملتزمين، وعندئذ قد يعجبون بما لقوا من النجاح، فيدخل بهم الشيطان من هذا الباب إلى ما يحبط العمل ويؤدى إلى غضب الله تعالى وعقابه.

جـ - وأن الصد عن سبيل الله كبيرة من الكبائر، لا يمارسها إلا أهل الكفر والنفاق ومن نصبوا أنفسهم لعداء الله ودينه ومنهجه.

● والدعاة إلى الله أبعد الناس عن هذه الصفة؛ لأنهم يدعون إلى الله، فكيف يصدون عنه؟.

● والجواب أن ذلك قد يكون من بعض الدعاة أو من بعض الشداة المبتدئين منهم إذا وقعوا فى الأخطاء التالية:

– التشدد مع الناس فيما يدعونهم إليه من خير، لأن التشدد منهى عنه إذ لن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فلو تشدد داع مع مدعو لنفر منه وابتعد عنه، فى حين الهدف الاستجابة والقرب.

– والتساهل مع المدعو فى أمور الدين التى يعرضونها على المدعوين: فقد لا يمنعونهم من شيء مما هو شائع فى المجتمع على الرغم من مخالفة ذلك للدين وذلك مثل:

● ارتداء أزياء لا تليق بالمسلم أو المسلمة،

● وهجر لغة القرآن الكريم إلى لغات أخرى لغير ضرورة،

● والتعامل بألفاظ من الهزء لا تليق بالمسلم أو المسلمة،

● والتشبه بغير المسلمين،

● وأكل ما فى أكله شبهة،

وغير ذلك مما أفرزته حضارة الغرب التى أصبحت تستبعد الله تعالى من تصورها.

هذا التشدد أو ذلك التساهل مما يصد عن سبيل الله تعالى، ويصرف الناس عن الحق ومنهجه ونظامه.

– وقد يكون الصد عن سبيل الله بالرغبة فى الجدل، أى الرغبة فى غلبة الخصم جدلا بغض النظر عن الإقناع.

– وقد يكون بالجدال بالطريقة التى لا توصف بأنها الأحسن.

● كل ذلك قد يكون صدا غير مباشر عن سبيل الله، مهما أحاطت به النوايا الحسنة والمبررات المقبولة فى الظاهر.

ونتيجة هذا الصد هى: إيقاف التنمية العددية للملتزمين –وهى مطلب ما ينبغى أن يوقف.

ومن نتائجه إضعاف الالتزام عند المدعوين والأصل أن يقوى هذا الالتزام.

٤ – ويتعلم الدعاة إلى الله والحركيون من قوله تعالى: « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله، والله شديد العقاب » ما يلى:

أ – أن تزيين الشيطان ووسوسته من أسوإ ما يضر الإنسان ويخرج به عن دائرة التعقل إلى دائرة الغرور والنزق، وذلك شأن الشيطان دائما، لاينى ولا يفتر فى فتنة الناس عن الحق وشغلهم بالباطل.

- وكما زين الشيطان لكفار قريش الخروج إلى بدر فغرهم وخدعهم فكانت الهزيمة والقتل والأسر، فإنه مستمر فى تزيين الباطل، ولا يعبأ الشيطان أن يزين للناس أو للدعاة، فليكونوا منه على حذر.

- وأن من تزيين الشيطان زعمه بأنه مع من زين له الباطل، ونَفْثُه الغرور فى روحه وسلوكه.

- وأن حقيقة الشيطان عندما يعاين الحق أن يعلن أنه يخاف الله، وأنه يرى ما لا يرى الناس.

- فهل يستجيب عاقل لتزيين الشيطان ووسوسته؟.

ب – وأن كل ما يوحى به الشيطان أو يزعمه كذب صراح، سريعا ما ينكشف عند أول تجربة، وكل صفة مذمومة إنما نبعت من الشيطان، وإليه تعود، وكل رذيلة من الرذائل إنما هو قد أغرى بها وأغوى فاعلها، تلك وظيفته مع الناس منذ أن عصى ربه.

- إن الشيطان يغرى أعداء الحق بالدعاة إلى الله، ويوهمهم بأنهم منصورون عليهم فى كل معركة لأنه جار لهم، وما درى هؤلاء المغرورون أن الدائرة سوف تكون عليهم فى المعركة ضد الحق وأهله، وعندئذ يهرب منهم شيطانهم وله ضراط من شدة خوفه وهول معاينته لأنصار الحق وهم ثابتون فى الدفاع عنه ذاكرين الله كثيرا محققين للنجاح والفلاح!!!

- وإن التضليل والخداع وخلف الوعد والانسحاب وقت الشدة هى أبرز صفات الشيطان، وهو لا يستحى أن يمارس تلك الصفات فى كل حين ومع كل أحد!!!

وكيف يستحى والحياء خير كله، والشيطان شر كله.

- إن على الدعاة وسائر المؤمنين أن يتدبروا قول الله تعال فى هذا الشيطان: ﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ**

أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. إن تدبر هذه الآية الكريمة ينجى المؤمن من كيد الشسطان ووسوسته وهمزه ولمزه، وما أنزل الله هذه الآية وأمثالها إلا ليحذر من الشيطان!!!

جـ - وعلاج وسوسة الشيطان ونزعه هو الاستعاذة بالله تعالى منه وتذكر ثواب الله وعقابه ووعده ووعيده، كما يفهم ذلك العلاج من قوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)** ﴾ [الأعراف: ٢٠٠، ٢٠١].

٥ - ويتعلم ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم** ﴾ ما يلى:

أ - إن المجتمع المعادى للحق المحارب لله ومنهجه ودعاته لن يخلو أبدا من صنفين من الناس:

- المنافقين وما أكثرهم،
- والذين فى قلوبهم شك من غير نفاق.

وكلاهما شر على الإسلام والمسلمين يجب الحذر منه، ودفعه.

- فالمنافقون يمارسون تملقهم عندما يرون للحق صولة.
- والشاكون الذين لم يبلغوا درجة النفاق، يريدون دائما أن يكونوا مع من يغلب.

ب - وأن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض عندما يرون ثبات الدعاة إلى الله، وقدرتهم على مواجهة أعدائهم واستعدادهم للبذل والتضحية بالمال والوقت والجهد والنفس فى سبيل الدين، يقولون: «غر هؤلاء دينهم» يريدون أن يخوفوا المؤمنين من مواجهة الكافرين، ويخذّلوهم عنهم.

- وهيهات أن ينال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض من الدعاة إلى الله، ومن أنصار الحق بمثل هذا الكلام، وتلك المزاعم؛ لأن الله تعالى جعل من سننه أن ينصر الحق وأهله، ويخذل الباطل وأهله، تلك سنته فى الذين خلوا من قبل، وهى سنة ماضية إلى يوم القيامة.

جـ - وأن الدعاة إلى الله إنما ينتصرون على أعدائهم، ويستوثقون من نصر الله تعالى لهم وتأييده إياهم بعمل هام وبسيط هو: التوكل على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب؛ لأن القاعدة العامة فى التوكل التى أقرتها هذه الآية الكريمة هى: أن من توكل على الله فتح الله له أبواب حكمته وأعطاه من عزته سبحانه ما لا يُغلب معه أبدا «ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم».

● إن على الدعاة أن علِّموا الناس ذلك ويزيدوهم فى ذلك فقهـا بالدين، وعلما بسنن الله تعالى.

٦ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة، يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ ما يلى:

أ - أن مصير الكافرين والمعاندين - مهما تجبروا وعلوا وظلموا، واستبدوا وتحدوا الحق وأهله، ومالأوا الشيطان وجنوده - مصير معروف محتوم هو الهزيمة فى الدنيا والعذاب بل سوء العذاب فى الآخرة؛ حيث تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وتقذف بهم فى جهنم قائلة لهم: ذوقوا عذاب الحريق. ذلك قانون عام يطبق على الذين كفروا، لا يفلت منه أحد منهم.

ب - وأن هذا الجزاء المخزى المؤلم عدالة وإحقاق للحق، فقد كان الكافرون فى الدنيا يمارسون الشر والأذى ويتحدون الله ورسوله ومنهجه وكتابه وسنة رسوله ﷺ، فكل عقاب يحل بهم بعدما قدمت أيديهم كل هذا الشر، إنما هو جزاء عادل غاية العدل؛ لأن الله تعالى ليس بظلام لعبيده، «ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد».

جـ - وأن للدعاة إلى الله وأنصار الحق وأهله أن يطمئنوا تماما إلى أن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، غير أن ساعة الباطل قد تطول ولكنها زائلة، ودولة الحق قد يتأخر قيامها ولكنها لابد آتية.

● إن الله تعالى يؤكد هذه الحقيقة فى قوله تعالى: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** (١٢) ﴾ [**آل عمران**: ١٢]، فهذه الآية الكريمة تؤكد هزيمة الذين كفروا.

وقوله جل شأنه: ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** .... (١٦٠) ﴾ [**آل عمران**: ١٦٠]. وقد

وعد المؤمنين بالنصر في قوله تعالى: ﴿ .... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الروم: ٤٧]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات: ١٧٣].

● تلك آيات الله البينات في تقرير هذه الحقائق، فمن ذا الذي لا يطمئن إلى ذلك؟ ومن ذا الذي لا يفرح به؟.

٧ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: «كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله....» إلى قوله تعالى: «وكل كانوا ظالمين» ما يلي:

أ - أن من الأمثلة العملية على تطبيق سنة الله في الكافرين بهزيمتهم وفي المؤمنين بنصرهم: قصة آل فرعون وقصص الذين من قبلهم، حيث هزمهم الله ونصر المؤمنين، وجعل ذلك دأبهم أي حالتهم وعادتهم المستمرة دائما.

● وفي ذلك ما يجعل الدعاة إلى الله يمضون في طريقهم آمنين مطمئنين إلى خيري الدنيا والآخرة، غير مبالين بما ينالهم من نصب أو وصب في سبيل الله تعالى، وإنما حسبهم أنهم يدعون الناس إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

ب - وأن الله تعالى قوي لا يعجزه كفر ولا كفار، وكيف يعجزون وهم خلقه؟ فهم مأخوذون بكفرهم إن عاجلا وإن آجلا، وما دامت الأمور كلها لله، وبيده الخلق والأمر، فإن المتغيرات كلها بإرادته يجريها كما يشاء، فينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم، وهو القوي شديد العقاب لكل من كفر به فعادى دينه وأولياءه ودعاته.

● إن على الدعاة أن يتدبروا في صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه، وأن يستلهموا ما تدل عليه من سنن الله تعالى، وأن يحاكوها في أنفسهم وفيمن يدعونهم ما وسعتهم بشريتهم وطاقاتهم.

جـ - وأن قانونًا عاما يجب أن يستفيد منه الدعاة إلى الله وكل العاملين في الحركة الإسلامية هو «قانون التغيير».

وهذا القانون تضمنته آيتان كريمتان في القرآن الكريم هما:

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد: ١١].

– ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) ﴾ [الأنفال : ٥٣] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج عن حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال : إن تصديق ذلك فى كتاب الله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وقد علق ابن كثير على كلام إبراهيم بقوله : وقد ورد هذا فى حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا الحسن بن على عن الهيثم بن الأشعث عن أبى حنيفة اليمانى الأنصارى عن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة قال : كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأنى، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى، وإنه حدثنى عن ربه عز وجل قال : « قال الرب : وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى، ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهتُ من معصيتى، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتى إلا تحولتُ لهم عما يكرهون إلى ما يحبون من رحمتى » . ولا يطعن فى صحة الحديث كونه غريبا، وإن كان الإمام أحمد بن حنبل قال : إن منه غير صحيح .

● إن قانون التغيير –وقد وضحت أبعاده بهذا الحديث وبكلمة إبراهيم –يؤكد أن من سنة الله الجارية فى خلقه أنه إذا أنعم على قوم بنعمة فحفظوها بشكرها أجرى عليهم النعمة ولم يغيرها؛ إلا إذا غيروا ما بأنفسهم فجحدوا النعمة .

وشكر النعمة هو شكر للمنعم سبحانه وتعالى وهو دليل الإيمان وجحدها جحد للمنعم سبحانه .

والله تعالى سميع لما يقولون، عليم بما يفعلون، مجازيهم على هذا وذاك .

د – ويتأكد الدعاة إلى الله من هاتين الآيتين : « كدأب آل فرعون . . . كدأب آل فرعون . . . » أن إجراء سنة الله تعالى على الكافرين أخذ مسارا عمليا على مر التاريخ الإنسانى تمثل فيما يلى :

– أغرق قوم نوح عليه السلام ومنهم ابنه وامرأته، وأنجاه وأنجى الذين آمنوا معه، وما آمن معه إلا قليل .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ

الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود: ٤٠].

– وأهلك عادا الأولى، ونجى هودا عليه السلام والذين آمنوا معه ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا(١) نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ..... (٥٨) ﴾ [هود: ٥٨].

– وأهلك ثمود قوم صالح عليه السلام ونجى صالحا ومن آمن معه، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود: ٦٥].

– وأهلك قوم إبراهيم عليه السلام وجعل النار بردا وسلامًا عليه ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [هود: ٧٦].

– وأهلك قوم لوط ونجى لوطا ومن معه: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) ﴾ [هود: ٨٢].

– وأهلك أهل مدين قوم شعيب عليه السلام، ونجاه ومن معه ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

– وأهلك آل فرعون بإغراقهم فى البحر ونجى موسى ومن معه وفرق لهم البحر « كدأب آل فرعون.... » الآيتان من سورة الأنفال.

– وأقر سبحانه هذا المبدأ فى إهلاك الكفار والظالمين وإنجاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) ﴾ [هود: ١٠١ – ١٠٤].

- لا يحتاج الدعاة إلى أكثر من هذا ليطمئنوا على ما ينتظر المؤمنين من نصر وتأييد، وما ينتظر الكافرين من هزيمة وخذلان، والله سبحانه وتعالى غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) أمرنا: أى ما أمرنا به وهو هلاكهم.

لا يحتاجون إلى أكثر من هذا ليمضوا فى طريق الدعوة غير ضائقين بما يصيبهم فى سبيل الله من عنت الكافرين وظلم الظالمين وتعنت الضالين المضلين، مطمئنين تماما إلى تأييد الله ونصره القريب، مهما بلغ بهم العناء من البأساء والضراء ومهما زلزلوا بالمحن، حتى لقد يرون نصر الله بعيدا.

● إن الله تعالى يذكرهم بأسلافهم من دعاة الحق وأهله من الأنبياء والصالحين، فى قوله تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)** ﴾ [البقرة: ٢١٤].

١١ - الآيات من الآية الكريمة
الخامسة والخمسين إلى الثالثة والستين:
بيان لحال اليهود فى عدائهم للرسول ﷺ والمؤمنين
وتشريع للتعامل مع اليهود ومع كل عدو
ومطالبة للمؤمنين بالإعداد والاستعداد

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾ [الأنفال: ٥٥ - ٦٣].

- هذه الآيات الكريمة تضمنت أوصافا، وحكما وأحكاما، ومطالب موجهة للمؤمنين وتشجيعا للمسلمين على الإنفاق فى سبيل الله، وذلك فيما يلى:

- وصف دقيق لليهود فى حبهم لنقض العهود،
- وحكم شرعى فى التعامل مع اليهود ناقضى العهد،
- ومطالبة للمسلمين بالإعداد للقاء الأعداء من اليهود والكافرين، مع بيان نوع الإعداد وهدفه.
- وتشجيع للمسلمين على الإنفاق فى سبيل الله لإعلاء شأن دينه.
- وبيان لحكم مسالمة الأعداء.
- ووصف للمؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله، وألف بين قلوبهم.

● وفى الآيات الكريمة أخبار كثيرة جاء بعضها مؤكدا وبعضها خاليا من علامات التأكيد، وفيها أوامر ونواهٍ، وأساليب شرط عديدة، وسوف نوضح ذلك فيما يلى، والله المستعان.

– «**إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون، فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون**».

● هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم شر الدواب هم يهود المدينة وبنى قريظة، وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف الذى كان يشبه أبى جهل فى مكة فى عدائه الشديد لرسول الله ﷺ.

وقد بلغوا من الشر درجة ألحقتهم بالدواب، بل جعلتهم من شر الدواب، وقد وصفهم الله تعالى بهذا الوصف من سوء أعمالهم وشدة عدائهم لرسول الله ﷺ.

● هؤلاء اليهود جمعوا إلى كفرهم إصرارهم على الكفر ومضيهم فى طريقه إلى ما لا نهاية له، بحيث لا يرجى منهم عودة عن هذا الطريق؛ لأنهم وقعوا تحت تأثير رؤساء لهم شديدى العناد لرسول الله ﷺ وللحق الذى يدعو إليه، مع علم هؤلاء الرؤساء بأن رسول الله ﷺ على الحق، وتحت تأثير التقليد والجمود والعناد – وهى صفات لا تسمح لصاحبها أن ينظر فى الحق ولا أن يتعامل مع الحجج والدلائل، ومن كان هذا شأنه، فلا يرجى أن يجاوره أحد أو يعيش معه فى أمن وسلام.

● وهم شر الدواب لكفرهم بمحمد ﷺ، كما كفروا بمن كان قبله من الرسل –مع علمهم من كتبهم بأن الله تعالى سوف يبعث نبيا من العرب بشرهم به موسى عليه السلام فى التوراة، كما يفهم ذلك من قوله تعالى فى سورة الأعراف ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** .... (١٥٧)﴾ [**الأعراف**: ١٥٧].

● وهم شر الدواب لأنهم ينقضون عهودهم دائما، وفى كل مرة يتعاهدون فيها، حتى أصبح ذلك شأنهم(١): «**الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون**».

---

(١) هذه عادتهم من يوم عرفوا ومع سائر أنبيائهم عليهم السلام ومع النبى ﷺ، وإلى يوم الناس هذا، وفى عصرنا هذا دأبوا على نقض كل عهد عاهدوا عليه من يوم استولوا على فلسطين وإلى آخر عهدهم فى «أوسلو» مع الفلسطينيين، وفى «مدريد» وفى كل مكان وزمان تعاهدوا فيه على شىء.

● ومن عهودهم التى نقضوها مع رسول الله ﷺ :

– عهدهم معه بعد هجرته إلى المدينة المنورة؛ حيث أقرهم بهذا العهد على دينهم، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم.

● فنقضوا هذا العهد وبخاصة بنو قريظة الذين أعانوا المشركين على رسول الله ﷺ فى معركة بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا.

– ثم عاهدهم ﷺ عهدا بعد ذلك فنقضوه ومالأوا عليه جموع العرب فى معركة الأحزاب، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف يحرض المشركين على قتال المسلمين.

– فنقضوا عهدهم كما نقضوه فى كل مرة وهم لا يتقون.

– ﴿ **فإما تثقفتهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون** ﴾.

أى إن تغلبهم فى حرب وتظفر بهم، فنكل بهم وغلظ عقوبتهم، وأثخنهم قتلا ليخاف من سواهم من الأعداء، ويصيروا بذلك عبرة لغيرهم فى التنكيل بكل من نقض العهد، أو لعلهم يحذرون نقض العهد ثانية.

● وهذا حكم يجب أن يتبع مع كل من نقض العهد من اليهود وغيرهم من الناس، حتى تحترم العهود والمواثيق.

– ﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ أى لعل من خلفهم من الأعداء –أى مشركى العرب– يتعظون ويعتبرون، فلا يقدمون على القتال وقد رأوا هذا التنكيل، أو لا يعودون إلى نقض العهود التى أبرموها.

● وليس معنى ذلك أن الإسلام جعل التنكيل بالأعداء بعد الظفر بهم أساسا وأصلا فى التعامل مع كل عدو.

● وليس معناه كذلك أن الإسلام يفضل حالة الحرب على حالة السلام.

● وإنما معناه أن من نقض العهد وخان وغدر، يكون جزاؤه التنكيل حتى تحترم العهود والمواثيق، ولا يصبح الناس من شر الدواب كاليهود الذى كفروا بمحمد ﷺ، ونقضوا عهودهم معه.

● ومما يؤيد رغبة الإسلام فى السلام ورغبته عن الحرب ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود بأسانيدهم عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ فى بعض

أيامه التى لقى فيها العدو، فقال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وحازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

- فالحرب فى الإسلام ليست هدفا فى ذاتها، ولكن هى وسيلة لتحقيق هدف هو منع البغى والعدوان، وإعلاء كلمة الحق، وتبليغ الإسلام للناس، ومقاومة كيد الكافرين والمشركين وكل أعداء الدين المتربصين به وبأهله.

– **﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾**.

- والمعنى: إن تتوقع من قوم قد عاهدتهم خيانة منهم للعهد، بأن يظهر لك من الدلائل والقرائن ما ينذر بذلك، فاقطع عليهم طريق هذا النقض للعهد قبل أن يقع، بأن تطرح إليهم عهدهم أى تعلمهم بفسخه على طريق سواء، لا خداع فيه ولا استخفاء ولا ظلم. ذلك أن الإسلام لا يبيح غدرا ولا خيانة ولا أخذا لعدو على غرة. لأن كل ذلك من الكبائر المحرمة فى الإسلام.

- أما الذين ينقضون العهد فعلا، فإن لهم حكما آخر هو مناجزتهم وحربهم عند الإمكان، كما فعل رسول الله ﷺ حين نقضت قريش معاهدة الحديبية بمظاهرة بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ الذين كانوا فى ذمته.

- وقد ورد فى السنة ما يؤكد هذا؛ إذ روى البيهقى –فى شعب الإيمان– بسنده عن ميمون ابن مهران رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة.. المسلم والكافر فيهن سواء: من عاهدته فوف بعهده مسلما كان أو كافرا فإنما العهد لله، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلما كان أو كافرا، ومن ائتمنك على أمانة فأدها إليه مسلما كان أو كافرا».

هذا حكم نبذ العهد فى الإسلام وتلك شروطه، وعلى المسلمين جميعا حكاما ومحكومين أن يتقيدوا به دون تجاوز لأى شرط من شروطه.

وروى الترمذى بسنده عن سليم بن عامر قال: كان معاوية رضى الله عنه يسير فى أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر وفاء لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقده ولا يشدها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية رضى الله عنه فرجع.

فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة رضى الله عنه .

« إن الله لا يحب الخائنين » أى حتى فى حق الكفار لا يحبها أيضا . وروى الإمام أحمد بسنده عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه : دعونى أدعوهم كما رأيت رسول لله ﷺ يدعوهم . فقال : إنما كنت رجلا منكم، فهدانى الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء « إن الله لا يحب الخائنين » يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله .

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾ .

هذا تنبيه للرسول ﷺ وللمسلمين بأن الذين نقضوا عهدهم، وإن أفلتوا من عقابك متحصنين بعهدهم الذى يمنعك من قتالهم، فإنهم لم يفلتوا من عقابنا ولم يفوتونا ولن يعجز الله مكرهم ولا خيانتهم، بل سيعاقبهم الله فى الدنيا بأن يسمح لرسوله وللمؤمنين أن يناجزوهم فيذيقوهم عاقبة غدرهم وخيانتهم فى الدنيا، بالإضافة الى ما يعذبهم به من عذاب في الآخرة .

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ .

وهذه الآية الكريمة تأمر المؤمنين بالإعداد للحرب، والحرب ضد المسلمين كانت وما تزال أمرًا واقعًا مفروضًا عليهم، قَلَّ أن يكونوا هم المحدثين لها أو البادئين بها .

والإعداد للحرب من سنة الاجتماع البشرى فى كل زمان ومكان .

- والحرب إنما تكون بين أعداء، وأعداء المؤمنين الذين يحاربونهم دائما هم الكفار الذين يعادون الله تعالى ودينه ومنهجه ورسوله والدعاة إلى الله وإلى الحق، ويصدون عن سبيل الله من آمن، وهؤلاء يعدون لتلك الحرب ما استطاعوا، فواجب المسلمين أن يعدوا لهم ما استطاعوا كذلك من قوة .

﴿ وأعدوا ﴾ أى هيئوا ما تحتاج إليه الحرب من عدد وعتاد على قدر استطاعتكم : أى لا تبخلوا على هذه الحرب بشىء تستطيعون بذله .

وهذه الكلمة « أعدوا » هى أصل وجوب الأخذ بالأسباب عند الإقدام على كل أمر من

أمور الإنسان؛ إذ الاعداد لكل أمر واجبٌ شرعى، يخطئ من يقصر فيه، وهذا الإعداد الواجب لا يتنافى أبداً مع التوكل على الله.

لهم أى للأعداء، وهى كلمو توحى بل تشير إشارة قوية إلى ضرورة النظر فيما يملكه العدو من عَدد وعُدد، وما يمكنه أن يقوم به من أعمال تتصل بالحرب أو بالقتال نفسه، وبعد هذا النظر فيما يملك العدو وفيما يستطيع يكون الإعداد لقوة أكبر من قوة العدو، أو مساوية له، مصحوبا ذلك بالتوكل على الله تعالى.

﴿ **ما استطعتم** ﴾ أى كل ما تستطيعون من وسائل وأسباب تعين على خوض الحرب، وهذه الاستطاعة تختلف باختلاف الزمان والمكان، وتعنى ألا يُدَّخر وسع ولا تختزن طاقة يكون بذلها ممكنا، ويدخل فى ذلك أمور كثيرة نشير إلى بعضها فيما يلى:

- إعداد النفوس لحرب أعداء الإسلام، أى إقناعها بوجوب خوض المعركة وتشويقها إلى ذلك ودعوتها إلى البذل والتضحية بل جعلها تنتظر خوض هذه الحرب تقربا إلى الله تعالى بالدفاع عن دينه، وهذا الإعداد للنفوس له وسائله المعنوية المعروفة.

- وإعداد الأجسام بتقويتها أى الأخذ بأسباب قوة البدن من استقامة واعتدال فى الطعام والشراب والنوم واليقظة، ومن تريض وتدريب يجعل البدن قويا قادراً على تحمل أعباء الحرب والقتال.

- وإعداد السلاح والعتاد والمؤن وكل ما يلزم المحارب من إمداده بما يحتاج إليه وهو يخوض المعركة، ولابد أن يكون هذا الإعداد منظوراً فيه إلى ما يملكه العدو من سلاح وعتاد، بحيث لا يكون سلاح المؤمنين وعتادهم أقل مما يملك عدوهم، وإلا عُدّ المسلمون مقصرين غير آخذين بالأسباب.

- وإعداد الأفراد المحاربين عدداً ملائما لعدد الأعداء، ما دام المسلمون هم الذين يختارون البدء بالمعركة، فإن كانت المبادرة من الأعداء خاض المسلمون الحرب بما لديهم من أعداء، وقد ينتصرون إذا أراد الله تعالى لهم ذلك، لأن المنطق الذى عرفه المسلمون فى تاريخهم هو أنه: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)** ﴾ [**البقرة: ٢٤٩**]، ولكن كلمة «كم» لا تعنى أنها قاعدة وأن المؤمنين يخوضون معاركهم وهم أقل عدداً.

- وإعداد المال لمواجهة الاحتياجات المحتملة أثناء الحرب، وإعداده بمعنى رصده للحرب وإنفاقه فى متطلباتها، ومفهوم المال أوسع من الذهب والفضة والنقد؛ إذ يشمل كل ما

تتمول به الحرب من احتياجات .

- وإعداد القادة القادرين على إدارة رحى الحرب على أعلى مستويات الإدارة فى العصر الذى يعيشه المسلمون ويحاربون فيه .

- وإعداد الخطة التى يجب أن تتبع فى الحرب، ويدخل فى هذه الخطة تخذيل العدو وتبديد طاقته وجهوده؛ بشرط ألا يكون فى ذلك غدر ولا خيانة .

● وكل نوع من هذا الإعداد إنما يقوم به المختصون به الخبراء فيه؛ لأن الإسلام علمنا أن نتوجه دائما عند الحاجة إلى أى شىء إلى أهل الذكر فى هذا الذى نحتاج إليه، يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)** ﴾ [النحل : ٤٣] .

﴿ **من قوة** ﴾ والقوة عموما هى القُدْرة، وقد فسرها الرسول ﷺ فى هذا المجال بأنها : الرمى، فقد روى مسلم بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ وقد تلا هذه الآية على المنبر يقول : « ألا إن القوة الرمى » قالها ثلاثا .

وكلمة الرمى فى الحديث الشريف تشمل كل ما يُرْمى به العدو من آلة أو معدة تضعفه أو تقضى عليه، وبذلك تشمل كل أنواع الآلات والمعدات الحديثة أو التى سوف تستحدث فيما بعد . وقد كان ذلك الرمى فى عهد النبى ﷺ هو الرمى بالسهام ونحوها مما يرمى به العدو عن بُعْد، ودون التحام به .

● ويدخل فى مفهوم القوة كل آلات الحرب بل كل التدريبات التى تسبقها بل كل الإعداد الذى تحدثنا عنه آنفا، وكل ما يواجه به العدو من آلة عسكرية .

● وكل أنواع القوة المطلوبة فى الحرب واجب على المسلمين إعدادها؛ لأن قتال العدو يكون بها، وقتال العدو واجب شرعى، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كما معروف فى فقه ديننا الحنيف .

﴿ **ومن رباط الخيل** ﴾ ورباط الخيل حبسها واقتناؤها وإعدادها لخوض المعركة .

و﴿ **الخيل** ﴾ فى هذه الاية رمز لكل آلة عسكرية يستعان بها على خوض المعركة؛ لأن الخيل كانت فى زمن النبى ﷺ أهم هذه الآلات العسكرية، وتشمل اليوم كل آلات الحرب من البندقية إلى الطائرة والصاروخ بأنواعه .

والرباط : المرابطة على الحدود وفى الثغور لتأمين أطراف البلاد الإسلامية ، فكل ما يؤمن

حدود البلاد فهو من رباط الخيل.

﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** ﴾ والمعنى: أن إعداد ما يستطيعه المسلمون من قوة ومن رباط الخيل له هدف هو إرهاب العدو القائم والعدد المتوقع.

والإرهاب : إيقاع الرعب والرهبة في القلوب.

وأعداء الله: هم الكفار وكل من عادى الله ومنهجه ورسوله ﷺ.

وعدوكم: هم الذين يتربصون بالمسلمين، ويعدون لحربهم أو إلحاق الضرر بهم أو ببلادهم، ضرر في الحاضر أو في المستقبل.

«وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم»: أي زعداء غير هؤلاء الذين تعرفونهم؛ لأنهم كشفوا عن عداوتهم لكم، وهم كل عدو مرتقب من يرغبون في محاربة الإسلام والمسلمين أو تحديهم أو تحدى مصالحهم أو إعانة عدوهم عليهم.

● والإعداد لإرهاب الأعداء عمل واجب باستمرار، لأن أعداء الإسلام كثيرون ولهم وجود وحضور في كل عصر، وهذا الإعداد له فوائد كثيرة نذكر منها - كما ذكر ذلك أسلافنا رحمهم الله - ما يلي:

- ردع الأعداء عن الهجوم على ديار المسلمين، وما في ذلك الردع من استقرار لأحوال المسلمين.

- وتخويف الأعداء من أن يعينوا على المسلمين أحدا، أو يخذّلوهم ويفرقوا كلمتهم.

- وحمل الأعداء على مسالمة المسلمين، لما يزرعه هذا الإعداد المرهب لهم من يأس في نفوسهم، يأسهم من أن يأخذوا المسلمين على غرة منهم.

- وحملهم على احترام العهود والمواثيق التي قليلا ما يحترمونها أو يفون بها، وهم أصحاب مقولة: «إن المعاهدات حبر على ورق». ومن أراد الأدلة على ذلك فلينظر في معاهدات الدول التي كانت تحتل بلاد غيرها أو فلينظر إلى معاهدات «إسرائيل» مثلا!!!

- ومنع أسباب الحرب والعدوان، ليعيش المجتمع العالمي سلاما وأمنا واستقرارا وإنتاجا وتعايشا إنسانيا كريما.

- وقد يؤدي هذا الإعداد لإرهاب الأعداء إلى ما تؤديه الدعوة إلى الله بالدخول في هذا

الدين العظيم الخاتم التام الكامل الذى رضيه الله للبشرية كلها دينا .

- وهذا الإعداد لإرهاب الأعداء وجعلهم يتوقفون عن حرب المسلمين من شأنه أن يجعل المسلمين يهتمون بتطوير حياتهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية نحو الأحسن والأفضل فى كل مجالات الحياة، مما ينعكس على الناس بالإحساس بالأمن والطمأنينة، بل الرخاء والرفاهية .

﴿ وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ .

هذه الآية تحث على الإنفاق فى سبيل الله، وتعد عليه بأوفى الجزاء وأحسنه .

والإنفاق فى سبيل الله يشمل كل ما ينفق وليس المال وحده، إذ يشمل الجهد والوقت والعلم والجاه وكل ما من شأنه أن يدعم المعركة فى سبيل الله، كل ذلك داخل فى كلمة « شيء » .

وهذا الإنفاق يجزى عليه الله تعالى الجزاء الأوفى فى الدنيا وفى الآخرة .

● ونستطيع القول بأن هذه الآية الكريمة : « وأعدوا لهم . . . . » الآية، تستهدف إقرار السلام بين الناس، مع أنها دعوة إلى الإعداد للحرب ومواجهة العدو بأقوى من استعداده وآلته، وذلك أن العدو إذا رأى هذا الإعداد كفَّ عن الحرب والعدوان والبغى فيستقر بين المسلمين وغيرهم السلام، والسلام هدف كبير يعد من أهم أهداف الإنسانية إذ به تعيش آمنة .

- ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ .

● هذه الآية الكريمة إقرار لمبدأ السلام مع العدو إن مال هو إلى ذلك؛ لأن السلام فى ذاته مطلب إسلامى .

جنحوا : أى مالوا أو رغبوا فى السلام .

والسلم : هو السلام وترك الحرب والقتال .

فاجنح لها : أى وافقهم على السلام؛ لأنه أدلى به منهم .

● وهذه الآية الكريمة وإن نزلت فى بنى قريظة - كما قال بذلك كثير من المفسرين - فإن العبرة فى القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - كما قلنا أكثر من مرة .

وقبول السلام من العدو مقبول؛ طالما كان العدو راغبا فى ذلك .

● وقد قبل رسول الله ﷺ الصلح من المشركين عام الحديبية، بل قبل شروطهم التى كان بعضها مجحفا بالمسلمين فى الظاهر، وقد روى عبد الله بن الإمام أحمد بسنده عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون اختلاف - أو أمْر - فإن استطعت أن يكون السلم فافعل».

﴿ **وتوكل على الله** ﴾ أى صالحهم وهادنهم متوكلا على الله فى ذلك؛ فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون الصلح خداعا.

﴿ **إنه هو السميع العليم** ﴾ السميع لكل ما يقال العليم بكل ما يُضمر.

﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله** ﴾ أى لا يمنعك من قبول الصلح والسلام تصورك أن العدو يضمر خديعة؛ فالله سبحانه وتعالى حسبك أى كافيك أمرهم وخداعهم وناصرك عليهم فى النهاية.

﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين** ﴾.

والمعنى: فتوكل على الله فإنه الذى نصرك على أعدائك وسخر لذلك من الأسباب ما سخر - كما حدث فى معركة بدر -.

وهو سبحانه الذى أيدك بالمؤمنين، مهاجرين وأنصاراً يقاتلون فى سبيل الله لا يخافون عدوا ولا لومة لائم.

ويفهم من الآية أن النصر له أسباب وأن من أهم أسبابه الرجال المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله، لتكون كلمة الله هى العليا فى أى زمان وأى مكان.

● وأن من نعمة الله عليك ومن أسباب النصر التى هيأها لك يا محمد أن ألف بين قلوب المؤمنين، فجمعهم على الإيمان والإسلام والعدل والإحسان بعد أن كانوا على الكفر وفى فرقة وشقاق وعداوات، وقد امتن الله على المؤمنين بهذه الألفة وجمع القلوب وتوحيد الكلمة فى قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا (١٠٣)** ﴾ [**آل عمران**: ١٠٣]

● والله سبحانه وتعالى يؤلف قلوب المؤمنين فى كل عصر بأن يوحدهم على الحق ويجمعهم على الإيمان والإسلام، وتلك من أكبر نعم الله على المسلمين.

● ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾.

والتأليف بين قلوب المؤمنين هو غرس المحبة بينهم. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: هم المتحابون فى الله، وروى عبد الرزاق بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شىء، ثم قرأ: ﴿**لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم**﴾.

وروى أبو عمرو الأوزاعى عن عبدة بن أبى لبابة قال: لقيت مجاهدا فأخذ بيدى فقال: إذا التقى المتحابان فى الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه تحاتت خطاياهما كما تحات ورق الشجر، قال عبدة: فقلت له إن هذا ليسير، فقال لا تقل ذلك فالله تعالى يقول: «لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم» قال عبدة: فعرفت أنه أفقه منى.

وتأليف قلوب المؤمنين وتوحيد صفوفهم وتحابهم فى الله تعالى مطلب من مطالب شريعة الإسلام، تضافرت على طلبه نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والمدخل إلى ذلك هو الأخوة فى الإسلام[1] فقد أنعم الله تعالى بها على المسلمين، بل قصرها عليهم دون الناس كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** (١٠)﴾ [الحجرات: ١٠].

ولولا هذه النعمة التى تؤلف بين قلوب المؤمنين وهى الأخوة فى الدين ما استطعت يا محمد أن تؤلف بينهم ولو أنفقت فى سبيل ذلك ما فى الأرض جميعا من أموال وأسباب.

- ومن المعروف أن أخوة الدين أقوى من أخوة النسب؛ لأن أخوة النسب تنقطع وتزول آثارها - فيما عدا صلة الرحم - إذا اختلف الدين، وأما أخوة الدين فلا تنقطع أبدا.
- إنها الأخوة التى تدعو إلى التعاون على البر والتقوى وتمتنع عن التعاون على الإثم والعدوان، إذا روعيت شروطها وادابها وأديت واجباتها ومورست حقوقها[2].

﴿**إنه عزيز حكيم**﴾.

«عزيز» لا يغلبه غالب، ولا يفوته خداع مخادع، ولا كيد ماكر، ومن هذه العزة يمنح المؤمنين ويجعل لهم منها ما يلائم بشريتهم وما يصلح به من شأنهم، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** (٨)﴾ [المنافقون: ٨].

---

(١) انظر للمؤلف: الأخوة فى الإسلام؛ للتعرف على هذه النصوص ومعرفة أبعاد الأخوة فى الإسلام وواجباتها وشروطها. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

(٢) انظر المرجع السابق.

« حكيم » فى أفعاله كنصرة المؤمنين على الكافرين، وتأليفه بين قلوب المؤمنين، وجعلهم إخوة فى الدين.

حكيم فى أحكامه، كتشريعه قبول السلام إذا رغب فيه العدو، حكيم فى طلبه من المؤمنين أن يتوكلوا على الله وهم يقبلون السلام بعد أخذهم بالأسباب ما استطاعوا، آمنين خداع العدو ومكره؛ لأن الله تعالى كافيهم كيده ومكره وناصرهم عليه.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

كما قلنا غير مرة إن المواقف التربوية هى تعليم للمسلمين كيف يعيشون وكيف يحاربون ويسالمون ويعاهدون وينبذون عهودهم فى غير غدر أو خيانة، والمواقف التى تذكرهم بنعمة الله عليهم فى التأليف بين قلوبهم وغرس الأخوة الإسلامية فيهم، مما سوف نوضح منه ما يوقف الله إليه فيما يلى - والله المستعان :

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون . . .** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون** ﴾ ما يلى :

أ - أن الكافرين أسوأ وأكثر شرا من دواب الأرض، وبخاصة من كان منهم مصرا على الاستمرار فى الكفر، مغلقا قلبه وعقله عن أسباب الإيمان ودواعيه.

ب - وأن الله تعالى وصفهم بأنهم شر الدواب، لا شر الناس، وهذا يجردهم بكفرهم عن إنسانيتهم، لأن الإنسانية تتميز عن سائر مخلوقات الله بالعقل والتمييز، ومن استمر على الكفر فقد ألغى عقله أى إنسانيته.

جـ - وأن استمرارهم على الكفر يؤكد انسلاخهم من إنسانيتهم، لأنهم فقدوا القدرة على التمييز بين الإيمان والكفر، أى فقدوا عقولهم أيضا؛ لأن باب الإيمان مفتوح أمامهم ومع ذلك لا يؤمنون.

د - وأن هؤلاء الكافرين - يهود ومشركين - قد دأبوا على نقض العهود والمواثيق غير مبالين بعهودهم ولا من عاهدوهم، فهم لا يخافون الله ولا يخافون نقض العهد، ولا يبالون أن يوصفوا بالقدر والخيانة، وهم بذلك أجدر أن يوصفوا بأنهم شر الدواب.

هـ - وأن هؤلاء الخائنين الناقضين للعهود والمواثيق يجب التعامل معهم بقسوة إن ظفر بهم المسلمون جزاء ما خانوا وغدروا، ومن أجل أن يتعظ سواهم من أمثالهم الذين يرغبون فى نقض العهود والمواثيق «**فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون**».

- إن فى ذلك التنكيل بهم عند هزيمتهم ردع لكل من تحدثه نفسه بنقض عهده مع المسلمين.

و - وأن نبذ العهد وطرحه وإلغاءه من جانب المسلمين مع أعدائهم إنما يجوز فى ظل ملابسات وشروط، منها أن يخشى منهم نقض العهد والخيانة والغدر، وأن يكون نبذ عهدهم على سواء، أى بغير خيانة لهم ولا غدر بهم، فالله تعالى لا يحب الخائنين. «**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين**».

ز - وأن الكفار - يهودهم ومشركيهم - مهما عتوا وتجبروا ونقضوا العهود وخانوا وغدروا، وخُيِّل إليهم بتلك الأعمال الشائنة أنهم قد غلبوا المسلمين، أو أعانوا عليهم من غلبهم، فإنهم واهمون فى ذلك التخيل، وسوف يدفعون أبهظ الأثمان لذلك الغدر والخيانة فى الدنيا أحيانا بإلحاق الهزائم والنكال بهم، وفى الآخرة بما أعد الله تعالى لهم من عذاب، حيث لا يفوتونه سبحانه فضلا عن أن يعجزوه، «**ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون**».

٢ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ ما يلى:

أ - أن الإعداد والاستعداد لمواجهة الأعداء أمر من الله تعالى واجب النفاذ، لا يعفى منه قادر عليه، وأن كل المسلمين مطالبون بهذا الإعداد أفرادا وجماعات وحكاما ومحكومين، وأن هذا الإعداد عام وشامل - على نحو ما بينا آنفا - أى إعداد النفس والروح والبدن والسلاح والأفراد والمال والقادة وكافة ما تحتاج إليه المعركة مما هو قائم أو مما يجد مع تغير الظروف والأحوال.

ب - وأن هذا الإعداد منظور فيه إلى الأعداء وما يملكون من أعداد وآلة عسكرية

«وأعدوا لهم» وهوليس مجرد إعداد أو تجميع لآلات عسكرية غير متطورة.

جـ - وأن هذا الإعداد يجب أن يكون شاملا لكل ما يستطيعه المسلمون من أنواع الإعداد، وأنه لا يقبل من أحد أن يبخل بما يستطيع إعداده من أنواع القوة، القوة بكل أنواعها السلاح والخيل وكل ما يلزم المعركة.

ء - وأن الهدف من هذا الإعداد هو إرهاب العدو.

وأول هذا الإرهاب هو ما يسمى اليوم بالحرب النفسية للعدو لتثبيط معنوياته، وتخذيله، وإفقاده الثقة فى نفسه وفى قدراته وما يملك، تلك هى الرهبة الحقيقية من قوة المسلمين التى يعدونها لعدوهم، ثم لا يتوقف الإرهاب حتى ينهزم العدو هزيمة كاملة.

و - وأن هذا العدو هو عدو الله على وجه الحقيقة، وعدو المسلمين لأنهم، أصحاب الدعوة الحق والدين الحق، ومعنى ذلك أن يكون المسلمون دائما كذلك أى مع الله ومع الحق، حتى يعد من يعادى الله عدوا لهم.

ز - وأن على المسلمين أن يتوقعوا أعداء فى المستقبل، وأن يعدوا لهم أيضا، لأن الله تعالى يعلم عن هؤلاء الأعداء وإن كان المسلمون لا يعلمون، لكن عدم علمهم لا يعفيهم من أن يعدوا لهم ما يناسبهم، وهكذا طالب الإسلام المسلمين بالاعداد لعدو مرتقب منذ أربعة عشر قرنا، ومع أن علم دراسة المستقبل ما سمع الناس عنه إلا من سنوات غير كثيرة!!! **«وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم»** هؤلاء الأعداء المتوقعون يجب إرهابهم كالأعداء الحقيقيين الماثلين أمام المسلمين.

● هذا هو أخذ الحذر الذى نادى به الإسلام فى قوله تعالى: ﴿ **وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ... (١٠٢)** ﴾ [**النساء**: ١٠٢].

وهو من صميم التوقع لما قد يقوم به العدو المعروف أو المرتقب.

م - وأن الإنفاق فى سبيل الله ربح لا تضييع للمال، لأن الله تعالى يوفى هذا المال الذى أنفق فى سبيله أعظم توفية، ﴿ **وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾.

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)** ﴾

[**النساء**: ٤٠].

٣ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم...** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ ما يلى:

أ - أن رغبة العدو فى السلام ينبغى أن يقابلها ميل المسلمين إلى السلام أيضا، وإنما كانت المبادرة إلى الرغبة فى السلم منهم أولا لأنهم البادئون بالحرب.

ولو رأى المسلمون أن يبدأوا هم بالسلم، وكانت المصلحة العامة للمسلمين تقتضى ذلك فلا بأس أن يبدأ المسلمون بالسلم كما أوصى النبى ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الحديث الذى ذكرناه آنفا «إنه سيكون اختلاف - أو أمر - فإن استطعت أن يكون السلم فافعل».

ب - ومع استجابة المسلمين للدعوة إلى السلام وأخذهم بكافة الأسباب، فإن التوكل على الله والاعتماد عليه وتفويض الأمر كله إليه واجب، وبخاصة فى كبريات الأمور كقبول السلام بعد الحرب، وذلك أن أمور المسلم كلها بيد الله تعالى، فما أجمل أن يتخذ الأمر متوكلا على الله تعالى!!!.

جـ - وقد يكون العدو وهو يطلب المهادنة أو الصلح والسلام خائنا مخادعا على وجه الحقيقة، ولكنه يظهر خلاف ذلك، وعلى المسلم حينئذ أن يقبل الظاهر ويوافق على المهادنة والسلم تاركا شأن هؤلاء الخائنين لله تعالى الذى كان عليه التوكل والاعتماد، فالله تعالى حسب المتوكلين عليه وكافيهم كل عدو، ورادٌّ عليهم كيدهم وخداعهم، وتلك من نعم الله على المسلمين.

ء - وأن الله تعالى قد أنعم على نبيه ﷺ بالنصر والتأييد، وبتأليف قلوب المؤمنين بعد أن كانت هذه القلوب شتاتا فى الجاهلية فألف بينها فأصبحت بنعمته إخوانا، وأنه سبحانه ينصر ويؤيد المؤمنين ويؤلف بين قلوبهم كما فعل ذلك فى بدر مع الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم.

● المهم هو أن يلتزم المسلمون بمنهج الله، وأن يحسنوا التوكل عليه حتى يكون سبحانه حسبهم وكافيهم إزاء كل شر وكل عدو ومحققا على أيديهم النصر بعد الألفة والأخوة فى الإسلام.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

لا يستطيع الدعاة إلى الله أن يجدوا زاداً أبقى ولا أحسن فى مجال الدعوة والحركة مما يجدونه فى آيات القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ، بل لا يستطيع الدعاة أن يحسنوا تصنيف الناس ومعرفة أخلاق كل صنف منهم حتى يحسنوا التعامل مع كل بما يلائمه إلا إذا استهدوا كلمات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بل لا يستطيع الدعاة والحركيون أن يحسنوا التصرف فى المواقف التى تمر بهم فى مراحل الدعوة إلى الله وخطوات الحركة الإسلامية إلا فى هدى الكتاب والسنة.

وذلك ما سوف نوضحه فى تلك الآيات الكريمة فيما يلى والله تعالى هو الموفق المعين.

١ – يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون...**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون**﴾ ما يلى:

أ – أن صنفا من الناس قد يصبحون شرًا من الدواب، أى يفقدون آدميتهم التى كرمهم الله تعالى بها، وهم الكفار الذين يتضح لهم الحق ولكنهم يستمرون على الكفر، منصرفين عن البراهين الساطعة والأدلة القاطعة مغلقين قلوبهم وعقولهم عن الحق والإيمان والهدى.

● ولا عجب من أولئك وما فعلوا فهم «**الذين كفروا فهم لا يؤمنون**» على الرغم من وضوح الطريق وكشف معالمه.

● وللدعاة إلى الله والحركيين مع هذا الصنف عمل هام هو محاولة فتح قلوبهم على الخير والهدى، وفتح عقولهم على الحق والعلم والمعرفة، وهو عمل غير يسير، ولكنه واجب الدعاة والحركيين، أليسوا دعاة هداة؟

● إن الخطأ الذى يقع فيه بعض المبتدئين فى العمل فى مجالى الدعوة والحركة أن يستبعدوا هؤلاد الذين كفروا فهم لا يؤمنون من دائرة اهتمامهم أو دائرة عملهم، وتلك حالة من سوء التصنيف تؤدى إلى اليأس من هداية الكفار، ولا يأس عند من يستمدون زادهم من روح الله وكتابه وسنة رسوله ﷺ !!!

ب - وأن هؤلاء الكفار يزيدون الطين بلة بأن ينقضوا العهد فى كل مرة يتعاهدون فيها مع المسلمين، ولا يتقون الله ولا يخافون الناس، لأن تلك أخلاقهم وهذا وصف الله تبارك وتعالى لهم.

- ومعنى ذلك أن هؤلاء وقد استمروا على الكفر بل أصروا عليه كان منهم نقض العهد والغدر والخيانة.

- والدعاة إلى الله عليهم أن يركزوا فى الحديث عن الإصرار على الكفر، وما يجره على أصحابه من خسران الدنيا والآخرة، وفرصة الدعاة هنا هى التركيز على أن الإصرار على الكفر خسران ليس كمثله خسران، وأن الإصرار على الصغيرة من عصاة المؤمنين يعد كبيرة، وأن الإصرار على الكبيرة قد يؤدى إلى الكفر، إلا من عصم الله من هذا المنزلق.

جـ - وأن العقل الذى ميز الله به الإنسان وكرمه إنما تبدو أهميته وفائدته عندما يستطيع الإنسان أن يهتدى به إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، وأن كل تعطيل لهذا العقل هو إفساد للدنيا وللدين، ولذلك كان العقل مناط التكليف، ومن فقده أو عطله فقد إنسانيته وأصبح من عالم الدواب، فإن أصر على تعطيله والغائه كان من شر الدواب.

- والدعاة إلى الله أعرف الناس بأن الذين يعاندون الدعوة إلى الله ويقفون أمام الحركة الإسلامية إنما يكون عنادهم وتحديهم نابعا من إلغائهم لعقولهم، أو تعطيلها عن التأمل والتدبر.

- وواجب الدعاة إلى الله هو تشجيع الناس على حسن استخدام عقولهم، وشحذها بالتأمل والنظر فى سنن الله تعالى فى الذين خلوا من قبل، ليتنبهوا ويتعظوا، فيقبلوا على الحق وعلى ما يصلح لهم دينهم ودنياهم.

- وفى ذلك الخير كل الخير للدعوة والدعاة والمدعويين والعمل الإسلامى كله، كما فيه حصار لأولئك الذين لا يتقون الله لعلهم يتقونه.

ء - وأن هؤلاء الذين أصروا على الكفر وكان من شأنهم نقض كل عهد يعاهدونه، عند الظفر بهم وهزيمتهم فلابد من التنكيل بهم ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه أن يستمر على الكفر، على الرغم من وضوح البراهين، أو تحدثه نفسه بنقض العهود والمواثيق، إنهم بهذا التنكيل سوف يتذكرون فلا تحدثهم أنفسهم بذلك أبداً.

● والدعاة إلى الله هم أصوات الحق التى تعلم به وتنذر الغافلين عنه، وصميم وظيفتهم أن يذكروا الناس بما يجب عليهم وما لا يجوز لهم، وأن أصر منهم على الكفر ونقض العهد ثم ظفر به عوقب عقابا يردع من تحدثه نفسه بمثل ما فعلوا.

هـ – وأن الكافرين الذين ينقضون العهد فى كل مرة، ثم ينجون من العقاب، قد يتوهم هؤلاء أنهم بمنجى من عذاب الله!!! وهم فى هذا التوهم جد مخطئين، إذ كيف يفوتون عذاب الله تعالى، أو يعجزونه سبحانه وتعالى.

● والدعاة إلى الله هم الذين يوضحون هذه الحقائق للناس، وهى حقائق لابد من استيعابها لكى يعيش الناس حياتهم على مستوى رفيع من إدراك الحقائق الكبرى فى سنن الله فى خلقه، ومن أدرك هذه الحقائق باعد بين نفسه وبين مذام الأخلاق واتصف بمحامدها.

٢ – ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن باط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ ما يلى:

أ – أن الإعداد والاستعداد لمواجهة الأعداء أصل أصيل فى الدين الإسلامى لمسَلَّمة أن الأعداء موجودون فى كل عصر وفى كل مكان نتيجة للصراع المستمر بين الحق والباطل، وأن المسلمين أهل آخر الأديان السماوية وأتمها وأكملها، ولابد أن يعاديهم على هذا الحق مشركون وأهل أديان أخرى.

ب – وأن هذا الإعداد لمواجهة الأعداء جاء فى هذه الآية الكريمة بصيغة الأمر «وأعدوا» والأمر فى هذه الآية عام لكل مخاطب به، والمخاطب هنا هم المسلمون فى كل زمان ومكان.

● وإذا كان الإعداد للأعداء المقاتلين بالآلة العسكرية – كما أوضحنا آنفا – فإن الإعداد للدعوة والحركة يستدعى أنواعا عديدة من العمل[١].

● إن على الدعاة أن يعدوا ما استطاعوا من وسائل وأساليب، لكى يصل صوت الدعوة إلى الله إلى كل أحد، ولكى يخلو طريق الدعوة من كل المعوقات والعقبات.

---

(١) تحدثنا عن تفصيل ذلك في كتابنا الموسع فقه الدعوة إلى الله بجزئيه فليرجع إليه من أراد معرفة هذه التفاصيل – نشر دار الوفاء بمصر: ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

ب – وأن الإعداد عموما وخصوصا يجب أن يكون بكل ما يستطيع الإنسان، وليس يقبل منه أقل مما يستطيع، لأن الله تعالى يقول: «**ما استطعتم**» وكل واحد من المسلمين أدرى بحدود استطاعته ولا رقيب عليه ولا حسيب إلا الله تعالى.

كما لا يطلب من أحد أن يكون إعداده أكبر من حدود استطاعته حتى لا يشق على نفسه، لأن الله تعالى يقول: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ... (٢٨٦) ﴾

[**البقرة**: ٢٨٦].

● والدعاة إلى الله، والعاملون فى الحركة الإسلامية هم أولى المسلمين بأن يعدوا ما استطاعوا دون قصور أو مبالغة لأنهم أهل علم وحكمة وخبرة وسابقة فى العمل الإسلامى، وبأيديهم الموازين الدقيقة لحدود الاستطاعة.

وما لم يلتزم الدعاة والحركيون بذلك اضطربت عليهم الأمور بل ووقعوا هم ومن يدعونهم فى المحظور.

● ومع دراية الدعاة إلى الله والحركيين بهذه الموازين والمعايير، فإن عليهم أن ينقلوا ذلك الإحساس الدقيق الصحيح إلى من يدعونهم ويتحركون فيهم من الناس، حتى لا يبخل أحد بجهد يعطيه ولا يبالغ آخر فى جهد يبذله.

جـ – وأنواع الإعداد والاستعداد كثيرة –تحدثنا عنها آنفا بالتفصيل– ولكن الآية الكريمة تحدثت عن الأصلين الكبيرين فى الإعداد وهما:

– القوة بكل أنواعها فى مواجهة العدو.

– ورباط الخيل بكل ما يدل عليه ويهدف إليه.

وعند التأمل فى هذين الأصلين القرآنيين: القوة والرباط، نجد من السهل الواضح أن تندرج تحت كل منهما عشرات الأنواع من الإعداد، فى مجال الجهاد، ومجالات الدعوة والحركة والعمل الإسلامى بعامة.

ونفصل هنا –على سبيل المثال– ما تدل عليه القوة وما يدل عليه الرباط، وإن كان الأصل فى هذا التفصيل أن يقوم به أهل الاختصاص فى كل فرع من فروع المعرفة:

● فالقوة يمكن أن يندرج تحتها –فى حدود علمى– ما يلى:

– تقوية الروح بإحسان صلتها بالله تعالى عن طريق النوافل، ونحوها من العبادات التى

تقرب إلى الله.

- وتقوية الخلق بالالتزام بأخلاق القرآن الكريم والآداب التى دعا إليها وحبب فيها.

- وتقوية العقل بالعلم والثقافة، وتدريبه عى التأمل والتدبر والنظر فيما خلق الله من شيء.

- وتقوية البدن بالعمل والتريض والنشاط، والأخذ بأسباب قوته والابتعاد عن أسباب ضعفه، ومعيار ذلك الالتزام بما أوجب الله والانتهاء عما حرم سبحانه وتعالى.

- وتقوية الإيمان عن طريق ممارسة العمل الصالح الذى يرضى الله تعالى عنه.

- وتقوية الإحساس بالناس وبمدى ما يحتاجون إليه والاستعداد لبذل الخير والنفع لهم، والتعاون معهم على البر والتقوى.

- وتقوية الرجال القادرين على حمل السلاح فى أى حرب يشنها الكفار على المؤمنين، تقويتهم بكل أنواع القوة التى ذكرناها آنفا.

- وتقوية الرغبة فى الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا حتى لا تفقد الأمة الإسلامية الوصف بأنها أمة مجاهدة.

- وتقوية القدرة على إجراء البحوث العلمية التى تواكب كل احتياجات العصر فى كل مجالات الحياة الإنسانية.

- وتقوية العمل فى المجالات الأساسية والفرعية فيما يلى:

- الدعوة،
- والحركة،
- والتربية،
- والتمكين لدين الله فى الأرض.
- والرباط، يمكن أن يندرج تحته -فى حدود علمى- ما يلى:

- المرابطة بمعنى المحافظة على الحدود والثغور وتأمينها من أى عدو يعتدى عليها، وهذا رباط عامة الناس، بمعنى أن يعيشوا ويسكنوا فى هذه الحدود والثغور، لتكون منهم قوة مساندة لجيش المسلمين عند اشتباكه مع العدو.

- والمرابطة للجيش المسلم بكل ما يملك من إمكانات وآليات، لحماية هذه الحدود والثغور من كل عدو.

- والمرابطة بمعنى التواجد الفكرى والثقافى والحضارى والخلقى فى كل موضع مخافة فى المجتمع، حتى لا يؤتى الناس من قبل فكر ضال منحرف أو ثقافة معادية غازية، أو حضارة وافدة فاسدة تزاحم الحضارة الإسلامية، أو أخلاق هابطة يراد لها أن تسود وتطرد الأخلاق الفاضلة.

إن هذه أهم أنواع المرابطة وهى لا تقل عن مرابطة الجيوش بل هى أهم، لأن الجيوش تحمى أرضا وحدودا، وهذه تحمى قيما ومبادىء وأخلاقا وحضارة.

- والمرابطة بمعنى الالتزام بأمر الله تعالى ونهيه، والمداومة على هذا الالتزام مهما كانت المتاعب والمشاق التى تتكبد من أجل هذا الالتزام.

- والمرابطة بمعنى الثبات على الحق والتواصى به وبالصبر عليه، بل التواصى بالصبر عليه.

- والمرابطة على مستوى الأفراد المجاهدين الذين يعدون أنفسهم لهذا الجهاد كل أنواع الإعداد، بمعنى أن كل واحد من المسلمين عندما يسمع هيعة قد تصيب المسلمين بأى أذى يطير إليها ليحول بينها وبين أذى أحد أى أحد من المسلمين.

فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك العنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغى القتل والموت مظانه».

- والمرابطة بمعنى القيام على ثغور الدعوة إلى الله لسد هذه الثغور بما يحتاج إليه من علم وعمل وفن ومعرفة وخلق وسلوك.

- والمرابطة بمعنى القيام على ثغور الحركة الإسلامية لسد احتياجاتها فى مجالات عملها المتنوع، بما تحتاج إليه من عمل ونشاط وبذل وتضحية واستجابة لتلبية احتياجات الناس، حتى يمكن جمعهم على الله وعلى الإسلام، وعلى الالتزام به والانتماء إليه.

- والمرابطة بمعنى القيام على ثغور التربية الإسلامية -وما أكثر هذه الثغور- لسد احتياجاتها بما تتطلبه من علم وعمل وصبر وقدوة حسنة، وإعداد معلم وإعداد كتاب وإعداد مدرسة وجامعة، وتهيئة تعليم مستمر لكل الناس فى كل سنوات أعمارهم، إذ التربية الإسلامية ليس لها حد تتوقف عنده.

- والمرابطة بمعنى القيام على ثغور التمكين لدين الله فى الأرض، وسد احتياجات هذه الثغور من أفراد يحسنون العمل، ومن فرص عمل ملائم لكل عامل، ومن تمويل وإعداد، وما

أوسع هذا الباب وما أكثر احتياجاته!!! وحسبها من هذه الاحتياجات أنها ثغور خطرة لا يقف عليها ولا يسد احتياجاتها إلا من كان على فقه بالجندية وفقه بالقيادة وفقه بالمسئولية وفقه بالأولويات وفقه بالاحتياجات.

● وهكذا لا يكاد ينتهى الحديث عن فروع القوة وفروع الرباط من وجهة نظر واحد من المشغولين بالعمل من أجل الإسلام ما أوتى من العلم إلا قليلا، فما بالنا بما تفيض به قرائح أهل العلم والاختصاص من هذه الفروع؟.

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم...** ﴾.

ما يلى:

أ – إن عملا أساسيا بل ضروريا يجب أن يقوم به الدعاة والحركيون هو إرهاب العدو وإلقاء الرعب فى قلبه، لأن ذلك هو هدف الإعداد والمرابطة فى سبيل الله، وهذا العدو قد يكون من أهل الأديان وقد يكون من المشركين الملحدين، وقد يكون من شياطين الإنس الذين يحبون الشر والأذى للإسلام والمسلمين، وقد يكون من المنحلين أخلاقيا الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا.

● وهذا العمل قد يكون توعية وتنبيها وعظة، وقد يكون توضيحا لخطة خبيثة يضعها العدو ضد المسلمين، وقد يكون إعدادا مما تحدثنا عن أنواعه آنفا، وقد يكون رباطا فى سبيل الله.

● وقد يكون هذا العمل مناجزة ومواجهة للأعداء فى معاركهم التى يخوضونها ضد الإسلام والمسلمين، وهى ميادين متعددة يصعب حصرها فى هذا المجال.

ب – وعلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يعرفوا هؤلاء الأعداء ويعرفوا بهم الناس وهم فى تصورنا نوعان من الأعداء: نوع منظور معروف وآخر غير منظور ولكنه متوقع.

● أما العدو المعروف فهو الصهيونية والصليبية الحديثة والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا الاتحادية، واتحاد أوربا والنظام العالمى الجديد، وكل صاحب باطل أو هوى ممن يضيرهم أن يسود الحق من غير هؤلاء.

● وأما العدو المرتقب الذى لا يعلمه إلا الله، فإن على أهل العلم والاختصاص أن يحددوا لنا

ملامحه، وما استطاعوا من معالمه لنكون منه على حذر، ونعمل على إرهابه قبل أن يباغتنا.

وقد نبهنا المعصوم الموحى إليه ﷺ إلى هذا العدو المتوقع الذى لن يكف عنا أذاه، فيما رواه ابن العربى بسنده[1] أن رسول الله ﷺ قال: فى قوله تعالى: ﴿**وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾: «**أما فارس فنطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعدها، وأما الروم ذوات القرون، فكلما هلك قرن خلفه آخر إلى يوم القيامة**» صدقت يا رسول الله فإن شر الروم لا ينحسر ولا ينحسم، وإن توقع العداء منهم للإسلام والمسلمين يجب أن يظل أبدا!!!

● والروم هم الغرب اليوم، أوربا وأمريكا،

وهم جزء من الشرق، اتحاد روسيا،

وهم اليهود من أى مكان فى العالم.

● ويجب أخذ الحذر منهم وتوقع عدائهم وشرهم على الدوام «**كلما هلك قرن منهم خلفه آخر إلى يوم القيامة**».

جـ - إن إرهاب هذا العدو المرتقب واجب شرعى ليعيش المسلمون فى أمن وأمان، وهو واجب الدعاة والحركيين أولا، وواجب الحكام المسلمين والشعوب الإسلامية من بعد ذلك.

٤ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ ما يلى:

أ - إن الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وما يكلفه من جهد ووقت ومال ونفس، واجب على كل مسلم قادر عليه أو على شىء منه، وأن التقصير فيه تقصير فيما أمر الله به، بل فرضه سواء أكان فرض عين أو فرض كفاية.

ب - وإن إنفاق المال والجهد والوقت فى سبيل الله، يوفيه الله تعالى على التمام والكمال، فقد روى الترمذى والنسائى وأحمد بأسانيدهم عن خزيم بن فاتك رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة فى سبيل الله كتبت له سبعمائة ضعف».

---

(١) جاء ذلك الحديث فى كتابه: أحكام القرآن ٢٠ / ٨٧٥ ط دار الفكر - بيروت. دون تاريخ.

ويؤكد هذه الأضعاف المضاعفة التى يعامل الله تعالى بها من ينفق ماله فى سبيل الله تعالى قوله عز وجل: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)** ﴾

[**البقرة: ٢٦١**].

جـ - وإن المال ضرورى للجهاد فى سبيل الله تعالى، بل جهاد بغير تضحية.

ومن أجل هذا كان واجب الدعاة إلى الله وكل العاملين من أجل الإسلام أن يعلموا الناس المحافظة على المال، وترشيد إنفاقه، وأن يعلموهم أن المال الباقى هو ما أنفق فى سبيل الله وأن جزاءه عند الله مضاعف إلى سبعمائة مثل أو ضعف.

٥ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم....** ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ **ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ ما يلى:

أ - إن المسلمين أولى بقبول الصلح والمهادنة والسلام إن لمسوا رغبة العدو فى ذلك، فى ظل شروط لا تضر بصالح المسلمين فى الحاضر أو فى المستقبل، فى المنطقة التى عقد فيها الصلح مع العدو أو فى غيرها من بلدان العالم الإسلامى، فالعالم الإسلامى توحد بينه العقيدة قبل الجغرافيا والتاريخ والعدو المشترك، وليس لمسلم أن يعقد صلحا مع عدو، يمكن أن يؤدى إلى ضرر بالمسلمين فى أى مكان.

ب - ومع قبول المسلمين للصلح والسلام، فلابد من أخذ أسباب الحيطة والحذر، مع التوكل على الله والاعتماد عليه.

ومهمة الدعاة إلى الله هى توضيح المعنى الصحيح للتوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، وتوضيح الفروق الدقيقة بين التوكل والتواكل، والأخذ بالأسباب والاعتماد عليها.

جـ - وأن هؤلاء الأعداء قد يظهرون الميل إلى السلام ويضمرون الاستعداد للحرب خداعا منهم وخيانة للمسلمين، والمسلمون عندئذ لا يملكون رفض السلام لأنهم لا يعلمون ما فى قلوب الخبثاء، ولكن الله تعالى سوف يكفى المسلمين خداع هؤلاء الكافرين، وسوف يؤيد المسلمين بما شاء من أسباب التأييد، عدةً ورجالا.

• إن على الدعاة إلى الله أن يطمئنوا الناس على هذه الحقائق التى لا تقبل تغيرا ولا تخلفا، حتى يقبل المسلمون على العمل مطمئنين إلى معية الله تعالى وتأييده ونصره.

د - وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يحرصوا الحرص كله على شكر نعمة الله على المؤمنين إذ ألف بين قلوبهم - وإن كان إنفاق ما فى الأرض جميعا لا يكفى لتأليف هذه القلوب - وشكر هذه النعمة بالمحافظة على هذه القلوب متحابة متآلفة متآخية فى الإسلام، عارفة بفقه الأخوة فى الإسلام.

• إن على الدعاة إلى الله أن يطمئنوا الناس على هذه الحقائق التى لا تقبل تغيرا ولا تخلفا، حتى يقبل المسلمون على العمل مطمئنين إلى معية الله تعالى وتأييده ونصره.

د - وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يحرصوا الحرص كله على شكر نعمة الله على المؤمنين إذ ألف بين قلوبهم - وإن كان إنفاق ما فى الأرض جميعا لا يكفى لتأليف هذه القلوب - وشكر هذه النعمة بالمحافظة على هذه القلوب متحابة متآلفة متآخية فى الإسلام، عارفة بفقه الأخوة فى الإسلام.

١٢ - الآيات من الرابعة والستين إلى السادسة والستين:

فى تحريض النبى ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم على القتال، ومطالبة المؤمنين بالصبر فى القتال والفقه فى الدين؛ لأن من سنة الله تعالى فى الحرب أن ينصر الصابرين

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾ [الأنفال: ٦٤ - ٦٦].

- هذه الآيات الكريمة تأتى بعد الآيات الكريمة السابقة التى طمأنت الرسول ﷺ على أن الله حسبه ومؤيده بالنصر وبالمؤمنين الذين ألف بين قلوبهم، تأتى هذه الآيات لكى تذكر الرسول ﷺ بأن الله حسبه وكافيه وأن المؤمنين مظاهروه ضد الكفار الذين خانوا وأضمروا الغدر، وتطالبه بأن يحرض المؤمنين على القتال، وتخبره بأن الله تعالى قد أنعم عليه وعلى المؤمنين بأن جعل الرجل منهم قادراً على قتال عشرة رجال من الكفار بما له من صفة الصبر والفقه، ثم خفف الله على المؤمنين إذ علم أن فيهم ضعفا عن ذلك، فجعل الرجل الواحد منهم قادراً على قتال اثنين، ووعدهم بالنصر ما داموا صابرين.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على أكثر من نداء وأكثر من أسلوب شرط، وأكثر من خبر، لتوضيح أحوال الكافرين، وأحوال المؤمنين، على ما سنبين ذلك بإذن الله تعالى، فيما يلى:

- **﴿ يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾.**

هذا نداء على النبى ﷺ يخبره فيه ربه سبحانه وتعالى بأن الله تعالى كافيه كيد الذين كفروا، وكافيه فى مناجزتهم، وأنه سبحانه وتعالى كافٍ من اتبعوه من المؤمنين، فهم جديرون بأن يتنزل النصر على أيديهم، وأن هؤلاء المؤمنين الذين اتبعوا الرسول ﷺ سوف

يكفيهم الله تعالى كيد الكافرين وقتالهم.

والمعنى العام الذى يفهم من ذلك أن الله تعالى كافٍ رسوله ﷺ وأصحابه كل ما يهمهم من أمر الأعداء، وأمر الأعداء عام يشمل السلم والحرب بنصرهم على أعدائهم مهما كثر عددهم وتعاظمت عدتهم.

- ﴿ **يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين...** ﴾ الآية.

● هذه الآية الكريمة تطالب النبى ﷺ بأن يحثَّ المؤمنين على قتال أعدائهم، وقد استجاب الرسول ﷺ لذلك فحرضهم، فقال لهم فيما رواه أحمد ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه حين أقبل المشركون فى عَدَدهم وعُدَدهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال عمير: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها».

فتقدم الرجل - عمير - فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منها، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه».

- ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين...** ﴾ الآية.

هذا شرط يحمل معنى الأمر، فهو خبر يراد به الإنشاء؛ بدليل التخفيف فى الآية التالية ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا....** ﴾ الآية. وبدليل أن المقام مقام تشريع لا مقام إخبار.

والمعنى: إن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين من الذين كفروا، بتأثير إيمانهم وصبرهم وفقههم. لأن الكافرين محرومون من هذه الصفات: الإيمان والصبر والفقه.

أى كتب الله عليكم أن لا يفر عشرون منكم من مائتين من الذين كفروا، قال بذلك ابن عباس رضى الله عنهما.

وروى محمد بن إسحق بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ثقل على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين ومائة ألفًا، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا....** ﴾ الآية، فكانوا إذا

كانوا على الشطر من عدوهم لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم.

﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين....** ﴾ الآية.

أى لا ينبغى لمائة منكم أن يفروا من مائتين من الأعداء، رواه علماء الحديث، ومنهم الإمام البخارى رحمه الله.

● هذه الآية الكريمة تدل على أن من شأن المؤمنين، بل مما طولبوا به أن يكونوا أصبر من الكافرين، وأعلم منهم وأفقه بكل علم وفن يتعلق بالحياة الإنسانية المحققة لكرامة الإنسان، وأن يكون الكفار أقل من المؤمنين فى هذه الصفات، وذلك الذى جعل العشرة منهم فى مقابل واحد من المؤمنين، ثم خفف الله عن المؤمنين فأصبح الاثنان من الكافرين فى مقابل مؤمن واحد.

● والضعف الذى كان بالمؤمنين فى معركة بدر هو بمعنى كراهية القتال - لقلة العدد وضعف الاستعداد - كما أوضحت ذلك الآية التى فى أول السورة وهى: ﴿ **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ** (٦) ﴾ [**الأنفال**: ٦].

﴿ **بإذن الله** ﴾ أى بإرادته ومشيئته وقدرته وإعانته.

﴿ **والله مع الصابرين** ﴾ أى أن من كان الله تعالى معه فهو الغالب المنصور، فهى مَعيَّة تعنى المعونة والنصر.

ومعنى ذلك أن من سنن الله فى الغَلَب والنصر أن يكون للصابرين على من هم أقل صبراً.

وفى هذا تحذير للمؤمنين من أن يظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النصر والغلب؛ إذ لابد معه صفات أخرى وهى الصبر والعلم والفقه بحقائق الأمور وبسنن الله تعالى فى الخلق وفى ممارسة الحياة، والكفار كما وصفهم الله تعالى: ﴿ **قوم لا يفقهون** ﴾.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

يتعلم المسلمون من هذه الآيات كثيراً من القيم وكثيراً من الصفات التى يجب أن يتحلى بها من يقاتل فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، ليتحقق له النصر، ومن ذلك ما نوضحه فيما يلى:

١ - يتعلم المسلموم من قوله تعالى: ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ ما يلى:

أ - الاعتقاد الراسخ بأن الله تعالى كافٍ النبى ﷺ والمؤمنين فى كل يحزبهم من أمر.

ومعنى ذلك أن المؤمنين فى كل زمان ومكان إذا اتقوا الله والتزموا بمنهجه كفاهم سبحانه كل ما يهمهم من أمر، فى سلمهم أو حربهم.

ويدخل فى هذه التقوى وذلك الالتزام حسن التوكل على الله وصدق الاعتماد عليه بعد الأخذ بكل ما يتاح من أسباب.

ب - والاعتقاد الجازم بأن المؤمنين دائمًا فى حاجة إلى تأييد الله تعالى ونصره، مهما توفر لديهم من أسباب النصر، أسبابه المعنوية كالإيمان والصبر والفقه، وأسبابه المادية كالعَدد والعدة والسلاح.

جـ - وأن كلمة ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ تعبير قرآنى يقوله المؤمنون كلما حزبهم أمر، فيكفيهم الله مئونة هذا الأمر مهما كان كبيراً، وقد قالها المؤمنون فى معركة أحد فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء[١].

٢ - ويتعلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ ما يلى:

أ - أن المؤمنين بحاجة مستمرة إلى الحث والتشجيع على أداء الفروض والواجبات، فضلاً عن السنن والمندوبات؛ لأن ذلك من باب التذكير، وليس دليلا على التقصير، والنفس عمومًا تحب أن تخفف من الواجبات.

(١) شرحنا ذلك بتوسع فى كتابنا: التربية الإسلامية فى سورة آل عمران: الآية: ١٧٣. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

ب – وأن القتال فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا فرض عين على كل مسلم قادر على ذلك عند اعتداء العدو على المسلمين، وفرض على سبيل الكفاية – أى إن قام به البعض سقطت فرضيته عن الباقين – فى ظروف كثيرة.

والأصل أن القتال مشقة وتحمل وفيه تضحيات عديدة منها النفس ذاتها، فكان لابد من الحث والتشجيع عليه، وهو التحريض الذى أمر به النبى ﷺ مع المؤمنين.

جـ – وأن من أهم صفات المؤمنين الذين يقاتلون فى سبيل الله بعد صفة الإيمان:

الصبر، على متاعب الجهاد فى سبيل الله تعالى.

والفقه، بمعنى فَهْم ما يقاتلون من أجله وهو ثواب الله تعالى بالاستجابة لأمره ونهيه.

- وأن الكفار وإن كان لبعضهم صبر على القتال فإنهم لا يفقهون ما يقاتلون من أجله ولو فقهوا ما قاتلوا، فهم يقاتلون عن الباطل ويستهدفون الغنائم ومتع الدنيا، ويخالفون الله تعالى.

- ومن أجل هذا الفارق الضخم بين المؤمنين والكافرين كان الواحد من المؤمنين يواجه عشرة من الكافرين، ثم ضعف هذا فأصبح الواحد يواجه اثنين.

- والقاعدة العامة فى ذلك أن الله تعالى دائمًا مع الصابرين عمومًا، ومع الصابرين على مشقات القتال بوجه خاص، يؤيدهم وينصرهم على أعدائهم، ﴿ **والله مع الصابرين** ﴾، ولكن التأييد والنصر لا يكونان إلا بإذن الله تعالى ومشيئته، لعباده المؤمنين الصابرين.

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين....** ﴾ الآية، ما يلى:

أ – أن الله تعالى يعلم ضعف المؤمنين أحيانًا عن مواجهة الأعداء المتفوقين عَددًا، وعُددًا، ولكنه سبحانه يتجاوز عنهم؛ لأن هذا الضعف لم يكن ضعف إيمان ولا ضعف قلوب وتخاذل، وإنما هو ضعف سببه الرغبة فى توازن القوى مع العدو، وتلك سياسة لا تتعلق بضعف الإيمان.

- علم الله تعالى ذلك من المؤمنين – وهو بكل شىء عليم – فخفف عنهم، فجعل الواحد منهم يواجه اثنين لا عشرة، ولا يباح له الفرار من اثنين.

ب - وأن رحمة الله بالمؤمنين ورأفته بهم واقع ملموس بل هى سنة من سننه سبحانه وتعالى، وهذا يؤكد أن سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وما يريد أن يشق على المؤمنين فى شيء من تكاليفه.

والله تعالى يريد أن يبين للمؤمنين ما أوجب عليهم وما حرم وما أباح، ويريد أن يهديهم سنن الذين من قبلهم، ويريد أن يتوب عليهم، ويريد أن يخفف عنهم، وكل ذلك جمعته ثلاث آيات من سورة النساء[1]، وإنما يريد الله تعالى كل ذلك؛ لأن الإنسان خلق ضعيفًا.

جـ - وأن معية الله للمؤمنين تُكتسَب بالصبر بعد الإيمان، والصبر من أهم صفات المؤمن، وحسبها شرفًا أنها تُكسب معيّة الله تعالى.

- وإنما كان الصبر كذلك لأنه حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل، ولأهميته بين صفات المؤمن أمر الله تعالى به فى القرآن أكثر من عشرين مرة، أمر به النبى ﷺ تسع عشرة مرة، وأمر به المؤمنين سبع مرات، وامتدح الله الصبر فى أكثر من ثلاثين موضعاً فى القرآن الكريم، وأخبر بأن للصبر عنده أحسن الجزاء فى أكثر من عشر آيات!

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

فى هذه الآيات الثلاث دروس عظيمة للدعاة والحركيين، لابد لهم منها فى مجالات عملهم كلها، ونستطيع أن نذكر من ذلك ما يوفق الله إليه فيما يلى:

١ - يتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**﴾ ما يلى:

أ - أن كل متاعب يتعرض لها الدعاة إلى الله والعاملون فى مجالات العمل الإسلامى كلها سوف يكفيهم الله مئونتها، ويصرف عنهم شرها، ويحتسب لهم أجرها.

- وفى ذلك ما يطمئن الدعاة إلى الله على حاضرهم بل مستقبلهم، ويؤكد لهم أنهم الرابحون على الرغم مما يتعرضون له من متاعب ومشاق.

(١) هى الآيات: ٢٥، ٢٦، ٢٧.

ب - وأن المؤمنين عموماً والدعاة والحركيين على وجه الخصوص أهل صبر على ما يصيبهم فى سبيل الله تعالى، والله تعالى حسبهم وكافيهم، فقد روى البخارى بسنده عن أبى سعيد الخُدرى رضيّ الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ومن يتصبَّر يصبره الله، وما أُعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر».

وروى مسلم بسنده عن صهيب بن سنان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

جـ - وأن الدعاة إلى الله يجب أن يكون كل اعتمادهم على الله تعالى، وكل توكلهم عليه، مع أخذهم بكل الأسباب المتاحة، فإذا فعلوا ذلك ثم تأخر عنهم النصر حيناً، فليوقنوا أن الله حسبهم وأنه ناصرهم فى الوقت الذى يشاء والمعركة التى يريد، والمكان الذى يشاء.

- يجب أن يكون لديهم يقين بذلك لا يحول ولا يزول، وماذا يريدون أكثر من قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**﴾؟

د - وليوقن الدعاة أن أمرهم كله خير لهم، ماداموا مؤمنين مستكملى صفات الإيمان، ومهما يتأخر عنهم نصر الله أو توفيقه وتأييده فى موقف أو فى معركة فإن ذلك فى صالحهم. لأن حكمة الله تعالى فى تأجيل النصر قد تكون لفائدة غير منظورة لا يعرفونها، إن عجل لهم النصر، وقد يكون ذلك التأجيل من الابتلاء والتمحيص، وتثبيت الإيمان، وكل ذلك لخير المؤمن.

هـ - وأن الدعاة إلى الله أهل لأن يكون الله تعالى -حبه وطاعته والإقبال عليه- فى قلوبهم وعقولهم، وأن يعلّموا ذلك من يدعونهم من الناس.

- ومن كان كذلك كان على يقين من نصر الله تعالى وتأييده وعلى ثقة من أن الله حسبه وكافيه وناصره فى كل معركة يخوضها من أجل دينه، فقد جعل الله تعالى ذلك حقاً عليه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** (٤٧)﴾

[الروم: ٤٧].

٢ - ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿**يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم**

مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ ما يلى :

أ - أن قاعدة : « القلة المغلوبة والكثرة الغالبة فى الحرب » قاعدة ليست مضطردة، وأنها قد تنخرم، بل كثيراً ما تنخرم؛ إذا كانت القلة مؤمنة والكثرة غير مؤمنة، يفهم ذلك ضمناً من هذه الآية الكريمة والآية التى بعدها، كما يفهم صراحة من قوله تعالى :

﴿ .... كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾

[البقرة : ٢٤٩] .

● ومعنى ذلك ألا يحزن الدعاة إذا وجدوا أنفسهم ومن معهم قلة، ووجدوا أهل الباطل كثرة؛ لأنهم إذا صبروا أذن الله لهم أن يغلبوا وهم قلة ويحققوا النصر المبين.

ب - وليدرك الدعاة ومن معهم من المؤمنين أن لهم عند الله تعالى منزلة رفيعة القدر؛ إذ ساوى بين الواحد منهم فى القتال وبين عشرة من الكافرين فى أول الأمر، ثم ساوى بين الواحد منهم فى القوة وبين اثنين من الكفار.

● وأن هذه المنزلة إنما كانت لأنهم يفقهون ويصبرون على ما يصيبهم فى سبيل الله تعالى.

جـ - وأن من الحقائق أن الكافرين مهما أوتوا من العَدَد والعتاد ومهما ملكوا من أسباب القوة المادية فإن ذلك لا يضمن لهم نصراً فى معركة لا يريد الله أن ينصرهم فيها؛ لأنهم لا يفقهون أن أعمالهم فى الكفر وتحدى الحق وأهله لا ترضى الله ولا تحقق لهم مصلحة فى الدنيا - وإنما هو السراب والخداع يبدو فى صورة مصلحة - فضلاً عن خسران الآخرة.

● ومهما انتصر الكفار فى إحدى المعارك فإنما السبب هو أن الله تعالى يمد لهم فى الحبل ويملى لهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، ويمحص المؤمنين بأن ينصر عليهم الكفار فى جولة، ثم يكون النصر الحقيقى للمؤمنين.

● هكذا يجب أن يدرك الدعاة إلى الله هذه الحقائق، وأن يودعوا المدعوين بها، حتى يحيا من حىّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وتلك سنة الله فى الذين خلوا، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى : **﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع**

الصابرين ﴾ ما يلى.

أ - على الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يتعلموا من هذه الآية الكريمة أن الله تبارك وتعالى يخفف عن الذين آمنوا ويتجاوز عنهم عندما يرى منهم إخلاصا فى أداء ما أمر الله به وما ندب إليه، ومعنى ذلك التخفيف أن يصرف عنهم السوء وأن يبارك لهم فى أعمالهم، ويوفقهم فيما يعملون.

● والدعاة إلى الله والحركيون يخفف الله عنهم كثيرا مما يعانون ويصرف عنهم السوء، ويرد كيد عدوهم إلى نحره؛ لأنه سبحانه يعلم أن أعداء الدعوة إلى الله أضعاف أضعاف المدافعين عن الدعوة وعن الحق، ويعلم أن أنصار الحق أقل وأضعف من أن ينازلوا هذه الجحافل من شرق وغرب، فيقبل منهم ما يقدمون، ويتيح لهم من الأسباب ما به ينتصرون.

ب - هذا التخفيف عن الدعاة وعن المؤمنين إنما هو رحمة من الله بهم، وذلك شأنه سبحانه مع عباده المؤمنين، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ ... ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ (١٧٨) ﴾ [البقرة: ١٧٨].

● وكلما تعرض الدعاة إلى الله لمحنة كانت رحمة الله بهم أقرب إليهم من كل شيء، تلك سنته سبحانه وتعالى فى الصالحين من الذين خلوا من قبل، كما فعل سبحانه مع هود والمؤمنين من قومه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا (٥٨) ﴾ [هود: ٥٨]، وكذلك فعل مع صالح والذين آمنوا معه، ومع شعيب والذين آمنوا معه، ومع محمد ﷺ والذين آمنوا معه، نجاهم جميعا برحمة منه وفضل.

●ومن المسلم به فى فقه الشريعة الإسلامية أن رحمة الله قريب من المحسنين، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ولا إحسان إلا بعد إيمان وإسلام، ولا إحسان إلا مع مراقبة الله تعالى وعبادة المحسن له كأنه يراه، ولا إحسان إلا مع الإجادة والإتقان لكل ما يقوم به الإنسان من عمل.

● والدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية أولى الناس بأن يكونوا من المحسنين فى مجالات الدعوة والحركة والتربية والتمكين لدين الله فى الأرض -وهم بفضل الله كذلك- أفلا تكون رحمة الله قريبا منهم، فيخفف عنهم ويتجاوز لهم عن بعض الزلات أو

الهفوات؟ إنه سبحانه رحيم ودود.

جـ - وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية يجب أن يكونوا من أشد الناس فرحا وأكثرهم سعادة، بقوله تعالى ﴿ **والله مع الصابرين** ﴾؛ لأنهم أهل صبر وتحمل، ولأن كلا منهم يعلم علم اليقين أن تصديه للعمل من أجل الإسلام سوف يجر عليه من المتاعب والمحن ما لا يستطيعه إلا الصابرون، ومع ذلك يقبلون على العمل فى مجالات الدعوة والحركة والتمكين لدين الله فى الأرض!!

- أفلا يفرح الدعاة إلى الله والعاملون من أجل التمكين لدينه بهذه المعية وما تجلبه على من كان الله معه من تأييد وتوفيق ونصر، وصرف سوء؟

بلى هم أشد الناس فرحا بذلك وسعادة بهذه المعية.

١٣ - الآيات من السابعة والستين إلى الحادية والسبعين:

أحكام الأسرى وأسلوب التعامل معهم يكشف عن احترام الإسلام لإنسانية الإنسان

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٧١].

● هذه الآيات الكريمة توضح أحكام الأسرى فى الحروب، وتقرر أن المن على الأسرى أو قبول الفداء منهم إنما يكون مرحلة من المراحل فى النظام الإسلامى لنتائج الحروب، بعد أن يستقر أمر الحكم ويثبت ويعظم شأنه فى القتال وفى مواجهة قوى الباطل والشر.

بعد ذلك الاستقرار يكون للنبى ﷺ ولكل حاكم مسلم أن يمن على الأسرى أو يقبل منهم الفداء، حسب ما تقتضيه المصلحة العامة للمسلمين.

وتبين الآيات الكريمة أن الرغبة فى فداء الأسرى إنما هى رغبة فى عرض الدنيا وما يجلبه الفداء من مال، فى حين أن الأصل هو الرغبة فى الآخرة فيما عند الله.

ولولا أنه سبق فى علم الله تعالى ألا يؤاخذ المسلمين على رغبتهم فى الفداء أو فى عرض الدنيا بالنسبة لأسارى معركة بدر، لعذبهم سبحانه وتعالى.

ثم تشير الآيات إلى أن مال الغنائم حلال -وإن كان من عرض الدنيا- لكن بشرط أن يكون أكل هذا المال مصحوبا بتقوى الله عز وجل.

وتوضح الآيات الكريمة أسلوب التعامل مع الأسرى وهو أسلوب إنسانى يستهدف مصالحهم، ويبدأ بأن يُعرض عليهم الدخول فى الإسلام عليهم وترغيبهم فى ذلك، وإخبارهم بأن الله تعالى سوف يغفر لهم ما قد سلف منهم فى عدائهم للإسلام والمسلمين.

ثم إخبارهم بأنهم لو دخلوا فى الإسلام خيانة وخوفا من الأسر فذلك شأنهم وليس للمسلمين أن يرفضوا منهم ذلك، ولكن حساب تلك الخيانة عند الله الذى أمكن المسلمين منهم حتى وقعوا فى الأسر؛ لأنه سبحانه عليم ببواطنهم، حكيم فى تشريع الأحكام لهم.

- وقد اشتملت الآيات الكريمة على أكثر من خبر، وعلى أكثر من أسلوب شرط، وعلى أكثر من أمر، وعلى نداء للنبى ﷺ، كما قررت الآيات عددا من الحقائق، مما سوف نوضحه فيما يلى وبالله التوفيق.

– **﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾.**

- « يثخن فى الأرض »: أى يقاتل ويقتل أعداءه حتى تكون له العزة والقوة التى ترهب عدوه، لا أن يحرص على أسر العدو وإبقاء حياته طمعا فى فدائه.

- « وعرض الدنيا »: أى متاعها، والمقصود به المال الذى يُفدى به الأسرى.

- « والله يريد الآخرة » أى يريد لكم ما فيه صالحكم فى الآخرة وهو ثواب الله ورضاه.

والمعنى الإجمالى لهذه الآية الكريمة –والله أعلم–: ليس من شأن نبى من الأنبياء ولا من سنة الحرب، أن يكون لهذا النبى أسرى فيتردد فى أمرهم بين المن والفداء؛ إلا بعد أن يعظم شأنه ويستقر أمره بأن يتم له الغلب والسيطرة؛ لأن منه على الأسرى قبل ذلك أو قبوله الفداء منهم يكون سببا فى ضعف أمره وتقويه عدوه.

وهذه الآية الكريمة تنكر على بعض المسلمين ما وقع منهم من عمل فى المن على الأسرى أو فدائهم، مخالفين فى ذلك العمل الحكمة الإلهية فى وجوب الإثخان فى القتل؛ حتى يستقر الأمر ويقوى شأن المسلمين.

- ولتلك الآية قصة ترويها كتب السنة والسيرة النبوية:

– فقد روى الترمذى بسنده عن ابن مسعود –رضى الله عنه– قال: لما كان يوم بدر جىء بالأسرى:

فقال أبو بكر –رضى الله عنه–: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم،

وقال عمر -رضى الله عنه-: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم،

وقال عبد الله بن رواحة -رضى الله عنه-: انظروا واديا كثير الحطب فأضرموه عليهم نارا. فقال العباس -رضى الله عنه- وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك،

فدخل رسول الله ﷺ -أى بيته- ولم يرد عليهم شيئا،

فقال أناس: يأخذ بقول أبى بكر -رضى الله عنه،

وقال أناس: يأخذ بقول عمر -رضى الله عنه،

فخرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة. مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم -عليه السلام- قال: ﴿**فمن تبعنى فإنه منى، ومن عصانى فإنك غفور رحيم**﴾، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى -عليه السلام- قال: ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾.

ومثلك يا عمر كمثل نوح -عليه السلام- إذ قال: ﴿**رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا**﴾ ومثلك يا عمر كمثل موسى -عليه السلام- إذ قال: ﴿**ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**﴾، أنتم عالة، فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق» قال ابن مسعود: قلت يا رسول الله: إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىّ حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله عز وجل: ﴿**ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن...**﴾ إلى آخر الآية.

- وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما أسروا الأسارى -يعنى يوم بدر- قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى»؟ فقال أبو بكر -رضى الله عنه-: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام،

فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب»؟ فقال: لا والله، لا أرى الذى رأى أبو بكر، ولكننى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليا من عقيل -أى أخيه- فيضرب عنقه، وتمكننى من فلان -نسيبا لعمر- فأضرب عنقه، ومكن فلانا من فلان قرابته، فإن

هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها،

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت،

فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر -رضى الله عنه- قاعديْن يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما،

فقال رسول الله ﷺ: «أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة -شجرة قريبة منه ﷺ- وأنزل الله عز وجل: ﴿**ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض**﴾.

- ﴿**لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾.

قال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحدا شهد بدرا،

وروى مثله عن سعد بن أبى وقاص -رضى الله عنه،

وقال سفيان الثورى رحمه الله: لولا كتاب سبق لهم بالمغفرة،

وقال ابن عباس -رضى الله عنهما-: لولا كتاب من الله سبق يعنى فى أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم، لمسكم فيما أخذتم من الأسارى عذاب عظيم،

وقال ابن جرير الطبرى: لولا كتاب من الله سبق لهذه الأمة بإحلال الغنائم، واستشهد لذلك بما أخرجاه فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلى، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلتْ لى الأرض مسجدا وطهورا، وأُحلتْ لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة» ولهذا قال تعالى: ﴿**فكلوا مما غنتم حلال طيبا**....﴾ الآية، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

- وقد استمر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم:

إن شاء قتل، كما فُعل ببنى قريظة،

وإن شاء فادى، كما فعل بأسرى بدر،

وإن شاء بادلهم بأسرى من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع -رضى الله عنه- حيث ردهما وأخذ فى مقابلهما

من المسلمين الذين كانوا عند المشركين،

وإن شاء استرق من أسر.

هذا هو مذهب الشافعي وطائفة من العلماء.

ولبعض العلماء آراء أخرى فى هؤلاء الأسارى تُلتمس فى كتب الفقه الإسلامى.

● وقد كان موضوع التعامل مع أسرى بدر موضوع كلام ولغط بين المسلمين، حتى حسمته هذه الآية الكريمة.

– أخرج البيهقى بسنده عن ابن عباس –رضى الله عنهما– فى قوله تعالى: ﴿**ما كان لنبى أن يكون له أسرى...**﴾ قال ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله فى الأسارى: ﴿**فإما منا بعد وإما فداء**﴾ فجعل الله تعالى النبى والمسلمين فى أمر الأسرى بالخيار؛ إن شاءوا قتلوهم وإن شاءوا استعبدوهم وإن شاءوا فادوهم.

وهذا غير المن عليهم بلا فداء؛ إن رغب المسلمون فى ذلك.

– وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردوية من طريق نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما– قال:

اختلف الناس فى أسارى بدر، فاستشار النبى ﷺ أبا بكر وعمر –رضى الله عنهما.

فقال أبو بكر –رضى الله عنه–: فادهم،

وقال عمر –رضى الله عنه–: اقتلهم،

قال قائل[1]: أرادوا –أى الأسرى– قتل رسول الله وهدم الإسلام ويأمر أبو بكر بالفداء!

وقال قائل: لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه ما أمر بقتلهم،

فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبى بكر –رضى الله عنه– ففاداهم، فأنزل الله تعالى: ﴿**لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إن كان ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر».

– وأخرج ابن جرير عن ابن إسحق: لما نزلت: ﴿**لولا كتاب من الله سبق....**﴾ قال رسول الله

---

(١) لم تذكر كتب السيرة ولا كتب التاريخ اسم هذا القائل، مما يدل على أن ليس من مشاهير الصحابة –رضى الله عنهم.

ﷺ: «لو نزل عذاب من السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ لقوله: يا نبى الله، كان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال».

- ﴿ **فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا** ﴾، أى إذا كان الله تعالى قد سبق منه كتاب فى أنه لا يعذبكم، أو يقتضى ألا يعذبكم بهذا الذنب الذى خالفتم به سنته وهدى أنبيائه، فكلوا مما غنمتم من الفداء حالة كونه حلالا بإحلال الله تعالى إياه لكم الآن طيبا فى نفسه لا خبث فيه مما حرم لذاته كالميتة ولحم الخنزير.

واجعلوا باقيه -أى ما لم تزكلوه- فى المصالح التى بينت لكم فى قسمة الغنائم.

﴿ **واتقوا الله** ﴾ فى العود إلى أكل شيء من أموال الناس كفارا كانوا أو مؤمنين، من قبل أن يحله الله تعالى لكم.

« إن الله غفور رحيم » أى غفور لذنوب أهل الإيمان من عباده رحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها.

● وهذه الآيات الكريمة الثلاثة من قوله تعالى: ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى...** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ يمكن أن نلخص ما تضمنته بعدما قدمنا من شرح، فيما يلى:

ليس من سنة الله فى أنبيائه أن يكون لأحدهم أسرى فيفاديهم أو يمن عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه؛ لكيلا يؤدى ذلك الفداء أو المن إلى إضعاف المؤمنين وتقوية الكافرين.

وأن ما فعله المسلمون من مفاداة الأسرى فى بدر بالمال كان ذنبا سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان فى القتل الذى تقتضيه الحكمة، ولولا ذلك لكانوا سألوا رسول الله ﷺ عنه، كما سألوه عن الأنفال من قبل.

وأنه لولا كتاب من الله سبق مقتضاه ألا يعذب على أخذ هذا الفداء، قبل أن يأذن بأخذه، لمسهم عذاب عظيم فى أخذهم الفداء.

﴿ **يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أُخذ منكم، ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾.

● هذه الآية الكريمة تتضمن توجيها فى التعامل مع الأسرى، وذلك بطريقتين:

أحدهما: ترغيبهم فى الإسلام ببيان ما فيه من خير لهم فى الدنيا والآخرة، وذلك بالدعوة والإقناع.

والآخر: بقبول دخولهم فى الإسلام مع إخبارهم بأن الله تعالى قد غفر لهم ما سلف من كفرهم، بغض النظر عن صدق نواياهم فى دخولهم فى الإسلام، وإنما يكفى تبصيرهم بمصيرهم لو بقوا على الكفر.

والمعنى: قل يا محمد للأسرى الذين فى أيديكم مما فاديتموهم: ﴿ **إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا، يؤتكم خيرا مما أخذ منكم** ﴾، أى يعطيكم حين تدخلون فى الإسلام ما هو خير لكم مما أخذه المؤمنون منكم من الفداء. ﴿ **يغفر لكم** ﴾ ما كان منكم من الشرك وما ترتب عليه من السيئات.

وقد كان العباس -رضى الله عنه- يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لى ما فى الدنيا من شىء، فلقد أعطانى الله خيرا مما أخذ منى مائة ضعف، وأرجو أن يكون غفر لى.

﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى غفور لمن تاب من كفره ومن ذنبه، رحيم بالمؤمنين.

- ﴿ **وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم** ﴾.

● أى إن أراد هؤلاء خيانتك بما يظهرون من الميل إلى الإسلام أو دعوى إبطال الإيمان، أو الرغبة فى قتال المسلمين من بعد.

إن أرادوا ذلك فلا تخف ما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى حربك وقتالك، فإن الله تعالى سيكون معك... وهم قد كان لهم سابقة فى الكفر والخيانة فلم يفلحوا.

«فقد خانوا الله من قبل» باتخاذ الأنداد والشركاء له سبحانه وتعالى، وبكفرهم بنعم الله، وكفرهم بالرسول ﷺ.

فماذا كانت نتيجة كفرهم؟ هزمهم الله ونصركم عليهم.

«فأمكن منهم» أى مكنك يا محمد أنت وأصحابك منهم؛ بأن نصركم عليهم فى معركة بدر، مع أنهم كانوا أكثر منكم عددا وعُددا.

وكذلك يمكنك الله منهم فى المستقبل ويمكنك من كل من يخونك من بعد؛ لأن تلك سنته فى أنبيائه وأوليائه.

﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أى عليم بما يضمرون وبما سوف يكون من خيانتهم، حكيم فى هرمهم ونصرهم المؤمنين عليهم.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة

هذه الآيات زاخرة بالمواقف التربوية المعلمة فى مجال الحياة عموما وفى مجال التشريع والتعامل مع الأسرى خصوصا، ولا يمكن أن يعيش المسلمون بمعزل عن هذه التشريعات أو بغيرها من النظم والتشريعات، وذلك ما سنوضحه فيما يلي والله الموفق.

١ - يتعلم المسلمون من قوله تعالى: «ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض...» الآية ما يلى:

أ - أن الأنبياء -وهم صفوة البشر الذين اصطفاهم الله تعالى من خلقه- ليس لهم مطلق التصرف فى بعض المواقف الخاصة؛ إلا بعد أن تتأيد الدعوة وتتأكد الحركة، ويحدث التمكين لدين الله تعالى. عندئذ فقط يكون للنبى أو للحاكم المسلم أن يتصرف مع الأسرى بالمن أو الفداء، بعد أن اطمأن المسلمون على دينهم ومكن له فى الأرض.

ب - وأن المسلم لا يجوز له أن يؤثر عرض الحياة الدنيا ومتاعها على ما عند الله تعالى، بل الأصل أن يؤثر ما عند الله على كل ما فى الدنيا؛ لأن ﴿ **وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)** ﴾ [القصص: ٦٠].

وليس ذلك يمنع من أن يأخذ المسلم من الدنيا ومتعها وأعراضها ما يصلحه، وما لا يضره فى دينه ودنياه.

أما إن رغبوا فى متاع الدنيا وعرضها فقط، فذلك ما لا يقبله الله تعالى: «تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة»؟

جـ - وأن إرادة ما عند الله والآخرة هو عمل العقلاء الذين لم يغب عنهم أن الدار الآخرة هى الحياة وهى النعيم المستمر لمن أرضى الله تعالى، والتزم بمنهجه ونظامه.

● وإذا كانت رحمة الله تعالى قد أرادت للمؤمنين الآخرة وما فيها من نعيم مقيم، أفما يريدها المؤمنون لأنفسهم؟!

٢ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ ما يلى :

أ – أن الإنسان بحكم بشريته معرض لأن يخطئ ويؤثر حظ نفسه ومكسبها العاجل على ما عند الله من الخير، وهو الكسب الحقيقى وإن كان آجلا .

وتلك غفلة ما ينبغى لمؤمن أن يقع فيها، فإن وقع فيها بادر بالخروج منها والعودة إلى الطريق الصحيح .

ب – وأن رحمة الله وعفوه قريبان من المسلمين ومن المحسنين منهم، وأن ذلك مستمر ما لم يكن منهم إصرار على خطأ أو صغيرة، ولا استمرار على غفلة .

ولو أن المسلمين أفاقوا على تلك الحقيقة لما أغضبوا الله تعالى بمعصية، فضلا عن إصرار على معصية مهما تكن صغيرة، ﴿ **ولولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ .

جـ – وأن من اجتهد فى أمر من الأمور إذا أخطأ فى اجتهاده فلا عقاب على خطئه، بل يكون له فى ذلك الاجتهاد أجر واحد، فإن أصاب فى اجتهاده فله أجران .

وفى ذلك دعوة إلى إعمال العقل وشحذ الفكر للوصول إلى ما هو أحسن وأرضى لله تعالى .

٣ – ويتعلمون من قوله تعالى : ﴿ **فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله، إن الله غفور رحيم** ﴾ ما يلى :

أ – إن المسلم ليس له أن يأكل ولا أن يستمتع إلا بما هو حلال طيب، والحلال ما أحله الله، والطيب ما كان متناولا من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز ومن المكان الذى يجوز، ولم يكن فيه ضرر عاجل أو آجل .

وكل ما وراء ذلك حرام خبيث لا يجوز لمسلم أن يأكله أو يستمتع به .

ب – وأن تقوى الله تعالى فرض على كل مسلم بنص هذه الآية الكريمة «**واتقوا الله**» فقد جاءت على صيغة الأمر وأمر الله واجب النفاذ على الفور، وواجب الاستمرار فيه؛ لأنه ما لم يكن خيرا للمأمور به لما أمر به .

وكذلك شأن ما نهى الله عنه؛ ما لم يكن ضارا بالمسلم حاضره أو مستقبله ما نهى الله

عنه، وكما تجب طاعة الله فى كل ما أمر به يجب الانتهاء من كل ما نهى الله عنه.

جـ - وأن تقوى الله تعنى ترك مخالفته فى شيء مما يأكل الإنسان أو يشرب أو يلبس أو يسكن أو ينكح، والمعيار الدقيق لتقوى الله هى إشعار القلب بخوفه وما يكون خوف الله إلا باجتناب ما يغضبه ويجلب عقابه، والمعنى المباشر لهذا هو امتثال أمره سبحانه وتعالى واجتناب نهيه.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم، ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾ ما يلى:

أ - إن النبى ﷺ والمؤمنين الذين معه، والذين يأتون من بعده مطالبون بدعوة من وقع فى أسرهم بالدخول فى الإسلام وتشجيعهم على ذلك دون إكراه.

- وطريق ذلك هو الدعوة والإقناع وبيان ما فى الإسلام من فوائد للإنسان فى دنياه حيث الأمن والطمأنينة والتمتع بالحقوق الكثيرة التى أعطاها الإسلام له، وفى أخراه بما يضمنه الإسلام له من رضا الله وثوابه.

ب - وأن هؤلاء الأسرى الذين يعرض عليهم الإسلام ويشجعون على الدخول فيه، يُخبرون بأنهم لو أضمروا الخير وعزموا على فعله، فإن الله تعالى سوف يقبل منهم ذلك ويعوضهم عما فقدوه من مال فدوا به أنفسهم من الأسر، ﴿ **إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا، يؤتكم خيرا مما أخذ منكم** ﴾.

وهذا تعويض مادى تكفل الله تعالى به ووعد، ووعده الحق، وقد عوضهم فعلا كما حكى ذلك العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ الذى قال: « .... فلقد أعطانى الله خيرا مما أُخذ منى مائة ضعف...» كما ذكرنا ذلك آنفا.

جـ - وأن الله تعالى يغفر كل ذنب ارتكبه صاحبه قبل أن يدخل فى الإسلام؛ لأن «الإسلام يجُب ما قبله» كما روى ذلك ابن سعد بسنده عن الزبير -رضى الله عنه.

وهذا تعويض آخر من الله تعالى لمن تاب وأناب ودخل فى الإسلام بعد ذلك التعويض المادى.

وسر ذلك أن الله تعالى غفور رحيم كتب على نفسه الرحمة وجعل رحمته تسع كل شئ وتتجاوز عن كل ذنب، وبخاصة لمن كان على كفر، ودخل الإسلام.

٥ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم، والله عليم حكيم** ﴾ ما يلى :

أ – أن المسلمين ليس لهم أن يستغربوا صدور الخيانة من الكفار؛ لأن الكفر بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر أكبر خيانة يرتكبها الإنسان.

وهؤلاء الكفار قد خانوا الله من قبل، بكفرهم وببقائهم على الكفر، وبحربهم لله ورسوله، وعدائهم للحق الذي أنزله إليهم على لسان خاتم أنبيائه محمد ﷺ وليس وراء ذلك خيانة أكبر ولا أفدح أثرا.

ب – وأن الله تعالى عندما خانه هؤلاء الكفار، واعتزوا بما في أيديهم من قوة وظنوا أن لن يقدر الله عليهم، عندما فعلوا ذلك لم يبال الله بهم بل مكن منهم المؤمنين فهزموهم وانتصروا عليهم، ولم تغن عنهم كثرتهم ولا مالهم ولا عتادهم، ونصر عليهم من كانوا أقل منهم عددا وعددا ﴿ **خانوا الله فأمكن منهم** ﴾.

● وكل خائن لله ورسوله والحق الذى جاء به ﷺ، سوف يمكن الله منه المؤمنين، سنة الله فى هؤلاء وأولئك، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

جـ – وأن المسلمين فى كل عصر ومصر يجب أن يطمئنوا إلى أن من خانهم وغدر بهم، فسوف يمكنهم الله منه، ويجعل لهم الدولة عليه؛ بشرط أن يكونوا مؤمنين مخلصين، أهلا لأن يتنزل عليهم نصر الله.

لكن عليهم أن يعلموا أن لنصر الله وقتا يعلمه سبحانه، وله مكان يعلمه الله تعالى ويختاره، وليس لأحد أن يستبطئ نصر الله.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

هى مواقف كثيرة كما ذكرنا عند حديثنا عن كل مجموعة من الآيات الكريمة، وهى معلمة للدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية، بل زادهم الحقيقى وهم يشقون طريق الدعوة والحركة بين كل هذه العقبات والمعوقات، وأنهم بغير هذا الزاد لن يقطعوا أدنى مرحلة من مراحل الطريق، فضلا عن أن يستظلوا بظلال القرآن الكريم الوارفة، ويفيئوا إلى روضات سنة رسول الله ﷺ.

وسوف نوضح ما يفتح الله به من هذه القيم التربوية فيما يلى، والله ولى التوفيق ومنير الطريق:

١ – يتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من قوله تعالى: ﴿**ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض، تريدون عرض الدنيا، والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم**﴾ ما يلى:

أ – أن الهدف الأكبر الذى تدور حوله الدعوة والحركة والتربية هو الإثخان فى الأرض؛ أى التمكين لدين الله تعالى فى عباده، وأن كل عمل يعوق عن تحقيق هذا الهدف أو يحول بين العاملين من أجل الإسلام وبين تحقيقه باطل وهباء.

وكل خطوة من خطوات الدعوة والحركة والتربية إنما هى خطوة فى طريق الوصول إلى هذا الهدف.

● تلك حقيقة لا يجوز أن تغيب عن الدعاة والحركيين والتربويين ساعة أو بعض ساعة، فإن غابت ضلوا الطريق وضاع عليهم هذا الهدف الكبير.

ب – وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية ليس لهم أن يتنازلوا عن شىء يحقق للدعوة استقرارها وللإسلام تمكنه فى الأرض وفى الناس، مهما كان المقابل ضخما أو محققا لنفع عاجل أو مؤقت؛ لأن من الثوابت فى العمل من أجل الإسلام أن تؤمَّن القواعد الأساسية لهذا العمل أولا:

قواعد ثابتة من الرجال الذين أحسنت تربيتهم.

وقواعد راسخة من أمكنة انطلاق الدعوة والحركة والتربية والتنظيم، والتخطيط العلمى المؤدى إلى تحقيق ذلك كله وتأمينه.

● عند تحقيق ذلك قد يحدث تنازل عن شىء فى مقابل آخر، أما قبل الإثخان فى الأرض فليس لأحد ذلك التنازل.

جـ – وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية يجب أن تشغلهم مطالب الآخرة وما عند الله بأكثر مما تشغلهم أعراض الحياة الدنيا؛ لأن الآخرة وما فيها هى إرادة الله للمؤمنين، وما كان للمؤمنين إلا أن يعملوا على تحقيق ما أراده الله لهم، ما داموا قد عرفوا مراده سبحانه وتعالى، وقد صرحت بهذا المراد هذه الآية الكريمة ﴿**والله يريد الآخرة....**﴾.

● وكل أعراض الدنيا أقل شأنا وأقل خيرا، وأقل لبثا مع الناس، مما عند الله تعالى، كما تفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)** ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٩].

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ ما يلي:

أ - أن الدعاة والحركيين عليهم أن يعلموا الناس أن عذاب الله وعقابه يرفع عمن سبق عليهم الكتاب أنهم من أهل الخير؛ لأن الله تعالى علم أنهم من أهل الخير، ولكن ليس معنى ذلك أن يفعلوا ما شاءوا من المعاصي، وإنما معناه أن يلتزموا بما أمر الله به وينتهوا عما نهى الله عنه؛ استجابة لأمره ونهيه سبحانه وتعالى، وما كان لهم أن يعلموا ما أراد الله لهم؛ فإن ذلك غيب والله لا يطلع على غيبه أحدا ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول...** ﴾ [الجن: **٢٦ - ٢٧**].

ب - وأن الدعاة إلى الله والعاملين من أجل الإسلام قد يجتهدون في أمر من الأمور، ثم يستقر رأيهم عليه، ويكون هذا الأمر في غير صالحهم، فهم في هذا الاجتهاد على صواب، بل هم أصحاب أجر في هذا الاجتهاد.

● أما الخطأ القاتل فهو أن يحزبهم الأمر، فلا يجتهدوا فيه ولا يأخذوا فيه الرأى والشورى، وإنما تتخذ القيادة فيه القرار!!

هذا هو الخلل وهو الخطأ، وهو الجهل بما أنزل الله على رسوله ﷺ، وهو الدليل على أن تلك القيادة -إن وجدت- فليست أهلا لتولى المسئولية.

● وهذا إن حدث استحق من قاموا به عقاب الله الذى قد يكون فى الدنيا بتعويق النصر، وقد يكون فى الآخرة وهو أشد وأنكى!!

جـ - وأن الله تعالى قد يتجاوز عمن علم فيهم ومنهم صدق النية وصدق العمل فيغفر لهم ما قد يقعون فيه من أخطاء وما قد تكون فيه بعض الصغائر والمخالفات، وهذه رحمة من الله بالذين آمنوا.

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **فكلوا مما غنتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم** ﴾ ما يلي:

أ – أن الله تعالى لم يضيق على المؤمنين رزقهم، ولم يحرمهم من شيء أحله لهم، ولم يمنعهم من الاستمتاع بالطيب من الرزق.

● ومن ذلك أنه سبحانه وتعالى أحل لهم الغنائم ولم يحلها لأمة قبلهم –كما تحدث بذلك المعصوم ﷺ– وما ذلك إلا توسعة فى الرزق وتحبيبا فى الجهاد فى سبيل الله تعالى، لتكون كلمة الله هى العليا.

ب – وأن على الدعاة والحركيين أن يدققوا فى التعامل والأكل من الحلال الطيب، وأن يعلموا الناس الالتزام بذلك.

والحلال هو ما أحله الله من طعام وشراب وملبس ومسكن ومنكح.

والطيب ما كان متناولا من حيث يجوز... إلى آخر ما قلنا آنفا.

● وعلى المؤمنين أن يلتزموا بذلك، فإن أخلوا به فقد يكون ذلك من معوقات النصر أو موانعه؛ إذ هذا الإخلال ذنب والذنوب تعوق النصر أو تمنعه؛ لأن النصر يكون للمؤمنين، وكيف يكون الذنب مع الإيمان؟

جـ – وأن على الدعاة والحركيين أن يتنبهوا وأن ينبهوا غيرهم إلى أن تقوى الله فرض عين على كل مسلم ومسلمة؛ لأن الله تعالى أمر بها أمرا صريحا فى القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة.

● وتقوى الله تعالى بالنسبة للدعاة والحركيين ألزم لهم وأعون على أن يوفقوا فى أعمالهم، وهى زادهم الحقيقى، فقد قال تعالى: ﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)** ﴾ [**البقرة**: ١٩٧].

وكل المؤمنين بحاجة إلى التقوى وإلى التزود بها والاستعانة بها على كل ما يحزبهم من أمر.

● وحسْب التقوى أنها صفة أولى الألباب، لأن معنى ذلك أن من لم يتق الله فليس من أصحاب العقول أى ليس عاقلا!!

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن**

يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم، ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ ما يلى :

أ – إن الأسير فى الإسلام ليس مصيره القتل ولا التعذيب كما تفعل كثير من الدول اليوم ثم تتبجح بأنها ذات حضارة. إن الأسير عند المسلمين إنسان أولا وأخيرا، فيجب أن يعامل معاملة الإنسان الذى كرمه الله تعالى مؤمنا كان أو كافرا.

ومن تكريمه أن يقوم المسلمون معه بما يلى :

– أن يعرضوا عليه الإسلام ويشجعوه على الدخول فيه دون إكراه، وإنما بالشرح والتوضيح والإقناع، وهذا العرض يعنى أن الحرب التى خاضها ضد الإسلام والمسلمين ووقع فيها أسيرا قد تنوسيت له، وأنه يستطيع بعدها أن يدخل فى الإسلام.

– وأن يطمئنوا الأسير بأنه لو دخل فى الإسلام مخلصا صادق النية، فإن الله تعالى سوف يغفر له كفره وحربه للإسلام والمسلمين.

– وأن يخبروهم بأن الله تعالى سوف يعوضهم عما أخذه المسلمون منهم من مال ليفتدوا به أنفسهم من الأسر.

– وأن يخبروهم بأن الله غفور لذنوبهم أيام الكفر رحيم بهم يفتح لهم باب التوبة والإنابة والدخول فى دين الحق بعد ما كان منهم ما كان.

ب – وأن الدعوة إلى الله وجمع الناس على هذا الدين عمل مستمر لا يتوقف أبدا، وأنها توجه إلى كل أحد وأنها تقوم على الشرح والتوضيح والإقناع وإزالة الشبهات ودحض المفتريات.

● وأن الأسرى أصحاب المواقف المعادية أهل لأن يُعرض عليهم الإسلام، ولأن يشجعوا على الدخول فيه ليكونوا فى صفوف المؤمنين، بعد أن فقدوا حريتهم فى الأسر وأصبحوا عرضة للقتل والإبادة، ولكنه الإسلام دين احترام إنسانية الإنسان حتى وهو كافر أسير!!

جـ – وأن على الدعاة أن يوضحوا للناس أن الإسلام بهذه التشريعات فى السلم والحرب، وفى نتائج الحرب إنما هو دين تام كامل يستوعب كل ما يحيط بحياة الإنسان من سلم وحرب.

● وأعظم ما يفرح به الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن الله تعالى يغفر للكافر الذى حارب الله ورسوله إن هو تاب وأناب وحسنت نيته مع الله.

وإنما يفرح الدعاة إلى الله بذلك؛ لأن كثيرا من المسلمين ينكلون عن الحق، ويرفضون الدعوة إلى الله، ويأبون الالتزام بمنهج الله ونظامه، ومع كل ذلك فهم لا يزالون أهلا لأن يغفر الله لهم؛ إن تابوا وأنابوا، وما يفرح الدعاة إلى الله شىء مثل هذا التوسع فى مظلة المغفرة.

٥ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم**﴾ ما يلى:

أ - أن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية قد يتعرضون لأن يخونهم بعض الأعداء أو بعض المدعوين، ولو حدث هذا فما ينبغى أن يترك فى نفوسهم يأسا من هداية هؤلاء الخائنين، ولا يزعزع ثقتهم فى أنفسهم وفيما يعملون.

● لقد كان لهؤلاء الخونة أسلاف خانوا الله تعالى وهو خالقهم ورازقهم والقادر عليهم، والخونة فى كل زمان ومكان غافلون يجهلون أو يتجاهلون أن الله مطلع عليهم وآخذ بناصيتهم وأنه سبحانه يمهلهم ولا يهملهم.

فليس للدعاة أن يستغربوا الخيانة، فهى مركوزة فى طباع غير قليل من الناس.

ب - ولابد للدعاة من أن يَطمئنوا ويُطمئنوا من يدعونهم إلى أن الله تعالى لابد أن يأخذ الخائنين بخيانتهم وأن يمكن المؤمنين منهم إن لم يكن اليوم فغدا.

● هذه الطمأنة ضرورية للدعاة والمدعوين، فهى تذكرهم بالله تعالى وبسنته فى نصر أهل الحق على أهل الباطل مهما تطاولت الأيام.

جـ - وأن يعلموا ويعُلّموا الناس أن صبر الله على الكفرة والخونة إنما هو صبر العليم بالمكان والزمان والظرف الذى يأخذهم فيه ويمكن المؤمنين منهم.

● وأنه سبحانه حكيم فى كل عمل من أعماله يضعه حيث ينبغى أن يوضع، ويرتب عليه ما ينبغى أن يترتب عليه، ويدفع به من الشر ما لابد أن يندفع به.

١٤ - الآيات من الثانية والسبعين إلى الخامسة والسبعين:

أصناف المؤمنين على عهد النبى ﷺ

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ [الأنفال: ٧٢ - ٧٥].

- هذه الآيات الكريمة التى خُتمت بها سورة الأنفال صنفت المسلمين فى عصر الرسول ﷺ إلى أصناف أربعة هى:

الصنف الأول:

هم المهاجرون الأولون قبل غزوة بدر، وإلى العام السادس عام صلح الحديبية.

والصنف الثانى:

هم الأنصار الذين آووا النبى ﷺ ونصروه.

والصنف الثالث:

هم المؤمنون الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنورة وبقوا على إيمانهم وإسلامهم.

والصنف الرابع:

هم المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية.

ولكل صنف من هذه الأصناف حكم، وله تقويم وأفضلية حددتها الآيات الكريمة.

- وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على عدد من الأخبار تضمنت عددا من الأحكام، مما

سوف نبينه فيما يلى، والله المستعان.

- ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض...** ﴾.

هذا الجزء من الآية الكريمة يتحدث عن صنفين من المؤمنين هما:

● المؤمنون المهاجرون المجاهدون فى سبيل الله.

وهم أفضل الأربعة؛ لأنهم توفر لهم من صفات الفضل ما لم يتوفر لسواهم؛ حيث استجمعوا من تلك الصفات ما يلى:

- الإيمان وما يشتمل عليه من مفردات كثيرة أهمها الطاعة لله ولرسوله والعمل الصالح بكل معنى من معانيه.

- والهجرة أى ترك الدار والأهل والمال فرارا بالدين ورغبة فى الدفاع عنه والتضحية فى سبيله.

- والجهاد بقتال أعداء الله ورسوله فى كل معركة يخوضونها ضد الله ورسوله، والجهاد هو ذروة سنام الإسلام.

ومن استجمع تلك الصفات الثلاثة: الإيمان والهجرة والجهاد فهو بغير شك فى أرفع المنازل عند الله تعالى.

● والثانى من هذين الصنفين المتميزين هو: الأنصار رضى الله عنهم الذين آووا رسول الله ﷺ والمؤمنين منذ أن هاجروا إليهم، وإلى أن أعز الله الدين ونصر المؤمنين.

وقد وصفت الآية الكريمة هذا الصنف بصفتين:

الصفة الأولى: أنهم آووا رسول الله ﷺ والمؤمنين الذين هاجروا إليهم، أى أمنوهم فى مكان حريز وهو المدينة المنورة، ودافعوا عنهم كل عدو وشاركوهم فى أموالهم، بل آثروهم على أنفسهم.

والصفة الثانية: أنهم نصروا الرسول ﷺ والمؤمنين فى معاركهم التى خاضوها ضد أعداء الله أعداء الدين، وقاتلوا وضحوا فى هذا القتال بكل ما يملكون من مال ونفس.

وهم بهاتين الصفتين فى منزلة رفيعة عند الله تعالى توازى منزلة الصنف الأول من الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا، إلا أنهم لم يهاجروا إذ كانت ديارهم هى مقر الهجرة،

فكانت لهم نفس المكانة، ولذلك كان التعبير القرآني : ﴿ **أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ دليلا على تلك المنزلة الرفيعة.

● وولاية بعضهم لبعض أفراد وجماعات تشمل التناصر والتعاون بل التوارث -فيما بين المتآخين منهم في الإسلام- الذي استمر فترة، حتى نُسخ بعد أن أعز الله الدين وبسط كلمته وسلطانه.

وللأنصار في الغنائم مثل ما للمهاجرين الأوائل.

● وقد كان المسلم المقيم في مكة أو في البادية ولم يهاجر إلى المدينة لا يرث قريبه المسلم المهاجر، إلا أن يهاجر مثله، وقد استمر هذا الحكم في الميراث قائما حتى فتح الله على المسلمين مكة، فزال بهذا الفتح وجوب الهجرة، وعاد التوارث بين الأقارب والأرحام.

وهذا رأى عدد من مفسرى القرآن الكريم.

● والأرجح كما يرى المدققون من العلماء أن الآية الكريمة في الولاء بصفة عامة، دون الميراث.

● وهنا سؤال هو : هل هذا الولاء الذي تتحدث عنه هذه الآية الكريمة هو المؤاخاة التي عقدها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار؟

● قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة بين المؤمنين مرتين :

مرة بين المهاجرين خاصة، وكان ذلك في مكة.

ومرة بين المهاجرين والأنصار على المواساة، وكانوا يتوارثون وكانوا تسعين نفسا بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار، فلما نزل ﴿ **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ (٦)** ﴾ [الأحزاب : ٦] بطلت المواريث وبقيت الأخوة[1].

● وقال السهيلي : آخى بين أصحابه -أي المهاجرين والأنصار- ليذهب عنهم وحشة الغربة ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة، أبطلت المواريث، وجعل بين المؤمنين كلهم أخوة، وأنزل : ﴿ **إنما**

---

(١) قد شرحنا ذلك بالتفصيل في كتابنا : التربية الإسلامية في سورة الأحزاب - فعد إليه إن شئت.

الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ١٠] يعنى فى التواد وشمول الدعوة.

والصنف الثالث من أصناف المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ هم: «الذين آمنوا ولم يهاجروا.....».

وهؤلاء هم المؤمنون المقيمون فى أرض الشرك وتحت سلطان المشركين، دارهم تلك هى دار الحرب والعداء والشرك.

- وهؤلاء المقيمون بدار الشرك لا ولاية لهم عند المؤمنين الذين يقيمون فى دار الهجرة دار الإسلام؛ إذ لا سبيل إلى نصرهم ولا إلى تنفيذ أحكام الإسلام فيهم.

- ويستثنى من هؤلاء من أسره المشركون؛ فإن هذا الأسير يجب على المسلمين العمل على فكاكه بما يستطيعون من حول وقوة باتفاق العلماء.

- وتتعلق بالمؤمنين المقيمين فى دار الشرك أحكام أخرى هى:

- أن يعمل المؤمنون فى دار الإسلام على إنقاذ من يقيمون فى دار الشرك إذا استنصروهم واستغاثوا بهم؛ لأن المشركين إنما ضيقوا عليهم واضطهدوهم من أجل دينهم، فوجب على المؤمنين نصرهم، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر**﴾ أى عليكم نصرهم ولو حاربتم المشركين من أجل إخوانكم.

- لكن يستثنى من ذلك أن يكون بين المؤمنين المقيمين فى دار الإسلام وبين المشركين الذين يضطهدون إخوانهم عهد وميثاق؛ لأن نقض العهد والميثاق لا يجوز، كما سبق أن أوضحنا فى شرحنا لآية: ﴿**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين**﴾.

- ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ أى لا يخفى عليه شيء مما تسرون أو تجهرون، فعليكم أن تراقبوا أنفسكم وأعمالكم لتكونوا عند ما أمر وما نهى، وتلتزموا بشرعه وأحكامه، فهو سبحانه وتعالى بصير بكم يحاسبكم على ما بدر منكم ويجزيكم عنه بمثله من ثواب أو عقاب.

- ﴿**والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**﴾.

والمعنى أن الكافرين جميعا صنف واحد فى مواجهة المؤمنين فهم أولياء بعض ونصراء

بعض فى عداء المسلمين وقتالهم، مهما بدوا مِللا مختلفة ومذاهب شتى.

● وقال بعض المفسرين: هذه الآية تنفى مؤازرة المسلمين للكفار أو معاونتهم، وتوجب مباعدتهم حتى لو كانوا أقارب للمسلمين؛ لأن الكفر وحد بينهم، وفرق بينهم وبين المؤمنين.

وقالت طائفة من المفسرين: إن هذه الآية تنفى التوارث بين المؤمنين والكافرين؛ لأنه قد ثبت هذا النفى للتوارث بينهم فى السنة النبوية، فقد روى أصحاب السنن بأسانيدهم من حديث أسامة بن زيد -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم».

﴿**إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**﴾ أى: إن لم تفعلوا ما شرع الله لكم من أحكام:

– كولاية بعضكم لبعض وتناصركم وتعاونكم،

– ونصركم لإخوانكم المقيمين فى دار الشرك إن استنصروكم،

– ووفائكم بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضى العهد أو تلمسوا منهم غدرا فتنبذوا إليهم عهدهم بغير غدر أو خيانة.

– كل ذلك واجب عليكم لمواجهة الكفار الذين يوالى بعضهم بعضا فى عدائكم؛ على الرغم من اختلاف مذاهبهم فيما بينهم.

● إن لم تفعلوا ذلك ملتزمين به يقع فى الأرض فتنة وفساد كبير، وفى ذلك ما فيه من الخطر العظيم عليكم المؤدى إلى فشلكم وظفر الكفار بكم، وليس فى الأرض فساد أسوأ من أن ينتصر الكفر على الإيمان، وينهزم المؤمنون أمام الكافرين!! إن ذلك حقا فتنة فى الأرض وفساد كبير.

– ﴿**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم**﴾.

هذه الآية الكريمة فيها ثناء من الله تعالى على الصنفين الأولين من المؤمنين: الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا، والذين آووا ونصروا، وشهادة من الله تعالى لهم بأنهم بهذه الصفات: الإيمان والهجرة والجهاد والإيواء والنصر، هم المؤمنون حقا، أى حق الإيمان

وأكمله.

وهؤلاء أرفع منزلة من الذين آمنوا ولم يهاجروا وبقوا فى دار الشرك، مع حاجة المسلمين إليهم فى دار الإسلام والهجرة.

● هؤلاء المؤمنون حقا لهم عند الله مغفرة عظيمة الشأن ماحية لما قد قارفوا من ذنوب، ولهم عند الله رزق كريم فى دار الجزاء، رزق بالغ درجة الكمال فى نفسه لصدوره من الله عز وجل، وبالغ درجة الكمال فى عاقبته ونهايته لما يدل عليه من تكريم.

والصنف الرابع من أصناف المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ هو: ﴿ **الذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم، فأولئك منكم...** ﴾.

● وهؤلاء هم الذين تأخر دخولهم فى الإسلام وتأخرت هجرتهم عن وقت نزول هذه الآيات الكريمة، أو تأخروا فى إيمانهم وهجرتهم عن زمن صلح الحديبية الذى كان فى السنة السادسة.

● وهؤلاء حكمهم أنهم يلتحقون بالمهاجرين الأولين وبالذين آووا ونصروا، يلتحقون بهم فى أحكام الولاية والنصرة.

قال ابن جرير رحمة الله: فأولئك منكم فى الولاية، يجب عليكم نحوهم من الحقوق فى الولاية والنصرة فى الدين والموارثة مثل الذى يجب عليهم نحوكم، ومثل الذى يجب لبعضكم على بعض.

روى ذلك عن ابن إسحق، ولا خلاف فيه بين العلماء.

- ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليهم** ﴾.

● ﴿ **أولوا الأرحام** ﴾ هم الذين يجمعهم رحم واحد، وعلماء الفرائض -أى المواريث- يقولون: إنهم الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب وهم عشرة أصناف هم:

الخال، والخالة، والجد لأم، وولد البنت، وولد الأخت، وبنت الأخ، وبنت العم، والعمة للأم، والعم للأم، وابن الأخ للأم، ومن أدلى فى القرابة بأحد منهم.

● وبعض العلماء يورث هؤلاء فى حالة ألا يكون للميت وارث، ويستدلون على ذلك بهذه الآية، وبقوله تعالى: ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧)** ﴾ [النساء: ٧].

● والصواب –كما يرى كثير من العلماء– أنهم لا يرثون، لما رواه أحمد والترمذى بسنديهما عن أبى أمامة –رضى الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث...**﴾.

● والخلاصة: أن القريب أولى بقريبه ذى رحمه المؤمن المهاجرى الأنصارى من المؤمن الأجنبي عنه.

أما القريب الكافر فكفره يقطع حقوق القرابة والرحم، فما بالنا إن جمع إلى الكفر محاربة المسلمين وقتالهم؟!

﴿**إن الله بكل شيء عليم**﴾ أى أنه سبحانه وتعالى قد شرع هذه الأحكام فى الولاية العامة والخاصة، وشرح نظام صلة الأرحام، واحترام العهود والمواثيق، كما شرع تلك الأحكام التى جاءت فى هذه السورة الكريمة كالغنائم والجهاد ونحو ذلك من تشريعات تتعلق بالأنفس والأموال ومكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، شرع كل ذلك وغيره مما جاء فى هذه السورة الكريمة وفى القرآن الكريم كله، وفيما أوحى به إلى خاتم رسله محمد ﷺ، شرع كل ذلك عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالح الناس الدينية والدنيوية.

المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات

هذه الآيات تفيض بالمواقف المعلمة المربية للمسلمين التى توقفهم عند ما شرع الله من أحكام، وتعلمهم أن سعادتهم فى الدنيا والآخرة إنما تكون فى تقيدهم وتقيد نظمهم الاجتماعية بهذه الأحكام.

وتعلمهم أن تخليهم عن هذه الأحكام والتشريعات أو عن بعضها فيه فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وسوف نوضح ذلك فيما يلى، والله المستعان.

١ – يتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا**

على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ﴾ ما يلى :

أ - أن الولاية بين المؤمنين أصل فى دين الإسلام، بحيث ينصر بعضهم بعضا، ويعين بعضهم بعضا فى كل ما يحتاجون إليه من عون مادى أو معنوى؛ إذ تلك هى الولاية التى أوجبها الله تعالى عليهم.

ب - وأن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، والذين آووا الإسلام والمسلمين ونصروهم، هم بأرفع الدرجات عند الله تعالى؛ لأنهم استوفوا صفات : الإيمان والهجرة والجهاد والإيواء والنصر لدين الله وأهله.

جـ - وأن المسلمين اليوم وفى كل زمان ومكان يستطيعون أن يكونوا فى أرفع المنازل وأعلاها عند الله؛ إن هم استوفوا الصفات التالية :

- الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، ومارسوا العمل الصالح الذى يرضى الله تعالى.

- والهجرة، وقد أصبحت بعد فتح مكة هجرة ما نهى الله عنه، واستعداد وقبول لأن يهجر المسلم كل ما يأمره دينه بهجره من عمل أو ناس أو وطن.

وقد روى مسلم بسنده عن عائشة -رضى الله عنها- قالت : قال رسول الله ﷺ : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا».

- والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، الجهاد بكل أنواعه، وبكل تبعاته، والإعداد والاستعداد له بكل ما يستطيع المسلم من أنواع الإعداد.

- والإيواء لكل مسلم تضيق به أرضه ويُضطَهد فيها، ولا يأمن على نفسه ودينه أو ماله وولده.

- والنصر لكل مسلم يطلب النصر من أخيه المسلم، ما دام قادرا على نصره ونجدته.

الاتصاف بهذه الصفات هو الذى يجعل المؤمن مؤمنا حق الإيمان، وهو الذى يرفع قدره وشأنه وثوابه عند الله تعالى.

د - ويتعلمون من الآية أن نقض العهد لا يجوز ما دام بين المؤمن وغيره هذا العهد؛ حتى لو استنصره أخوه المؤمن على عدوه الكافر؛ إذ شأن المسلم وفاء لا غدر.

هـ – وأن الولاية بين المؤمنين قد تنقطع أو تُعلّق إذا كان أحد المؤمنين يعيش فى دار الكفر؛ إذ لا سبيل للولاية بينه وبين المسلمين لسيطرة الكفار عليه بقوانينهم ونظمهم واستحالة أن تقوم الولاية بينه وبين إخوانه المسلمين.

فإن زالت هذه الاعتبارات عادت الولاية واجبة كما أوجبها الله تعالى.

٢ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**﴾ ما يلى:

أ – أن القاعدة العامة عند المسلمين – كما دلت على ذلك تلك الآية الكريمة – : «أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وأن الكافرين بعضهم أولياء بعض».

● وأن الخروج على هذه القاعدة حرام لا يجوز شرعا، فلا يجوز أن يفقد المسلمون ولاءَ بعضهم لبعض، ولا يجوز أن يوالى المؤمنون الكافرين.

ب – وأن الخروج على هذه القاعدة يُحدث فى الأرض فتنة وفسادا كبيرا أو عريضا، فمجانبة المشركين وموالاة المؤمنين أصل أصيل إن تُخلى عنه وقعت فى الناس فتنة بالتباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين، وما يترتب على ذلك الاختلاط من فساد وشر.

جـ – وأن كل خروج على قاعدة من قواعد الإسلام أو أصل من أصوله، فى الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد أو التعامل بين المسلمين، أو التعامل بينهم وبين غيرهم، كل خروج عن شىء من ذلك لابد أن تعقبه فتنة فى الأرض وفساد كبير؛ لأن الله تعالى شرح هذه الأحكام، ووضع تلك القواعد لتستقر بها حياة الناس، فتجلب لهم المصالح، وتدفع عنهم المفاسد.

د – وأن العيش والبقاء فى دار الكفر غير جائز إلا لضرورة؛ إذ الأصل أن يكون المؤمن بين المؤمنين وفى صحبتهم وجوارهم ليأنس بهم ويأنسوا به، ويعين بعضهم بعضا على طاعة الله، وينهى بعضهم بعضا عن معصية الله تعالى.

٣ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم**﴾ ما يلى:

أ – أن الإيمان حق الإيمان ليس مجرد اعتقاد لا يترجم عنه عمل، وإنما هو منظومة تتكون من:

الإيمان، والهجرة، والجهاد، والإيواء لكل مسلم، والنصر لكل مسلم.

وتلك أوصاف الله تعالى للمؤمنين حقا.

ب - وأن جزاء هؤلاء المؤمنين حقا عند الله تعالى هو: المغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، والرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب المستمر الذى لا يُمل ولا يُسأم لحسنه وتنوعه، وهذا الرزق يمكن أن يكون فى الدنيا، ولكنه بكل تأكيد فى الآخرة.

جـ - وأن الإيمان حق الإيمان مطلب شرعى على كل مسلم أن يسعى إلى تحقيقه، حتى ينال المغفرة والرزق الكريم، وما من مؤمن إلا وله بعض الذنوب؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وما من مؤمن إلا ومن صالحه أن تغفر له هذه الذنوب، والطريق إلى ذلك هو أن يكون من المؤمنين حقا، حتى يحظى بالمغفرة والرزق الكريم.

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم....**﴾ ما يلى:

أ - أن باب الإيمان والجهاد والهجرة -بمعناها العام- مفتوح أمام المسلمين إلى يوم القيامة، وذلك من رحمة الله تعالى بالمؤمنين الذين تأخروا عن زمن الرسول ﷺ، ومن إتاحة الفرصة أمامهم؛ ليكونوا من المؤمنين حقا، ولينالوا ذلك الأجر العظيم الذى منحه الله تعالى للأولين من المؤمنين المهاجرين المجاهدين الذين آووا ونصروا.

ب - وأن الولاية بين المؤمنين قديما وحديثا وفيما يأتى من الزمان تقوم على سلامة العقيدة وسلامة العبادة، وممارسة العمل الصالح، والالتزام بما أمر الله به وبما نهى عنه.

والأحاديث النبوية الشريفة التى تؤكد هذه الولاية كثيرة نذكر منها ما يلى:

- روى البخارى بسنده عن أنس -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «مولى القوم منهم».

- وروى النسائى وأبو داود بسنديهما عن على -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم...».

– وروى أحمد بسنده عن عائشة –رضى الله عنها– قالت: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث أحلف عليهن: لا يجعل الله تعالى من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له، وأسهم الإسلام ثلاثة: الصلاة والصوم والزكاة، ولا يتولى الله عبدا فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم، والرابعة لو حلفت عليها رجوت ألا آثم: لا يستر الله عبدا فى الدنيا إلا ستره يوم القيامة».

– وروى الطبرانى فى الكبير بسنده عن ابن عباس –رضى الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ: «أوثق عرى الإيمان: الموالاة فى الله، والمعاداة فى الله، والحب فى الله والبغض فى الله عز وجل».

– وروى البخارى ومسلم وأحمد بأسانيدهم عن أنس –رضى الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب».

جـ – وأن كلمة منكم فى الآية ﴿**فأولئك منكم**﴾ توضح مدى الوثاقة والقوة والعمق الذى يجب أن يكون بين المسلمين الذين لا تجمع بينهم أرحام، إنما تجمع بينهم عقيدة التوحيد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» إنها أقوى الروابط، وأقل منها بكل تأكيد رابطة الدم ورابطة الصهر، ورابطة الجنس، ورابطة الوطن، ورابطة اللغة، فضلا عن روابط التاريخ والعادات والتقاليد!!

٥ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى: ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله، إن الله بكل شىء عليم**﴾ ما يلى:

أ – أن الإسلام يقيم وزنا كبيرا لقرابة الرحم –وهم الذين تجمع بينهم رحم واحدة كما قلنا آنفا– وما ذلك إلا لأن الإسلام يحترم الأسرة ويراها نواة المجتمع على المستوى الذى يبنى به المجتمع بناء صحيحا سليما، ويراها محضن الفضائل ومعدن المودة والمحبة، بل يجعل الأسرة أساس الحياة الإنسانية ولا يرضى بها بديلا.

نقول هذا لأولئك الذين يهونون من شأن الأسرة ويبيحون للرجل أن يتزوج رجلا وللمرأة أن تعاشر امرأة، ثم يدعون أنهم ينتمون إلى حضارة إنسانية!!

ب – ومن تقدير الإسلام للأسرة والقرابات التى تنشأ عنها جعل التوارث فقط بين أولى الأرحام، وألغى ما كان بين المؤمنين من توارث فى بداية تواجدهم فى المدينة المنورة؛ إذ كان الإسلام غريبا والمؤمنون قلة فى العدد، وقلة فى المال.

أما بعد ذلك –أى بعد أن اعتز الإسلام بأهله وقوى أمره– فقد عاد إلى ما يجب أن يكون عليه: أى بين أولى الأرحام.

جـ – وأن إلغاء ولاء التوارث بين المؤمنين غير أولى الأرحام، لم يبلغ ولاء الأخوة فى الله والمودة فيه والحب، على نحو ما ذكرنا آنفا.

المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة

فى هذه الآيات الكريمة منبع ثرى للدعاة إلى الله يغترفون منه ما شاءوا مما يتزودون به ويهتدون فى طريق الدعوة والحركة والتربية، بحيث لا يستغنون عن شىء منه، ولا يجدون فى غيره بديلا عنه؛ إذ هو منهج الله ونظامه ودينه الذى ختم به الأديان، وسوف نوضح ذلك فيما يلى والله المستعان:

١ – يتعلم الدعاة إلى الله من قوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير**﴾ ما يلى:

أ – أن الدعوة إلى الله والحركة من أجل الإسلام تتطلب من الدعاة والحركيين إيمانا راسخا، وهجرة لكل ما نهى الله عنه، وجهادا فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

- وأن الدعاة والحركيين إذا استطاعوا أن يكونوا نماذج لهذا الإيمان وتلك الهجرة وذاك الجهاد سهل عليهم أن يعلموا الناس ويدربوهم على ذلك، فأصبح المجتمع المسلم يجمع المؤمنين حقا.

- وإذا كان المجتمع المسلم مكونا من مؤمنين حقا، كان النصر قاب قوس –أو أدنى– منهم، فى كل معركة يخوضونها ضد الباطل وضد أعداء الله، أعداء الحق أعداء الإنسان.

ب – وأن المسلمين إذ استجمعوا صفات الإيمان والهجرة والجهاد، ومارسوا إيواء إخوانهم ونصرهم –إن كانوا فى حاجة إلى إيواء أو استنصروا بهما كان ولاؤهم بعضهم لبعض وأصبح كل واحد منهم أحق بالآخر من كل أحد، وما قوى الولاء بين المؤمنين إلا

ازدادوا قوة ومنعة واستعصاء على أعدائهم، وقربا من تحقيق أهدافهم وانتصارهم على عدوهم.

● وأن تلك هي مهمة الدعاة إلى الله والحركيين والتربويين؛ لأن الناس دائما بحاجة إلى من يهديهم ويقودهم نحو الحق والخير وما يصلح لهم دينهم ودنياهم.

جـ - وأن هذا الولاء بين المؤمنين يجب أن يكون قائما ومستمرا إلى يوم القيامة؛ لأن الله تعالى جعله صفة للمؤمنين المهاجرين المجاهدين، وأخبر عن ذلك خبرا يقرر هذه الحقيقة «أولئك بعضهم أولياء بعض».

وبغير هذا الولاء وتلك المناصرة والتأييد من مسلم لأخيه المسلم فلا إيمان على وجهه الصحيح ولا هجرة لما نهى الله عنه ولا جهاد في سبيل الله!!

وبالتالي فلا نصر في أي معركة!!

د - وأن إيواء المسلم وإغاثته ونصره واجب شرعي أوجبه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة: ﴿**وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر** ...﴾ وكلمة «عليكم» تفيد الأمر والإلزام.

● ومن فقه الدين وفقه الدعوة ألا يكون نصر المؤمن المستنجد بإخوانه المؤمنين مؤديا إلى إخلال أو نقض لعهد بين المسلمين وبين هذا العدو الذي استنجد المؤمنون بإخوانهم منه.

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**﴾ ما يلي:

أ - أن الكفر كله ملة واحدة وإن تعددت مذاهبه، وأنه في عداء المؤمنين ينسى ما بين أفراده من فرقة وخصام وتنازع واختلاف، فهم أولياء بعض ضد الإسلام والمسلمين.

● وأن الدعاة إلى الله والحركيين لابد أن يعوا هذه الحقيقة وأن يرتبوا عليها ما يقومون به من أعمال في مواجهة أعداء الله أعداء الإسلام.

ب - وأن الأصل في المؤمن أن يجانب المشرك ويوالي المؤمن، وتلك المجانبة تعني عدم الإقامة في بلاد المشركين، وعدم التودد إليهم لو حدثت إقامة ضرورية في بلادهم، وعدم الاطمئنان إليهم في قول أو عمل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ** (٧٣)﴾ [**آل عمران**: ٧٣].

وموالاة المؤمنين تعنى قوة ترابطهم وتناصرهم وتواصيهم بالحق والصبر، وأن يحققوا الأخوة فى الإسلام التى قصرهم الله على الأخوة فى الدين وقصرهم فى الدين عليها، فى قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** (١٠) ﴾ [**الحجرات**: ١٠].

جـ – وأن المؤمنين ما لم يتقيدوا بهذه الأمور التى جاءت فى الآية الكريمة وقعت فى الأرض فتنة وفساد كبير.

● والدعاة إلى الله أولى الناس بأن يركزوا على حقيقة أن تعطيل شىء من شرع الله فى أى موقع فى اجتماع الناس وسياستهم واقتصادهم وآدابهم وأخلاقهم يترتب عليه بكل تأكيد فتنة فى الأرض وفساد كبير؛ لأن الله تعالى ما شرع شيئا إلا لتستقر به حياة الإنسان فى دنياه وآخرته، فلا غرابة فى أن يكون الإخلال بهذا الشرع تقويضا لاستقرار حياة الناس وأمنهم، وهذا هو الفتنة والفساد الكبير.

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا، لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ ما يلى:

أ – أن الإيمان الحق له تكاليف وأعباء، وأن الهجرة إلى الله لها تبعات ومشاق، وأن الجهاد فى سبيل الله له تضحيات، وأن إيواء المسلمين ونصرهم له متاعبه، ودونه العقبات الكثيرة والأعداء الألداء.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن المؤمنين مطالبون بأن يكونوا على مستوى الإيمان الحق، إذ لا ينفع إيمان تشوبه الشوائب وتختلط به المثبطات والمحبطات.

ب – وأن مهمة الدعاة إلى الله والحركيين أن يؤكدوا فى نفوس الناس معانى الإيمان الحق والهجرة الحق والجهاد الحق والإيواء الحق والنصرة الحق للمؤمنين.

● وأن يوضحوا للناس شروط كل ذلك وأركانه وآدابه وأن يشرحوا لهم باستفاضة أهمية الإيمان فى حياة الإنسان حتى إنه لا حياة كريمة إلا بالإيمان.

– فالإيمان شرط لرضا الله تعالى فى الدنيا والآخرة،

– والإيمان شرط لمن يمارس الدعوة إلى الله،

– والإيمان شرط فى ممارسة الحركة الإسلامية،

– والإيمان شرط فيمن يربى الناس تربية إسلامية،

– والإيمان شرط للتمكين لدين الله فى الأرض،

– والإيمان شرط فى المحافظة على التمكين بعد الوصول إليه،

– والإيمان شرط فى كل عمل يقوم به المسلم.

جـ – وأن جزاء المؤمنين حقا هو أعلى ما يطمح إليه مؤمن؛ إذ هو مغفرة للذنوب، ورزق كريم فى الدنيا والآخرة.

● – وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا الناس بأن من يزهد فيما عند الله غافل جاهل عدو لنفسه فى حاضره ومستقبله.

● وعليهم أن ينبهوا أنفسهم ومن يدعونهم من الناس إلى أن كل كلمة أو صمت أو عمل أو ترك من أجل الدعوة إلى الله، أو من أجل الحركة الإسلامية أو من أجل تربية الناس تربية إسلامية، أو من أجل التمكين لدين الله فى الأرض أو من أجل المحافظة على التمكين، كل ذلك قل أو كثر جزاؤه عند الله مغفرة الذنوب والرزق الكريم.

٤ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم...**﴾ ما يلى:

أ – أن من أكبر نعم الله تعالى على الإنسان أن جعل له باب الإيمان والهجرة والجهاد وإيواء المؤمنين ونصرهم مفتوحا إلى يوم القيامة، والمعنى –كما يجب أن يوضحه الدعاة إلى الله – أن ما كرم الله به أسلافنا الأوائل– رضى الله عنهم – من مغفرة ورزق كريم، لايزال باقيا لنا ولكل جيل يأتى بعدنا إلى يوم القيامة، ما ظللنا على الإيمان والهجرة والجهاد وإيواء المؤمنين ونصرهم.

● وليس شىء يفرح الإنسان مثل أن يعلم أن أمامه الفرصة لمغفرة الذنوب وللرزق الكريم الدائم الذى لا يمل ولا يسأم لحسنه وتنوعه.

ب – وأن كلمة: «أولئك منكم» الخطاب فيها للنبى ﷺ وصحابته، وهل بعد أن يكون المؤمن منا فى هذا الزمان عند الله تعالى من الرسول ﷺ وصحابته، هل بعد ذلك من تكريم؟

جـ – وأن كلمة: «من بعد» تعنى كل من آمن وهجر ما نهى الله عنه وجاهد فى سبيل الله إلى يوم الدين، وليس ذلك مقصورا على من كانوا فى عهد رسول الله ﷺ

وزمانه، لأن رحمة الله أوسع وأرحب وأعم.

٥ -ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله، إن الله بكل شىء عليم** ﴾ ما يلى:

أ - أن الإسلام بتشريعاته وأحكامه يقدر القرابة حق قدرها، وتلك هى الدعائم الإنسانية التى تقوم عليها شرائع الإسلام المتجاوبة مع الفطرة السوية المستقيمة، فالذين تجمعهم رحم واحدة من المؤمنين أولى بعضهم ببعض من المؤمنين الذين لا تجمعهم هذه الرحم، وإن كانوا جميعا يجمعهم هذا الولاء الذى تحدثنا عنه آنفا.

ب - وأن احترام هذه القرابات وتقديرها حق قدرها هو مما قرره الله تعالى فى كتابه وفى تشريعاته، وأن معنى ذلك أنه لا حياة كريمة للإنسان إلا فى ظل أسرة تبدأ بزوجين ثم تتفرع عنها قرابات عديدة، هى أولى بالولاء من أى اعتبارات أخرى.

- إنها فرصة الدعاة إلى الله ليؤكدوا حاجة المجتمع الإنسانى للأسرة، وما تقدمه الأسرة لأفرادها من ود ورحمة، وما تولده الأسرة من قرابات.
- إنها فرصة للرد على من نادوا ولا يزالون ينادون بأن تلغى الأسرة وأن تحل محلها دور الحضانة الحكومية التى ترعى اللقطاء، وتربيهم حتى يصبحوا رجالا، بل حكاما لبلادهم وقادة وموجهين!!

جـ - وأن يوقن الدعاة إلى الله، وأن يزرعوا فى نفوس الناس اليقين بأن تلك التشريعات وهذه الأحكام التى جاءت من عند الله فى كتابه الخاتم للكتب السماوية، وعلى لسان رسوله الخاتم للأنبياء والمرسلين، جاءت من عند من هو بكل شىء عليم، وقد علم الله ما يصلح الإنسان فى معاشه ومعاده فشرع له ما شرع، وأمره ونهاه.

- إن على الدعاة إلى الله، والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يوضحوا هذه المعانى للناس؛ لأن فى الأخذ بها سعادة الدنيا والآخرة.

خاتمة هذا الكتاب

الحمد لله الذى بفضله وعونه أتممت هذا الكتاب، فقد قلت فيه ما أردت أن أقوله من شرح وتفسير لسورة الأنفال، محاولا أن أوضح فيها -على نحو ما صنعت فى السور السابقة- ما تضمنته من قيم تربوية يحتاج إليها عامة المسلمين وخاصتهم فى ممارسة حياتهم، وفى مجالات عملهم.

● وفى هذه السلسلة: التربية فى القرآن الكريم، قد كان من أهدافى وراء كتابتها:

- أن ألقى ضوءا على معانى الآيات وما تضمنته من هدى للناس فى معاشهم ومعادهم.
- وأن أستنبط من الآيات القيم التربوية التى يحتاج إليها المسلمون فى ممارسة حياتهم اليومية، ليعيشوا بها حياة إنسانية كريمة تتلاءم مع تكريم الله تعالى للإنسان.
- وأن أستنبط من الآيات القيم التربوية التى تمد الدعاة إلى الله، والعاملين فى الحركة الإسلامية بالزاد الحقيقى الذى يتزودون به فى طريق الدعوة والحركة من أجل التمكين لدين الله فى الأرض.
- وأن أؤكد لمثقفى المسلمين أن التوجه إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فى كل ما يحتاج إليه المسلمون فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة هو التوجه الصحيح النافع القادر على أن يهديهم إلى أقوم السبل وأهداها؛ إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

● وقد من الله علىّ بأن أصدر من هذه السلسلة:

- التربية الإسلامية فى سورة المائدة،
- التربية الإسلامية فى سورة النور،
- التربية الإسلامية فى سورة آل عمران،
- التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب،
- التربية الإسلامية فى سورة الأنفال.

وأسأل الله تعالى أن يمنحني من الأسباب ما يمكنني به من إصدار:

- التربية الإسلامية في سورة النساء،
- التربية الإسلامية في سورة التوبة.

متبعا نفس المنهج، مستنبطا القيم التربوية على نفس المنوال.

● وأرجو الله تبارك وتعالى أن يأجرني على هذا العمل، وأن ينفع به المسلمين، إنه على ما يشاء قدير.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

يوم السبت: غرة شهر ربيع الآخر من سنة ١٤١٧هـ

الموافق ١٦ / ٨ / ١٩٩٦م

محتويات الكتاب

إهداء

بين يدى هذه السلسلة: التربية فى القرآن الكريم.

بين يدى هذا الكتاب.

سورة الأنفال والقيم التربوية التى اشتملت عليها.

سورة الأنفال: أسباب نزولها والمعركة التى تحدثت عنها.

سورة الأنفال: والجهاد فى سبيل الله.

تفسير آيات السورة الكريمة.

١ - الآيات الكريمة من الآية الأولى إلى الآية الرابعة:

فى بيان حكم الأنفال، ومطالبة المؤمنين بالتقوى وإصلاح ذات البين، وفى تحديد صفات المؤمنين وبيان جزائهم.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.
- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة.

٢ - الآيات الكريمة من الآية الخامسة إلى الآية الثامنة:

معركة بدر هدفها إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.
- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة.

٣ - الآيات الكريمة من الآية التاسعة إلى الآية الرابعة عشرة:

أنواع المدد الإلهى للمؤمنين فى معركة بدر.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة .

٤ - الآيات الكريمة من الخامسة عشرة إلى التاسعة عشرة :

- فى الجهاد فى سبيل الله، وشروطه، وظروفه، وعون الله تعالى للمؤمنين فيه .

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة .

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة .

٥ - الآيات الكريمة من الآية العشرين إلى الآية الثالثة والعشرين :

مطالبة المؤمنين بطاعة الله ورسوله، وتحذيرهم من تولى قلوبهم وعقولهم عنه وعن رسوله ﷺ .

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة .

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة .

٦ - الآيات الكريمة من الآية الرابعة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين :

مطالبة المؤمنين بالاستجابة لما يدعوهم إليه الرسول ﷺ ، وتحذيرهم من الفتنة، وتذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم، ومطالبتهم بتقوى الله تعالى، ليتحقق لهم الفلاح .

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة .

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة .

٧ - الآيات الكريمة من الآية الثلاثين إلى الآية الخامسة والثلاثين :

تذكير النبى ﷺ بما كان عليه حاله مع أهل مكة الذين كذبوه وتحدوه، وإخبار من الله تعالى بأنه لن يعذب أهل مكة ما دام الرسول ﷺ فيهم، على الرغم من كفرهم وعنادهم، أو ما داموا يتوبون ويستغفرون .

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة .

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة .

٨ - الآيات الكريمة من الآية السادسة والثلاثين إلى الآية الأربعين :

بيان لحال الكفار، وتوضيح لجهودهم في الصد عن سبيل الله، وتحديد لمصيرهم، وإخبارهم بأنهم لو انتهوا عن معاداة الرسول ﷺ غفر الله لهم ما قد سلف، وتهديد لهم لو استمروا على العناد والكفر، ومطالبة المؤمنين بقتال الكفار لو استمروا على كفرهم، ووعد المؤمنين بالنصر.

- المواقف التربوية العامة في هذه الآيات الكريمة.

- المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة.

٩ - الآيات الكريمة من الآية الحادية والأربعين إلى الآية الرابعة والأربعين :

حكم الغنائم، وحديث عن معركة بدر الكبرى.

- المواقف التربوية العامة في هذه الآيات الكريمة.

- المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة.

١٠ - الآيات الكريمة من الآية الخامسة والأربعين إلى الآية الرابعة والخمسين :

نداء على المسلمين بالثبات في لقاء العدو، وتحذير لهم من صفات المشركين والمنافقين، وحديث عما دار في معركة بدر.

- المواقف التربوية العامة في هذه الآيات الكريمة.

- المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة.

١١ - الآيات الكريمة من الآية الخامسة والخمسين إلى الآية الثالثة والستين :

بيان لحال اليهود في عدائهم للرسول ﷺ وللمؤمنين، وتشريع للتعامل مع اليهود، ومع كل عدو، ومطالبة المؤمنين بالإعداد والاستعداد.

- المواقف التربوية العامة في هذه الآيات الكريمة.

- المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة.

١٢ - الآيات الكريمة من الآية الرابعة والستين إلى الآية السادسة والستين :

فى تحريض النبى ﷺ لصحابته -رضوان الله عليهم- على القتال، ومطالبة المؤمنين بالصبر فى القتال والفقه فى الدين، لأن من سنة الله تعالى أن ينصر الصابرين.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة.

١٣ - الآيات الكريمة من الآية السابعة والستين إلى الآية الحادية والسبعين:

أحكام الأسرى، وأسلوب التعامل معهم يكشف عن احترام الإسلام لإنسانية الإنسان، حتى ولو كان كافرا معاديا.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة.

١٤ - الآيات الكريمة من الآية الثانية والسبعين إلى الآية الخامسة والسبعين:

أصناف المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ.

- المواقف التربوية العامة فى هذه الآيات الكريمة.

- المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة.

خاتمة هذا الكتاب.

محتويات الكتاب.

قائمة بأعمال المؤلف.

قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولا :

فى الفكر الإسلامى وقضاياه :

١ – مع العقيدة والحركة والمنهج . نشر دار الوفاء بمصر .

٢ – الغزو الصليبى والعالم الإسلامى . نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٣ – المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى . نشر دار المنار بالقاهرة .

٤ – الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى . نشر دار المنار بالقاهرة

٥ – التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطرق التغلب عليه . نشر دار الوفاء بمصر .

٦ – التعريف بسنة الرسول ﷺ، أو علم الحديث دراية . نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٧ – نحو منهج بحوث إسلامى . نشر دار الوفاء بمصر .

٨ – السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . نشر دار عكاظ بالسعودية .

ثانيا :

فى التربية الإسلامية :

٩ – تربية الناشئ المسلم . نشر دار الوفاء بمصر .

١٠ – منهج التربية عند الإخوان المسلمين . نشر دار الوفاء بمصر .

١١ – وسائل التربية عند الإخوان المسلمين . نصر دار الوفاء بمصر .

ثالثا :

سلسلة فى التربية فى القرآن الكريم :

١٢ – التربية الإسلامية فى سورة المائدة . نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

١٣ – التربية الإسلامية فى سورة النور .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .
١٤ – التربية الإسلامية فى سورة آل عمران .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .
١٥ – التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .
١٦ – التربية الإسلامية فى سورة الأنفال .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

رابعا :

سلسلة مفردات التربية الإسلامية :

١٧ – التربية الروحية .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .
١٨ – التربية الخلقية .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .
١٩ – التربية العقلية .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

خامسا :

فى فقه الدعوة الإسلامية :

٢٠ – فقه الدعوة إلى الله .	نشر دار الوفاء بمصر .
٢١ – فقه الدعوة الفردية .	نشر دار الوفاء بمصر .
٢٢ – المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله .	نشر دار الوفاء بمصر .
٢٣ – فقه الأخوة فى الإسلام .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .
٢٤ – فقه المسئولية .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .
٢٥ – التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة .	نشر دار الوفاء بمصر .
٢٦ – عالمية الدعوة الإسلامية .	نشر دار الوفاء بمصر .

سادسا :

سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا .

٢٧ – فهم أصول الإسلام .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .
٢٨ – الإخلاص فى مجال العمل الإسلامى .	نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٢٩– ركن العمل أو منهج الإصلاح الإسلامى . نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٣٠ – ركن الجهاد أو الركن الذى لا تحيا الدعوة إلا به . نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٣١ – ركن التضحية أو بذل النفس والمال وكل شيء في سبيل الله تعالى . نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٣٢ – ركن الطاعة . نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٣٣ – ركن الثبات نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية .

سابعا :

فى الأدب الإسلامى :

٣٤ – مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية في أدبه . نشر دار عكاظ بالسعودية

٣٥ – جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية في أدبه . نشر دار عكاظ بالسعودية

ثامنا :

فى الدراسات الأدبية :

٣٦ – القصة العربية فى العصر الجاهلى . نشر دار المعارف بمصر .

٣٧– النصوص الأدبية، تحليلها ونقدها . نشر دار عكاظ بالسعودية .

تاسعا :

كتب معدة للنشر :

١ – التربية الإسلامية فى سورة النساء .

٢ – التربية الإسلامية فى سورة التوبة .

٣ – باقى سلسلة مفردات التربية الإسلامية .

٤ – باقى سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا، وهى : ركن التجرد وركن الأخوة وركن الثقة .

٥ – التربية الإسلامية فى المدرسة .

٦ – التربية الإسلامية فى المجتمع .

رقم الإيداع : ٣٠٧٦ / ٩٧

الترقيم الدولى : 5 - 2765 - 19 - 977

